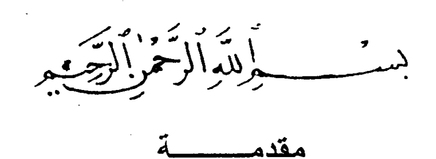
دكتور
سعيد إسماعيل علي
أستاذ أصول التربية بجامعة عين شمس

نظرات في التربية الإسلامية

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م



مقدمـــــــة

هذه هـى التجربـة الرابعـة التـى أقـوم فيهـا بتجميـع مجموعـة مـــن البحـــوث والدراسات فى التربية الإسلامية فى كتاب واحد ، كانت أولاها بعنـوان (دراسـات فى التربية الإسلامية) ، عام ١٩٨٢ نشرت فى عالم الكتب ، والثانيـة بعنـوان (بحوث فــى التربيـة الإسلاميـة) نشـرها مركـز التنميـة البشـرية والمعلومـات عـام ١٩٨٧ ، والثالثـة بعنـوان (رؤيـة إسـلامية لقضايـا تربويـة) نشـرتها دار الفكـر العربى عام ١٩٩٣ .

ومن الملاحظ أن الجهد العلمى فى التربية الإسلامية لـم يعد علـى نفس القـدر من الازدهار الذى كان عليه منذ أواخر السبعينيات وأواخر الثمانينيات ، مما يعزز تلك المقولة الشهيرة التى تقـول بارتبـاط ذلـك بـالحقبـة النفطيـة ! والذيـن روجـوا لهذه المقولة يغمزون ويلمزون ، إذ القصد مما قـالوا أن المسـألة لـم تكـن مسـألة مبدأ وإيمان بقدر ما كانت مسألة " تجارة " . ولا نريد هنا أن نبالـغ فى نفـى هـذا التفسير ، لكن الفرق بيننا وبين أصحـاب هذه المقولة ، أننا لا نعمم ، وإنما نذهـب إلى أن مقولتهم تصدق بالفعل على نفر من النـاس ، وهـذا شـأن البشـر فـى كـل زمان وفى كل مكان . عندما كانت سوق الاشتراكية رائجة فى مصر ، انقلـب كـل الكتاب إلى اشتراكيين ، فلما غرب عهدها وأشرقت شمس الرأسمالية من جديد إذا بدماء الاشتراكية تسفح على يد نفر من دراويش الأمـس فـى الاشـتراكية ، الذيـن يملكون قدرا من " البجاحـة " تجعلهـم يسـرعون بتـبرير انقلابهـم ، بـأن اسـتمرار الحال من المحال وأنه وارد أن يغير الإنسان رأيه ما دامت المتغيرات قد تحولت ، ، وأصبحـوا يرمـون الثـابتين علـى المبـدأ بـأنهم كـأهل الكهـف ، تيبسـت عقولهـم وأفلسوا وظلوا جامدين على أفكار الأمس معلنين بذلك عن عجزهم عن التطور !

ولعل ما يعزز مقولتنا نحن ، أن الازدهار فى بحوث التربية الإسلامية وانتشارها يرتبط بالصحوة الإسلامية ، والصحوة الإسلامية والحمد لله لم تخب نارها ، وشمسها مستمرة تزداد وهجا على الرغم من كل صور الحصار والضرب وتشويه السمعة ، والاختراق والاستهزاء • وكل ما هنالك أن الحقبة النفطية كانت تتيح فرصة إقامة عدد كبير من المؤتمرات ، والتى كانت بدورها فرصة لكثيرين للكتابة ، فضلا عن المشروعات البحثية ، ومشروعات النشر التى كانت تدعمها مراكز وهيئات وجامعات ، فلما انحسر كل ذلك كان طبيعيا أن ينحسر النشر •

بل إننا لنقول " رب ضارة نافعة " ، ذلك أن هذا الانحسار فى الدعم المادى فرصة رائعة " تغربل " سوق الكتابة والبحث فى التربية الإسلامية ، فيختفى هؤلاء الذين كانوا يكتبون ويبحثون " مسايرة " و " تكسبا " ليبقى من يكتب ويبحث إيمانا وتصديقا ، وعن مبدأ ، وفضلا عن ذلك فإن الموقف الراهن الذى يجف فيه التمويل ، بل وتزداد فيه المضايقات ، وصور الحرب المعلنة والخفية من شأنه أن يزيد رواد الطريق قدرة على الصمود وتحمل الابتلاء ، فتجىء الكتابات أدنى إلى القلب وأقرب إلى العقل ، بحكم ما تكون عليه من المصداقية •

وأرجو ألا يفهم القارىء من حديثى هذا أننى أبعد نفسى عن فريق المتاجرين المسايرين المنتفعين ، وأحشرها فى هذا الفريق " المبتلى " الباقى الصامد ، فالحكم ، فى الأول والآخر للقارىء نفسه وللنقاد ، وإنما هى محاولة لتشخيص الواقع من وجهة نظر المؤلف ، قد تكون صادقة وقد تكون غير ذلك •

وفى النهاية أرجو الله عز وجل أن يسدد على طريق الحق والمعرفة خطانا ، وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ، إنه نعم المولى ونعم النصير

المؤلف

شمس التربية الإسلامية تشرق من الجزيرة العربية *

أولاً - أبعاد التغيير الإسلامي

لقد قام الاسكندر بفتوحاته الخاطفة قبل الميلاد، فهل كانت تلك الفتوحات نار هشيم سرعان ما اشتعلت وسرعان ما انطفأت ؟ وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين ونظمهم وآدابهم ؟ ألم يكن الأمر على العكس، أن اعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التى فتحوها؟

ولقد جرب الاستعمار الأوربى الحديث حيله الواسعة وأساليبه الجبارة فى بلاد الشرق لكى يغزو عقول أهلها وقلوبهم، كما غزا أرضهم وديارهم فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية من صور الحياة؟ ثم إذا هو يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة؟ (١).

أما رسالة الإسلام، فإنها حين بسطت جناحيها على مجتمع شبه الجزيرة (وعلى غيرها) كانت كأنما أنشأته خلقا آخر .. لقد بدلته فى مناطقه المتفرقة وطناً واحداً، ومن قوانينه المختلفة قانوناً واحداً، ومن آلهته المتعددة إلها واحداً .. لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلا، وبدلت أسلوب تفكيره تبديلا، بل عمدت إلى لغته، فأضافت لغة القرآن لساناً إلى جانب لسانه، وكثيراً ما أنسته لسانه الأصيل وجعلت الاسلام هو لسانه الوحيد.

إن هذا النجاح ليس مرده فى نظرنا إلى سبب واحد من الأسباب، ولا إلى فضيلة من الفضائل .. لقد تضافرت عليه شخصية الداعى ومناهج دعوته وشخصية الأمة التى تلقت تلك الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسها، ومن وراء ذلك كله، كلاءة الله ورعايته.

---

* نشرت بالكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس، تحرير سعيد إسماعيل على . القاهرة، دار الفكر العربى . المجلدان الحادى والثانى عشر.

ويمكن أن نتبين أبعاد التغيير الإسلامى فى المظاهر التالية :

١- التوحيد السياسى:

فلعل من أبرز التغيرات التى أحدثها الإسلام وأعادت صياغة الحياة من جديد على أرض الجزيرة العربية، هى أنه جمع كلمة سكانها، فصاروا يداً واحدة مهما كان الاختلاف بينهم فى الأنساب وفى المواطن. وبدلا مما كان حادثاً من مفاخرات القبائل والبطون والأفخاذ، استطاع الإسلام أن يوحد بينهم تحت علم واحد كما يتضح لنا هذا من قوله ﷺ «المسلمون إخوة». وجاء على لسانه أيضاً يوم فتح مكة : «يا معشر قريش. إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب» (٢). أما فى خطبة الوداع ، فقد قال ، «...أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» (٣).

وكانت هذه الرابطة هى التى ساعدت على ظهور الأساس الذى قامت عليه الدولة الإسلامية، ونعنى به (الأمة الإسلامية)، فقد بدأ ميلادها فى رمضان من السنة القمرية التى تقابل عام ٦١٠م، عندما نزل الوحى على محمد ﷺ بأولى آيات القرآن الكريم، واتصل نزول الوحى على طول حياة الرسول حتى اكتملت عقائد الإسلام وشريعته وقانونه الخلقى (٤).

وأصبحت يـــثرب بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، معقل الإسلام وملجأ المسلمين (٥). وغدت تعرف باســم مـدينة النــبى، وتسمى اليوم (المدينة)، والمديـــنة المنورة) لوجود قبر الرسول بها (٦).

ومن هذا المجتمع الدينى فى المدينة، نشأت فيما بعد دولة الإسلام، وبقى الدين أس اجتماعها. وهذه أول محاولة فى تاريخ الجزيرة لتنظيم الجماعة العربية تنظيما غير مألوف من قبل قائماً على أساس دينى لا على أساس الدم كما كان فى الماضى أو مرتبطا بالله الواحد الفرد ممثل

الوحدة السياسية، وكان الرسول ﷺ على قيد الحياة هو المنفذ لتعاليم الله سبحانه وتعالى والمرجع الأخير فى شئون الأمة المدنية. وعلى هذا كان عليه الصلاة والسلام يمارس السلطة الزمنية نفسها التى يمكن أن يمارسها رئيس، ومن هنا أصبح جميع أفراد الجماعة الإسلامية، بقطع النظر عن نزعاتهم القبلية وولائهم القديم، إخوانا فى العقيدة وأعضاء فى أخوية واحدة، يجمعهم حب الله والاقتداء برسوله (٧).

وقد وضع النبى ﷺ دستورا لتنظيم الحياة العامة فى المدينة أو تحديد العلاقات بينها وبين جيرانها. ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم. وقد عرف هذا الدستور (بالصحيفة)، ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية، فإنما تقوم الدولة أولا ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور، ولكن النبى ما كاد يستقر فى المدينة ، وما كاد العام الأول من هجرته إليها ينتهى، حتى كتب هذه الصحيفة التى جعل طرفها الأول المهاجرين، والطرف الثانى: الأنصار، وهم الأوس والخزرج جميعا، والطرف الثالث، اليهود من أهل يثرب (٨).

وكانت مهمة النبى ﷺ السياسية بعد هذا تنحصر فى الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها، والأساس الذى نفسر به كل التصرفات السياسية، هو أن المدينة ومن انضم إليها، دولة واحدة غير متصلة بما عداها إلا بالشروط الجديدة التى وضعها النبى. ونستطيع أن نقول، أن حكومة المدينة ظلت قاصرة على المدينة نفسها وعلى ريفها إلى عام فتح مكة ٨هـ، فالطور الأول فى شكل الحكومة المدينية هو طور المدينة – الدولة City - state، وقد دام ثمانى سنوات. وكما حرص النبى ﷺ على أن يوجد داخل المدينة أداة للحكم وأن ينظم شئونها الداخلية، كذلك حرص عن طريق السرايا على أن ينضم إلى المدينة ما حولها من ريف وما حوله من قبائل(٩).

وبعد غزوة تبوك، أخذت بوادر الوحدة تظهر حيث أخذت القبائل

العربية تفد إليه معلنة إسلامها عن طوع واختيار، يقول ابن هشام فى ذلك: «ولما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف، وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه» (١٠)

وقد تمتعت المدن والقبائل بعد أن تحولت إلى الإسلام بقسط وافر من الاستقلال الذاتى داخل نطاق الدولة العربية الإسلامية ليعلموا الناس القرآن ويفقهوهم فى الدين ويجبون منهم الصدقات، ثم يوزعونها بين الفقراء من أهل تلك البلاد أو يرسلونها إلى المدينة، وترك الرسول للأمراء الذين أسلموا ما كان لهم من سلطان فى بلادهم قبل إسلامهم (١١).

وبعد وفاة الرسول وتولى أبى بكر مقاليد الحكم حدث حادث ضخم، وهو الردة، وكان نجاح الخليفة الأول فى التغلب على المرتدين تصفية وامتحاناً وصقلا وتثبيتا للإسلام ومدا لأطرافه حتى يدرك كل شواطئ البحر الذى يطوق الجزيرة من أطرافها. وكانت هذه الحروب (تصفية) لأنها خلصت الدولة الناشئة فى المدينة من كل الشكوك التى أثارها موت الرسول ﷺ والخوف من أن يكون فى موت البانى، تصدع البنيان. وكانت (امتحانا) لهؤلاء النفر من الصحابة والمؤمنين ليستبين مكان العقيدة من نفوسهم. وكانت (صقلا) لكل مقومات الجماعة الإسلامية فى نظمها وفكرتها ووحدتها، فوضعت النظم موضع التطبيق، ووضعت الوحدة موضع الغرض الأسمى فى الحياة الجديدة. وكانت أخيرا تثبيتا للإسلام ومدا له (١٢).

ومهما كان الرأى فى فتنة عثمان. فهى من بعض وجوهها مظهر لاحتجاج بعض أفراد الجماعة على الطريقة التى كانت الأمور تساس بها. وسواء وافق الإنسان الثائرين على اعتراضاتهم أو أنكر الطريقة التى تصرفوا بها حيال السلطة الحاكمة، فإنه لا بد أن يسلم بأنهم كانوا يؤمنون بأن من حقهم أن يسألوا عما لا يفهمونه من تصرفات إدارة الخليفة وأعمال رجاله. حقا لقد تحول الأمر فيما بعد إلى كارثة الحرب الأهلية فى عهد الخليفة الرابع على بن أبى طالب، ولكن الطريق الذى سارت فيه الأحداث شئ، ومبدأ محاسبة السلطة الحاكمة على تصرفاتها شئ آخر. وهذا المبدأ

فى ذاته لا بد منه لكل مجتمع حر [١٣].

٢- البناء العقيدى :

فلقد جاء الإسلام بعقائد أساسية كعقيدة التوحيد، وهى «لا إله إلا الله» فكانت الدعوة إلى التوحيد ثورة على عقيدة الأغلبية من سكان الجزيرة العربية الوثنية، وحتى الأديان السماوية - المعروفة وقتئذ، كان قد اندس فيها نوع من الوثنية، فإله اليهود ، أصبح إلههم وحدهم ، وإنهم - بحسب ما يروى لنا القرآن - كانوا يعبدون (عزيراً)- أحد رجال زمنهم - على أنه ابن الله، كما كانو يتبعون ما جاء فى التوراة بحيث ضرب القرآن المثل بهم بقوله «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً» [١٤]. ثم إن النصرانية العربية لم تعد نصرانية صحيحة، فالقبائل النصرانية فى الجزيزة كانت لها نفس طباع العرب فى الثأر، ومنهم من كان يحلف باللات والعزى من أصنام العرب [١٥]. ومن ناحية أخرى أضحت عقيدة المسيحية غامضة بعد ما غلبت عليها الفلسفة اليونانية [١٦]، وكل فرقة فيها تختلف عن الأخرى فى جوهر العقيدة نفسها. ولا بد أن الجدل زعزع أسس هذه العقيدة، لذلك كانت دعوة الإسلام بالسمو إلى إله واحد، دعوة إلى الإيمان بالعقل [١٧].

والعقيدة فى الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها. فمن عرف عقيدة قوم فى إلههم، فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان، ومن ثم صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات، فلا يهبط دين وعقيدته فى الإله عالية، ولا يعلو دين وعقيدته فى الإله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذى تتبعه جميع الموجودات [١٨] .

ولا شك أن هذه الصورة قد رفعت المستوى العقلى لعرب الجزيرة إلى درجة كبرى، فهذه الصفات التى وصف الإسلام بها الله، نقلتهم من عبادة أصنام وأوثان، وما يقتضيه ذلك من انحطاط فى النظر وإسفاف فى الفكر،

إلى عبادة إله وراء المادة ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ﴾. كان الإله عند أكثرهم إله قبيلة، وإن اتسع سلطانه، فإله قبائل، أو إله العرب، فأبانه الإسلام إله العالمين ومدبر الكون وبيده كل شئ، وعالماً بكل شئ، فاستطاع العربى بهذه التعاليم أن يرقى إلى فهم إله لا مادة له، واسع السلطان، واسع العلم. وأفهم الإسلام أن دينهم خير الأديان، وأن العالم حولهم فى ضلال، وأن نبيهم هادى الناس جميعاً، وأنهم ورثته فى هداية الأمم، فكان ذلك من البواعث على غزو هذه الأمم يدعونهم إلى دينهم ويبشرونهم به [١٩].

ولم يقف الامر عند حد الإيمان بالله ووحدانيته، وإنما تضمن البناء العقيدى الجديد جوانب وأركان أخرى كان لها أثرها في تشكيل الإنسان على هذه الأرض، و هذا ما يمكن أن نبينه فيما يلى [٢٠].

- المعرفة بالملائكة، إذ تدعو إلى التشبه بهم والتعاون معهم على الحق والخير كما تدعو إلى الوعى الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن، ولا ينصرف إلا لغاية كريمة.

- والمعرفة بالكتب الإلهية، انما هى عرفان بالمنهج الرشيد الذى رسمه الله للإنسان كى يصل بالسير عليه إلى كماله المادى والأدبى.

- والمعرفة بالرسل، إنما قصد بها ترسم خطاهم والتخلق بأخلاقهم، والتأسى بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة النظيفة التى أرادها الله للناس.

- والمعرفة باليوم الآخر، هى أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر.

- المعرفة بالقدر، تزود المرء بقوى وطاقات تتحدى كل العقبات والصعاب، وتصغر دونها الأحداث الجسام.

وهكذا يبدو بجلاء أن عقيدة بهذه الصورة، يكون لها أثرها فى تهذيب السلوك وتزكية النفوس وتوجهها نحو المثل الأعلى، وتهذيب سلوك الأفراد عن طريق غرس العقيدة الدينية هو أسلوب من أعظم الأساليب التربوية حيث أن للدين سلطاناً على القلوب والنفوس وتأثيراً على المشاعر والأحاسيس،

ولا يكاد يدانيه فى سلطانه وتأثيره شئ آخر.

وإذا كان مجتمع الجزيرة قد وجد فى هذا البنيان العقيدى. ماهو كفيل بأن يغير «عقله»، فقد وجد أيضاً فى الإسلام «تدريبات عملية» «وتمرينات سلوكية» حتى لا ينحصر البنيان العقيدى داخل السطور وينحبس على صفحات الكتب، وإنما يجد الطريق مفتوحاً إلى «التطبيق» و «التنفيذ» و «التشخيص»، فكانت (العبادات).

والعبادات كانت لتربية الضمير لدى المواطن ليأتلف مع غيره ، ويرتبط به ارتباطاً روحياً. وقد روى أن النبى ﷺ قال : «المؤمن يألف، فلا خير فيمن لا يألف ويؤلف»، فما كانت العبادات لحاجة الله تعالى إليها ولا لمجرد التقرب إليه سبحانه حتى يكون ذلك التقرب ولو بظاهر من القول غرضاً مقصوداً، إنما كانت العبادات لتربية الضمير الدينى اللوام عند مقارفة معصية أو مقاربتها [٢١]، وللإحساس بالاطمئنان إذا كان متذكرا الله سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [٢٢].

ولم تكن غايتها مجرد التقوى السلبية، بل اتجهت إلى النفع الإنسانى فى العالم سعيا وراء إيجاد مجتمع متحاب غير متباغض ولا متنازع، إذا كانت هذه العبادات لم تؤد إلى هذه الغنية العالية لدى البعض فى بعض الفترات، فإنها لم تكن عبادة محسوبة لأصحابها مرضية من الله، بل تكون محسوبة عليهم [٢٣].

٣- التنظيم الاقتصادى :

وليس من ريب فى أن الحياة فى شبه الجزيرة فى أصلها وكمالها، وسعادتها وعزها، من علم وصحة وقوة، واتساع عمران وسلطان، لم يكن سبيل إليه إلا بالمال، وقد نظر القرآن الكريم إلى الأموال هذه النظرة الواقعية، فوصفها بأنها زينة الحياة، وسوى فى ذلك بينها وبين الأبناء ووصفها بأنها قوام للناس وقوام الشئ ما به يحفظ ويستقيم وهى - كما

ترى - قوام المعاش والمصالح الخاصة والعامة.

ولما كان الإسلام دينا عمليا، ينظم بأحكامه - على أساس من الواقع - مقتضيات الحياة ويزاوج فى الوقت نفسه بين مطالب الروح والجسم بميزان العدل والاستقامة، وقد رسم للروح طريق سعادتها، كان من الضرورى أن يرسم أيضا للمادة طريق سعادتها، ويأمر بتحصيل ما فيه خيرها ونفعها. ومن هنا أمر بتحصيل الأموال من طرق فيها الخير للناس، فيها النشاط العملى، فيها عمارة الكون، والتقلب فى الأرض، فيها الاختلاط والتعارف والتعاون والمبادلة (٢٤).

ومن هنا فقد سار المواطن المسلم الذى تشرب العقيدة الإسلامية على حقيقتها صافية نقية فى هذه الفترة على أرض الجزيرة فى المجال الاقتصادى على هدى مبادئ ثلاثة (٢٥):

المبدأ الأول : أن هذه الحياة الدنيا هى دار العمل، وهى مزرعة الآخرة، فلا يتصور أن يمضى الإنسان فيها عمره سدى أو أن يقاطعها ويخاصمها بدعوى أنه يؤثر الآخرة ويعد نفسه لها، فهذا النوع من الزهد غريب كل الغرابة على روح الإسلام ومخالف للثابت من نصوصه، والاستعداد للآخرة لا يتم على أرض غير هذه الأرض، ولا يقع فى زمان يجاوز عمر الإنسان.

المبدأ الثانى : أن الله قد أحـــــل الطيـبات لعباده المؤمنين ولم يضطرهم إلى شئ من التأثم وتعـذيب الضـمير إذا هـم أخذوا مـن هذه الطـــيبات بنـــصيب لم يســـرفوا فيه ولم يقتروا « ﴿وكان بين ذلك قواما﴾ (٢٦)، ﴿قُلْ منْ حَرَّمَ زينة الله الَّتي أَخْرجَ لعباده والطَّيِّبات من الرِّزْق﴾(٢٧).

المبدأ الثالث : إن رسالة المسلم فى الحياة، رسالة مزدوجة، فهى فى جزء منها تعمير للكون ... وفى جزء آخر ترشيد لحركته وهداية لها حتى تستقيم على أمر الله. ويقول تعالى :﴿هو أنشأكُم مَن الأرْض واستعْمركُم فيها﴾ (٢٨)، ثم يدعو إلى تعميرها وإثرائها والحفاظ على خيرها، ويحذر من

إفسادها وتدميرها. ويقول ﷺ : «من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، كان له فى كل شئ نصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل» [٢٩].

وقامت «الملكية» على أرض الجزيرة على الأسس الإسلامية، ومن تحليلنا لهذه الأسس نخرج بالنتائج التالية. [٣٠]

١- أن هذا التحليل يرينا للملكية أنواعا ثلاثة، فهناك ملكية بقيت على أصلها ملكا لله لم تمسها يد بشر لا الفرد ولا الجماعة، مما خلقه الله ولم يحرزه البشر، ولم ينتفعوا به سواء أكان فى الأرض التى نسكنها أو فيما فوقها.

٢- وهناك ملكية استحوذ عليها المجتمع كله كالبحار الكبرى، أو جماعات منه مما لا يزال عاما مشتركا مشاعا بينهم، أو جماعات معينة كأهل قرية لهم مراع، أو أرض مشتركة لم يحرثوها ولم يزرعوها.

فهذا النوع من الملكية تعلق به حق المجتمع كله أو بعض جماعاته مع استمرار حق الله فيه الذى هو المالك الحقيقى لما فى الكون.

٣- وهنالك أخيراً ملكية أحرزها إنسان بعينه بسبب مشروع اكتسب به على الشئ المملوك حقاً خاصاً به لا ينازعه فيه غيره، يتصرف به وينتفع بمنافعه وثمراته مع بقاء الأصلين السابقين اللذين هما حق الله الأصلى فى الملك، وحق الجماعة التى بقى لها بعد إحراز الفرد الملكية نوع خاص من الحق تظهر آثاره فى أحكام الملكية الفردية نفسها وما تقيد به من قيود وتتحمله من واجبات دون أن يعنى ذلك نفياً للملكية الفردية ولا إنكاراً لها [٣١].

٤- إن حق الفرد فى التملك منبثق عن تخصيص الله له بهذه الملكية بسبب مشروع وليس هو موظفاً على ملكيته من قبل الجماعة أو المجتمع، وليست الجماعة هى المالك الحقيقى لأن الفرد أحرزها

بحكم من الله وبتخصيص من التشريع الإلهى نفسه، ولكن الله الذى ملكه، أمره أن يراعى حق عباده، أى المجتمع وأن يتحمل بنسبة قدرته بعض تكاليف الجماعة وحاجاتها سواء أكانت هذه الجماعة أقاربه وأسرته أم كانت أهل بلده أم المجتمع الكبير الذى ينتمى إليه.

وإذا كان المال قد تدفق فى عهد الفتوح الإسلامية التى بدأت فى عهد أبى بكر ثم استمرت فى خلافة عمر وعثمان، بل سال سيله الذى لا ينقطع على المدينة ومكة، فهنا نشأت الظاهرة الاجتماعية المعروفة وهى انقسام المجتمع إلى طبقتين : طبقة الفقراء، وطبقة الأغنياء، بل أصحاب الملايين. ويظهر أن الفقر الذى كانت تعانيه بعض الطبقات فى هذه الحقبة كان شديداً قاسياً أثار القلوب الرحيمة ودفع عدداً من طبقات المفكرين إلى البحث عن حل له. والنقطة الأساسية فى الموقف، هى مدى حق الفقراء فى أموال الأغنياء، فقد كان أبو ذر الغفارى، وعدد آخــر من كبار الصحابة منهم على بن أبى طالب نفسه وعبدالله بن عمر يعتقدون أن الزكاة ليســت كل الواجــب، ولكنهم اختلفوا فى تحديد المقدار الذى يجب بعد أداء الزكاة(٣٢).

٤- التنشئة الاجتماعية الفاضلة:

ولقد أجهد الفلاسفة ودعاة الإصلاح أنفسهم قديماً وحديثاً فى تصور المدينة الفاضلة أو المجتمع الفاضل ولم يتجاوز أمرهم نطاق حلم لذيذ فى نومة مسترخية، ولعل السبب فى ذلك، أن البناء الاجتماعى الذى تصوروه، كان يعوزه من المقومات الأصلية ما يمنحه التماسك ويعطيه صلابة المناعة وصمود المقاومة، كما كان ينقصه الملاءمة بين التصور والواقع.

وللمجتمع الفاضل مظاهر لا ينبغى أن تكون موضع خلاف، وأبرز هذه المظاهر شيوع الأمن وقيام العدالة، وسيطرة نوازع الخير، والاستجابة لمعطيات التطور، وهذه المظاهر تلتقى على نقاء العلاقات الإنسانية

وصفاتها فى تفاعلها مع الحياة والأحياء.

وكل ذلك قد بدأ متجسدا فى المجتمع الذى أقامه الإسلام على أرض الجزيرة فى سنواته الأولى حيث شاع الأمن، وقامت العدالة وسيطرت نوازع الخير [٣٣] وهذا ما نستطيع تبينه من خلال الملامح الآتية :

- فقد حذرت الشريعة الإسلامية من ارتكاب المحرمات على وجه العموم منذرة بعقوبة الآخرة على صورة تثير فى نفوس المؤمنين شدة الخوف من الإقدام على شئ منها وتدفع فى الوقت نفسه عن المجتمع كثيرا من شرورها، ثم وضعت لبعض الجنايات عقوبات دنيوية إلى جانب العقوبات الأخروية حتى يتآزر فى دفعها وزجر الناس عنها، رادع الدين ورادع السلطان.

فما كان من الجنايات خفيفاً لا يمكن ضبطه بمظاهر محددة كالغيبة والنميمة والحسد، والحقد، والكذب، وغير ذلك مما يتصل بالجانب الخلقى أكثر من اتصاله بالجانب العملى أو كان متصلا كثيرا بالجانب العملى،ولكن لم يأخذ الصورة القصوى من صور الإجرام كأخذ المال غصباً، اقتصرت فيه على التحذير بالعقوبة الأخروية، التى ترجع إلى العليم بما تنطوى عليه الجوانح وما تخفيه الصدور، وما كان منها متصلا بالحياة العامة وله آثاره السيئة فى حقوق الأفراد والجماعات، وله من عناوين الإغراق فى الشر أقصاها، جعلت له عقوبات دنيوية على الحاكم تطبيقها وتنفيذها. [٣٤]

- وإذا كان الإسلام قد قرر أن الناس درجات، إلا أنه وضع الكثير من الضوابط التى حالت بين المجتمع الإسلامى وبين وقوع أبنائه فى براثن سوء الاستغلال والطبقية بصورتها القبيحة. ذلك أن تفضيل بعض الناس على بعض فى الدنيا حسب حظوظهم من الحياة وتفاوتهم فيها على قدر تفاوتهم فى قدراته وعملهم، أمر ظاهر ملموس لا مناص منه لا فى الإنسان فحسب ولكن فى كل ما خلقه الله في هذا الكون. ومن هنا نجد أن أكثر ما عنى بالدرجة والدرجات فى آيات القرآن الكريم، إنما هو الحديث عن المكانة

والمنزلة التى جعلها الله لعباده فى الآخرة فى الجنة أو فى النار حسب مقاماتهم التى تهيئها لهم فى أعمالهم ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ (٣٥) والنعيم فى الآخرة متفاوت وعلى درجات، كما أن العذاب كذلك. وهذه المقامات والدرجات وإن كانت خاصة بالآخرة، إلا أنها توحى للمؤمنين العقلاء أن يلتزموا بالميزان الذى يزن الله به هؤلاء، وهو الأعمال المرتكزة على العقيدة السليمة لا المال . (٣٦)

– إذا كان الفرد هو اللبنة الحية فى بناء المجتمع الإسلامى، كان من البديهى أن يهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بالمحضن الطبيعى الذى يقوم على رعايته، وليس هناك أجدر ولا أحق من الأسرة مكاناً لهذه الرعاية، ومن ثم فقد اهتم بتكوينها بالأمور الآتية : (٣٧)

١- حرم الزواج بالأقربين سموا بهذه القرابة ورغبة فى امتداد الأسرة وسعتها ووقاية لهذه الدائرة القريبة من شواجر الخصومة والبغضاء.

٢- قرر حق الرضاعة والحضانة اهتماماً بالطفولة وحفاظا على الرابطة الأسرية كى تمتد وتزدهر فلا تنقطع ولا تتوقف.

٣- قرر حق النفقات للأصول على الفروع، والفروع على الأصول على تفصيل مذكور فى كتب الفقه.

٤- وقرر التوارث بنظام فريد يحفظ لكل ذى قرابة حقه.

٥- وقرر حق العتق لمن ملكه قريبه.

٦- وقرر وجوب صلة الأرحام بالبر والتعهد والزيارة.

– ألغى الإسلام الرق الناشئ عن القرصنة و الاختطاف، والرق الناشئ عن تجريد الإنسان من حريته الشخصية بسبب استغراق ذمته بدين ونحو ذلك والرق الجماعى الناشئ عن السيطرة والاستيلاء على البلاد العدوة، أما الصور المتبقية، فقد وضع أسس إبطالها فى المستقبل.

هذه هى مجرد لمحات من التغيرات الجذرية التى أحدثها الإسلام

على أرض شبه الجزيرة وفى غيرها بطبيعة الحال، مثلت «مسرح» العمليات التربوية .. وبتعبير أدق مثلت (الإطار الأيديولوجى) للعمل التربوى. وقد قلنا (لمحات) لأنها قطرات من بحر كبير يقتضى استيفاءه كتباً عدة.

ثانياً - الأسس التربوية كما حددها الإسلام

وإذا كانت شبه الجزيرة قد شهدت فجر الإسلام بكل ما يمثله وجوده من معانى التغيير والتجديد والتطوير لحياة الانسان إلى الدرجة التى جعلتنا نذهب إلى القول بأنه قد خلقه من جديد - والخلق هنا مجاله السلوك والتفكير والقيم والعادات الاتجاهات وكل مكونات الشخصية- فإن من المنطقى أن يحرص الإسلام على أن يضع صورة كاملة متكاملة للطريقة التى أعاد بها صياغة هذا الإنسان، وبمعنى آخر، كان من الطبيعى أن تحتل التربية مكانة ممتازة فى الإسلام حيث أنها - كما نعلم - عملية عن طريقها تحول الأفكار والمعتقدات إلى سلوك وعادات واتجاهات وقيم تحدد للانسان الطريق إلى الأهداف المطلوبة :

ومن ثم فقد كان لزاما علينا أن نحاول التعرف على بعض هذه الطرق، وكذلك بحث ما قامت عليه من أسس ومفاهيم كى يتم لنا التعرف على مرحلة خصبة وخطيرة من مراحل تطور التربية والتعليم فى هذا البلد. وإنه لمما يدعو إلى الفخر والتقدير حقا، أن تكون تلك المرحلة هى المهد الأول للتربية فى كل العالم الإسلامى فى مختلف العصور وإن دخلت عليها بعد ذلك عوامل التبديل والمؤثرات الأجنبية وأسباب الجمود والتخلف التى عرفها ذلك العالم فى عصور تالية.

١- المفهوم الشامل "للعلم" و "التعليم"

فلقد حدد القرآن الكريم للعلم معنى شاملاً لا يجعله يقتصر - كما ظن البعض خطأ - على العلم الدينى، وإنما :

(أ) جملة المعارف التى يدركها الانسان بالنظر فى ملكوت السموات

والأرض، وما خلق من شئ، ويشمل الخلق هنا، كل موجود فى هذا الكون ذى حياة أو غير ذى حياة. (٣٨) وهذا المعنى يفهم من هذه الآيات العديدة التى تحض الإنسان على البحث والدراسة لما فى الكون من مظاهر مختلفة، منها على سبيل المثال :

﴿ أَفَلَمْ يروْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٣٩).﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾. (٤٠) ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤١). ﴿ أَفَلا ينظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٤٢).

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤٣)

وعلى ذلك فالعلم الذى وجد العربى نفسه مطالباً بالسعى وراءه، يشمل كل ما يوسع المدارك ويبصره بأمور الحياة، ويفيده توفيقا وقدرة على الاستفادة بكل ما خلق الله لإسعاد البشرية، فإدراك طبيعة الأرض وما يحيى مواتها ويجعلها تنبت وتثمر، علم مطلوب دراسته وتعلمه. وما يصلح الحيوان ويسخره لخدمة الإنسان واكتمال الانتفاع به، علم يدعو القرآن إلى تعرفه، وطرق الكسب المشروعة لتحصيل المال واستثماره على الوجه الذى ينظم موارده ومصادره ويمنع التحكم والاحتكار ويزيل الحقد والغل من النفوس، علم يجب التعرف عليه والتسلح به، والتعرف على الصناعات بأنواعها التى تيسر للإنسان سبل الحياة وتمكنه من الانتفاع بالقوى الكامنة فيما خلق الله علم مطلوب منه الوقوف عليه، وما يحفظ به الأنفس من الهلكة بمقاومة الأمراض والعلل وطرق علاجها والوقاية منها، علم وجب التزود به،

وكل ما يمكن إعداده من قوى يدفع بها الأذى والعدوان ويرهب به من تحدثه نفسه العبث بالأمن والسلام، علم وجب التعرف عليه. (٤٤)

(ب) «التبصر فى أى أمر من الأمور، والإتيان به على الوجه الأكمل» (٤٥) أو بمعنى آخر هو طريقة تفكير ومنهج وبحث، وهذا يفهم من قوله تعالى :«هل يستوى اللذين يعلمون واللذين لا يعلمون»؟ وهو استفهام استنكارى، معناه أنه لا يستوى عالم وجاهل. وقد قال تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أى أن الظلمة لا تساوى النور، فبين الله لنا أن الظلمة مثال لحال من لا يعلم وأن النور مثال لحال من يعلم، نتبين من ذلك أن عدم العلم يشبه الظلام، ونحن نعلم ما يكون من الإنسان إذا اشتد به الظلام وهو سائر فى طريق يقصد غاية معلومة، فان الظلام يعمى عليه الطريق وربما سلك طريقا يبعده عن مقصده، وقد يصادف هوة فيسقط فيها فيهلك قبل الوصول إلى مقصده (٤٦).

ولذلك كانت عملية (التعليم) شاملة بنفس المعنى أيضاً (٤٧)، فسبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٨)، فإن هذا يعنى أن الرسول ﷺ يعلم المسلمين تلاوة القرآن، وهذه التلاوة لها مقوماتها وأركانها التى تجعل من يتلو القرآن يكون قد تلاه (حق تلاوته). وهى الفهم والوعى والتدبر، فهى بهذه الصورة تؤتى أكلها، ويجنى القارئ ثمارها، هذه الثمار التى تتبدى فى تطهير النفس البشرية من أدران الرذيلة وسوء الخلق مما يجعلها فى حالة تسمح له بتلقى الحكمة وتعلم كل ما ينفعها ومالم تكن تعلمه.

ويجب أن ننبه هنا إلى أن المقصود بالحكمة هنا هو النتيجة النهائية التى يصل إليها الإنسان بعد تحصيل قدر كاف من المعرفة والتمرس بطرق التفكير السليم مطعما هذا وذاك بتجارب الأيام وخبرة الحياة، ومن هنا كان الحاصل عليها مستحقا الثناء ومعتبرا من الحاصلين على

الخـــير الكثير ولا يدرك ذلك ويعيه حق الوعى إلا من أعمل عقله بذكاء كما يقول تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٤٩).

٢- التعلم حق .... وواجب :

وإذا كان العلم فى الإسلام يتسع ليشمل المعرفة بجميع مجالاتها مما فيه النفع والتعمير للكون والمجتمع، وإذا كان «التعليم» أيضا لا بد أن يكون عملية شمولية متكاملة، كان التعلم واجباً على كل مسلم، وكان حقا له على المسئولين توفير فرصه وسبل الحصول عليه، وهذا ما نتبينه من عديد من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم، فتارة نجد ما يفيد التعلم كواجب، وتارة نجد ما يفيد التعلم كحق، وتارة ثالثة نجد الأمرين معا فى ترابط وعروة وثقى.

فما يفيد التعلم كواجب، ذلك الأمر الربانى الذى تدل عليه الآية الكريمة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَنَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَنَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٥٠). ومغزى أن تكون القراءة باسم الله ، هو تطهيرها مما قد يشوبها من أغراض شخصية بحتة وأهداف تخريبية وشطحات عنصرية.

والله سبحانه وتعالى إذ يجعل من أصحاب العلم فئة تستحق التقدير والامتياز كما فى قوله : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٥١)، أو يقرنهم باسمه الكريم وبالملائكة فى شهادة التوحيد كما فى قوله :﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥٢)، إنما يعنى إيجاب سعى المسلم للحصول على هذا الشرف وذاك التقدير. وقد أكد القرآن طلب الإقبال على العلم ومواصلة تحصيله وجعله الوسيلة التى يصل بها المرء إلى معرفة الخالق والإيمان به، وعاملا من عوامل خشيته فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٥٣).

كذلك جعل الرسول ﷺ طلب العلم واجبا على كل فرد مسلم حيث قال : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (٥٤). ويمثل الترغيب فى طلب العلم جانبا من أحاديث الرسول الكريم، فعن أبى الدرداء أنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً، سهل اللّه له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً مما يصنع، وإن العالم ليستغفر له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض، حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (٥٥).

أما التعلم كحق، فنعنى به إلزام فريق من المسلمين المتعلمين بتعليم غيرهم ممن لا يعلمون لا على أساس أن ذلك منة يمنون بها عليهم، ولكن على أساس أن ذلك حق لهم، فكما أن الذى رزقه اللّه من الثروة المادية الشئ الكثير، قد ألزم بأن يعطى مما أفاض اللّه عليه لمن لا يملك، فإن نفس الحكم يصدق فى موضوعنا، لأن المتعلم هنا يملك : ثروة لا تقل عن الثروة المادية، إن لم تفضلها ثروة فكرية، والجاهل فقير علمياً.

ومن الآيات القرآنية التى تبين، ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٥٦) ويؤكد محمد رشيد رضا (٥٧)، إن العبرة فى هذه الآية هى أن حكمها عام، وإن كان سببها خاصاً ، فكل من يكتم آيات اللّه وهدايته عن الناس، فهو مستحق لهذه اللعنة، ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على من قد يلبسون لباس الدين من المسلمين وينتحلون الرئاسة لأنفسهم بعلمه، فيقول بعضهم : إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا سئل العالم عن حكم اللّه تعالى فكتمه، ويأخذون من هذا التأويل قاعدة، هى أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل اللّه تعالى ودعوة الناس إليه وبيانه لهم، وإنما

يجب على العالم أن يحيل على غيره، ... إلا أن الفهم السليم للقرآن الكريم يبين أنه لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيان هداه للناس وبالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاه عن الذين قصروا فيها من قبل، كقوله تعالى «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتو الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ...» وقوله «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير» .. إلى قوله فى المتفرقين عن الحق «وأولئك لهم عذاب عظيم»، وقوله «لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم».. إلى قوله فى عصيانهم الذى هو سبب لعنهم «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه» فأخبر سبحانه و تعالى أنه لعن الأمة كلها لتركهم التناهى عن المنكر.

وفى موقف آخر نجد الله يقرن التعليم بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله حيث يقول : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ (٥٨).

كذلك قال رسول الله ﷺ : «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، وافتوهم». (٥٩)

وإذن فالمسألة ليست فى مجرد إعطاء المسلم حقه فى التعليم، وإنما يجب أن يتم ذلك فى جو من الرضى والتبسط والبشاشة، إذ أن ذلك من شأنه أن يسهل طريقه على المتعلم ومن شأنة أن يثبته ويدعمه.

وقد طلب الرسول ﷺ من المتعلم ألايكون أنانياً يمنع العلم عن الآخرين، ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال : «من سئل عن علم فكتمه ألجمه يوم القيامة بلجام من النار».(٦٠)

أما الأحاديث التى تعنى الأمرين معاً، فمن مثل قوله عليه الصلاة والسلام : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

٣- المفهوم الشامل لشخصية المتعلم :

ووضع الإسلام تصوراً للإنسان – موضوع التعلم، والذى ينصب عليه فعل التربية – يقوم على المفهوم الشامل الذى لا يقتصر على جانب منه دون آخر وإنما يتناوله فى كليته وبنفس المنهج المتكامل الذى عالج به القضايا الأخرى.

ولعل أول ما يستوقف المربى حقاً فى القرآن الكريم، هو تلك المنزلة الرفيعة التى احتلها فيه الإنسان بين سائر المخلوقات، ويتجلى لنا هذا فى قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾. (٦١)

وخلافته لله فى الأرض – كما نفهمها من آيات الله البينات – تعنى تعمير الأرض بإشاعة الخير والسلام فيـــها، وبالعمل علــــى إظـــهار عظـــمة الخالق وقدرته عن طريق الانتفاع بما خلق الله.(٦٢)

وهذه الرسالة التى ائتمن الإنسان عليها، تستلزم أن يكون له من الخبرة ما يمكنه من أدائها، وقد أنعم الله عليه بما يحتاج إليه فى هذا السبيل، فمنحه القدرة على التعلم والانتفاع بكل ما تقع حواسه عليه حين منحه المعرفة التامة لخصائص الأشياء وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾. (٦٣)

ولتتم خلافته عن الله فى الأرض، كان لا بد أن تخضع له المخلوقات الأخرى ليتم انتفاعه بها كما ينبغى، وتلك نعمة أخرى أسبغها الله عليه إذ سخرها له وأسس قيادها لنفعه. ومن اليسير أن ندرك أن تسخير هذه المخلوقات للإنسان يتم عن أحد طريقين (٦٤) :

أولهما : القوانين التى خلق الله العالم عليها وجعلها بحيث تسد حاجات الإنسان المتباينة دون أن يكون له يد فى تسييرها أو قدرة على

تغيير مجراها. وقد عبر عنها القرآن فى قوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(٦٥) أما الطريق الثانى لتسخير المخلوقات الأخرى للإنسان، فهو القدرة على التعلم التى وهبه الله إياها، وبواسطتها يستطيع أن يخضع هذه المخلوقات لإرادته ويوجهها الوجهة التى تصلح من شأنه وتسد من حاجته، وقد عبر القرآن عن ذلك فى مثل قوله : ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴿٨﴾ ﴾(٦٦)

ومن الطبيعى بعد ذلك أن يتحمل كل إنسان نتيجة عمله هو وما قدمته يداه، ولايحمل وزر غيره، كما أن غيره لا يحمل وزره، هذا هو الإنسان المسئول (٦٧) إذ لا يعقل بعد أن يهيئ الله له كل هذه الإمكانات، ويكرمه ويسخر له كثيراً من مخلوقاته أن يكون غير مسئول.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ، مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (٦٨) .

كذلك نرى هذا المبدأ واضحا فى تلك الكلمات التى جاءت على لسان رسول الله ﷺ: «ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع

وكلكم مسئول عن رعيته» (٦٩).

والرعاية المقصودة هنا لو حللناها تحليلا علميا دقيقا، فسوف نجد أنها تتفق تماماً مع المعانى المتضمنة فى كلمة (التربية) بحيث يمكن لنا أن نستنتج أن الرسول هنا يلقى المسئولية التربوية على عاتق كل فرد، فهى مسئولية يشارك فيها الجميع وليست عبئاً يتحمله البعض.

ومن مظاهر تلك النظرة الشمولية، والتعامل مع الإنسان بما فطر عليه وهذا يتضح لنا من أمور ثلاثة (٧٠) :

الأول : أنه راعى الفطرة الإنسانية بشكل عام، ولذلك لم يحاب فئة من فئات الناس، ولا طبقة من طبقاتهم، ولا عنصرا من عناصرهم على حساب الفئات و الطبقات والعناصر الأخرى فيما قرره من أحكام وماساقه من مبادئ، وما أرشد إليه من مناهج ووسائل.

الثانى : أنه راعى فى نظرة شاملة، (اختلاف الخصائص التكوينية والفروق الفردية فى تحديد مسئوليات الأفراد) فمن ارتقت خصائصه من الناس، عظمت مسئوليته بمقدار ارتقائها، ومن انخفضت خصائصه منهم قلت مسئوليته بمقدار انخفاضها، ومن ارتبطت به مسئولية خاصة أو عامة، كانت له حقوق مماثلة وعليه واجبات أيضا مماثلة.

الثالث : أنه راعى فى شمول رائع اختلاف الأحوال والأعراف الإنسانية التى تستدعى اختلافا فى الأحكام الشرعية وذلك بشكل عام أيضا.

والإسلام حين يرسم منهاجا لتربية الإنسان، لا يضع فى اعتباره الجانب الروحى الذى يهم الأديان عادة، وإنما يضيف إلى ذلك، ضرورة تربية (جسم الإنسان)، وما يحتاج إليه من ماديات ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّه الَّتي أَخْرَجَ لعبَاده وَالطَّيِّبَات منَ الرِّزْق قُلْ هي للَّذين آمَنُوا في الْحَيَاة الدُّنْيَا خَالصَةً يَوْمَ الْقيَامَة كَذَلكَ نُفَصِّلُ الآيَات لقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (٧١). ويقول أيضا :

﴿ نساؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ (٧٢) .

وهو فى تربيته للجانب اللامادى يضع الحجر الأساسى لهذا اللون من التربية بضرورة الإيمان بالله. والإيمان بالله ليس قولا ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده، ولا آيات من القرآن تتلى فى مقام الاستشهاد بالارتباط بالإسلام (٧٣)، ولكن للايمان بالله مقتضيات تستوجب التضحية ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾. (٧٤)

وأخيرا، فهناك تلك الشمولية التى تجمع بين الفردية والجماعية فى إطار متكامل، إذ لا مجال لإنكار اهتمام الإسلام بالفرد وعنايته البالغة بتهذيب ضميره وخلقه وتوجيه سلوكه، (٧٥) وهى عناية قد يسئ المحدثون فهمها فيما يسمعون من اتجاه المذاهب العصرية إلى المجتمع على تفاوت بينها فى موقفها من الفرد بين إهدار شخصيته أو الاعتراف بها بقدر محدود.

إن الذى نود إيضاحه هنا، هو أن الإسلام ألغى الحواجز غير الطبيعية بين الفرد والجماعة، فهما فيه لا ينفصلان، وهو فى عنايته بالإنسان فردا، إنما ينظر فيه إلى اجتماعيته التى لا يمكن تصور إنسانيته بمعزل عنها كما لا يتصور كيان اجتماعى بغير أفراد.

وفى الحق أن الذاتية الجماعية أصيلة فى العرب، عرفت فى نطاق القبيلة، يحقق فيها الفرد ذاته غير منفصل عنها، ولكن الإسلام فى رفضه لعصبية القبيلة اتجه بهذه الذاتية الجماعية الأصيلة إلى نطاقها الرحب فى الأمة، يحقق الفرد فيها ذاته، ويستقيم أمر الجماعة بصلاح أفرادها فى اندماج وثيق.

٤- الاستقامة الخلقية :

والاستقامة الخلقية هى التى تدفع الإنسان إلى أن يسلك سبيل الخير لا سبيل الشر وسبيل الهدى لا سبيل الضلال، وسبيل الحق لا سبيل الباطل، وسبيل العدل لا سبيل الظلم، وسبيل الأمانة لا سبيل الخيانة، وبذلك يعمل العمل الصالح ويحقق الحياة الأفضل.

والاستقامة إنما تعنى ممارسة الإنسان الحياة فى إطار من القيم والمبادىء والآداب العامة التى رسمها الإسلام ودعا الناس إلى الإيمان بها وممارسة الحياة على أساس منها.

والظاهرة الجديرة بالتسجيل فى هذا المقام أن القرآن الكريم يسوق هذا المطلب فى صيغة الأمر المباشر فى بعض الأحوال، وفى أحوال أخرى بصيغة غيرمباشرة. (٧٦) والفرق بين الصيغتين، إنما ينبت من طبيعة الشخصية الإنسانية المطالبة بتحقيق الاستقامة ويعكس هذا الفرق فى الوقت ذاته طبيعة الاستقامة، فالقرآن الكريم حين يطلب من القادة أو من الأنبياء والمرسلين والمصلحين الاستقامة، يطلبها بصيغة الأمر المباشر على أساس أن المهام الملقاة على عاتقهم تجعل منهم النماذج التى تحتذى وينسج على منوالها وهذا يتطلب منهم أن يكونوا من المستقيمين أصحاب الإرادات القوية والعزائم الجبارة والأخلاق الحميدة. يقول تعالى مخاطباً النبى ﷺ : (فاستقم كما أمرت).

والقرآن الكريم حين يطلب من بقية الناس وبخاصة المسلمين أن يكونوا مستقيمين، ويطلب ذلك عن طريق طلبه منهم : التوجه إلى الله بالدعاء أن يهديهم الطريق المستقيم، يقول تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. وهذه الصيغة وكونها فى

سورة الفاتحة ، تدل دلالة قوية على أهمية الدور الذى تلعبه الاستقامة فى الحياة العامة، وتدل فى الوقت نفسه على أن تحقيقها يحتاج فعلا إلى العزائم الجبارة والإرادات القوية . (٧٧)

ومن هنا مجد الإسلام الأخلاقيات الفاضلة، وحث على مكارم الأخلاق حثا شديداً، ونظراً إلى شرف منزلة الأخلاق، أثنى الله على رسوله محمد ﷺ بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٧٨) وحصر الرسول مهام بعثته بإتمام الأحداث الخلقية، فقال : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وللأخذ بمكارم الأخلاق وسائل كثيرة منها :

(أ) الأخذ بأسباب المعرفة التى تدرك بها الفضائل والرذائل الخلقية ونعلم بها آثارها المحمودة والمذمومة، وثمراتها العاجلة والآجلة، فى الدنيا والآخرة.

(ب) ومنها وسائل التربية والتأديب التى يتولاها المربون والمؤدبون العقلاء والحكماء الحازمون.

(جـ) ومنها التدريب العملى والممارسة التطبيقية ولو صاحب ذلك تكلف وجهد نفسى أو جسدى.

(د) ومنها الانغماس فى البيئات الصالحة لاكتساب فضائلها عن طريق المحاكاة والتقليد.

(هـ) ومنها القدوة الحسنة إذا تيسرت ... إلى غير ذلك من وسائل تربوية نافعة يصل إليها الفكر الإنسانى بالتأمل أو يتوصل إليها المربون بالاختيار والتجربة والملاحظة وقياس النتائج. (٧٩)

وقد استوعبت سنة الرسول ﷺ: وأقواله وأفعاله فى شتى المناسبات كثيراً من المقاصد الخلقية رسمت للفرد وللأمة ما يهدى إلى الخير

الأخلاقى. وإن المتتبع للسنة النبوية، يجد أنها تسير فى النصح والإرشاد وفى رسم الطريق المستقيم للحياة الخلقية سيراً محكماً متدرجاً يبدأ بالفرد، ثم بالأسرة وبمن يتصلون بها بروابط الجوار ثم بالمجتمع الكبير المتماسك، وبعد ذلك ما يكفل لهذا المجتمع حياة طيبة، وهو هذه الدعائم الثلاث التى لا بد منها فى كل مجتمع راشد : العلم والمال والعمل أو الإنتاج. وهى دعائم تعتبرها المدنية الحديثة أساساً لحياة الأمة وحفظ كيانها وللمجتمع الصالح.

وبعد هذا تتجه السنة إلى وسائل التنقية والتطهير فتوجه المجتمع إلى ما يكفل لأفراده تربية أخلاقية مستنيرة. (٨٠)

وأخيراً يجىء ذاك العامل الذى لا بد منه في كيان الأمة ودعم وحدتها الأخلاقية وهو القيادة الحكيمة الرشيدة، وإلى جانب هذه القيادة، ذلك العون الهام وهو ما يجب على أفراد الشعب أداؤه من مناصحة ومعاونة وإخلاص فى الحفاظ على أخلاقيات الأمة ومقوماتها وسد المنافذ التى ينفذ منها (الانحراف) ويتسرب منها الهدامون والمعوقون، أى أن الإسلام لا يجعل القيادة على ولى الأمر وحده بل يشرك الأمة وأفرادها مع القادة فى حمل المسئولية، فيحمل كل فرد جانباً من التبعات العامة ويضطلع بنصيب من الأعباء، وبذلك تسير الأمة فى طريق الرشد.

ولا ريب أن (الإرادة الإنسانية) تلعب دوراً كبيراً فى ذلك، ففى أحد سور القرآن الكريم، نجده يمدح صنفاً من الرجال أوتوا من قوة الإرادة وثبات اليقين ومضاء العزيمة ما جعلهم يقفون أمام مغريات الحياة الصارفة عن تذكر خالق الحياة فى صمود عجيب، وعزيمة أعجب، يقول تعالى فى وصف هؤلاء : ﴿رِجالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاة

وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾. (٨١)

ومن هنا كان القول أن جهاد النفس - وهو الجهاد الأكبر- هو الحلبة التى تجلو قوة الإرادة غاية الجلاء وتكسبها الحدة والمضاء. ولقد راعى الإسلام ذلك الجهاد وهو سبيل تنمية قوة الإرادة لدى المسلم، ففى قوله تعالى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (٨٢) جذب حان وتوجيه حليم إلى عمل شاق على النفس، إذ فيه نهنهتها والحد من تمردها والوقوف فى سبيل فورانها ساعة الغليان. (٨٣)

٥- التفكير طريق التعلم

تتفق جميع المذاهب الفلسفية فى التربية على أهمية التفكير ووظيفة التعليم فى تنميته، فوظيفة التعليم فى تحليلها النهائى وظيفة فكرية، إذ يوجه الناشئون «بالمعرفة» وعلى أساسها، وتهدف إلى تنمية (عقولهم) وتشكيل سلوكهم بما يكتسبونه من معان ومفاهيم واتجاهات. (٨٤)

والوسيلة المباشرة إلى تحسن طرقنا فى التدريس والتعلم تحسناً مطرداً هى تركيز انتباهنا فى الأحوال التى تستلزم التفكير وتنميه وتمتحنه بالتفكير، فالتفكير هو طريقة التعلم الرشيدة أو طريقة التعلم التى تستخدم العقل أو تكافئه. (٨٥)

والحق أن الإسلام كان حريصاً إلى حد كبير على توفير الظروف والأحوال التى تستلزم التفكير وتنميه وتمتحنه، وفى هذا المجال يذكر العقاد أن «خير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحثه على التفكير ولا يتضمن حكماً من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ماالستطاع ، وكل هذا مكفول للمسلم فى كتابه كما لم يكفل قط فى كتاب من كتب الأديان. فهو يجعل التفكير السليم، والنظر

الصحيح إلى آيات خلقه وسيلة من وسائل الإيمان بالله». (٨٦)

وجاء مشرعنا لوضع العبادات فيفصلها، ويحدد عدداً من المعاملات فيعالجها بشيء من التفصيل وكثير من الإشارات العمومية، فلقد جاء القرآن فى التشريع بالأصول والاطار العام، وترك التطبيق للأمة على أساس أصوله وفى حيز إطاره، فكان لهذا المنهج أكبر الأثر فى الدعوة إلى التفكير والاجتهاد بالرأى وأعطى للأمة حق التفكير المستقل. (٨٧)

وفى سبيل تنمية التفكير السليم، يلجأ القرآن إلى عدد من الوسائل :

١- منها ضرب الأمثال (٨٨)، على أساس أن ضرب الأمثال إنما هو سبيل تيسير العلم للمتعلمين، بل إن هناك قطاعات فى العلوم كالرياضة والهندسة والكيمياء لا تقوم إلا بضرب الأمثال وغيرها، ومن هنا يأتى قوله تعالى : «ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل». ويوضح القرآن أهداف ضرب الأمثال .. وإثارة الفكر وتنشيط العقل، فى مثل قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُون﴾ (٨٩)

٢- و «التجريب» من شأنه أن يوقظ الحس، ويدعو العقل إلى المقارنة ظبين المتشابه والمختلف من الأمور واستخلاص النتائج، ويحاول البحث عن أسس (يقينية) يقيم عليها العقل ما يؤمن به من أفكار ومعتقدات ولعل فى الموقف الذى يحكيه القرآن عن إبراهيم عليه السلام أوضح شاهد على ذلك : ﴿وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْموْتَىٰ قَال أَولَمْ تُؤْمن قَالَ بلَىٰ ولَكن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِن الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يأْتينكَ سعْيًا واعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (٩٠)

٣- الجدال بالتى هى أحسن : والجدال فى الأصل حوار كلامى يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التى رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الانتقادات التى يوجهها الطـرف الآخر على أدلته أو مـن خلال الأدلـة التى تنير له بعض النقاط التى كانت غامضة عليه. (٩١)

وهدف الجدال بالتى هى أحسن ، تعاون الفريقين المتناظرين على معرفة الحقيقة بتبصير كل منهما صاحبه بالأماكن المظلمة عليه، والتى خفيت عنه حينما أخذ ينظر باحثا عن الحقيقة.

وقد وضع الإسلام عددا من الشروط والقواعد والأصول التى يجب اتباعها حتى يكون الجدال «بالتى هى أحسن» وصيانة له عن أن يتحول إلى مماراة بعيدة عن نشدان الحقيقة أو إلى مشاحنات أنانية ومشاتمات، ومغالطات ونحو ذاك مما لا ينمى التفكير، بل يعيقه.

٤- كراهية التقليد الأعمى : ذلك أن الإسلام يأبى على المرء أن يحيل أعذاره على آبائه وأجداده كما يأبى له أن تحال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد، وأنه لينعى على الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مئونة العقل لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها. (٩٢)

ويعرض القرآن الكريم لمواقف متعددة يندد فيها بهؤلاء الذين يسيرون وراء التقليد الأعمى، نسوق منها على سبيل المثال ذلك الحوار الذى دار بين إبراهيم عليه السلام وقومه : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ، قَالَ هَلْ**

يسْمعُونكُمْ إذْ تدْعُون، أوْ ينفعُونكُمْ أوْ يضرُّون ، قَالُوا بلْ وجدْنَا آبَاءَنَا كَذَلكَ يفْعلُون ﴾ (٩٣)

٥- لا تعطيل للأسباب : ومبدأ إثبات السنن الإلهية، ينفى عن العقلية الإسلامية ما يقال من تعطيلها للأسباب، فكما لا تتعلق المشيئة العليا بنقض سننه تعالى فى خلقه، لا تتعلق بنقض سننه الثابتة التى يجرى عليها نظام الكون، ومنها قانون السببية وقوانين الطبيعة: (٩٤) ﴿لا الشَّمْسُ ينْبغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمرَ ولا اللَّيْلُ سابقُ النَّهارِ وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يسْبَحُون﴾ (٩٥)

ثالثاً - الحياة التعليمية

وكان من الطبيعى أن يكون للإسلام أثره البارز فى إعادة تشكيل الحياة الثقافية وخاصة من حيث جانبها العلمى، ونقصد بذلك قطاعات ومجالات العلوم المختلفة وميادين المعرفة التى أصبحت تشكل القوام الأساسى لحركة التعليم فى تفاعلها مع الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية، وهذا ما سوف نتبينه من خلال استعراض الدراسات التى ظهرت فى صدر الإسلام وخاصة على أرض الوحى فى شبه الجزيرة.

١- القراءة والكتابة :

يقول عز وجل فى قرآنه الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا تَدَاينتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجلٍ مُّسمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ (٩٦) وهى تكمل آية سورة العلق وغيرها من الآيات التى تحض الناس على طلب العلم، وأن مفتاحه تعلم القراءة والكتابة.

وهذه الآية لم تظفر بما هى جديرة به من اهتمام الفقهاء ومفسرى القرآن مع أنها الأساس الذى قامت عليه ظاهرة من أهم ظواهر المجتمعات

الإسلامية وخصائصا المميزة، [٩٧] ذلك أن هذا الأمر أوجب على المسلمين تعلم الكتابة لأنه ما من إنسان إلا يتبايع أو يتعاقد ويعقد الاتفاقات على طول حياته مهما كان ذلك قليلا، ولا ندرى ما السبب فى أن الفقهاء لم يستنتجوا هذا الحكم فى الآية الكريمة، والأغلب أنهم اعتبروا تعلم الكتابة فرض كفاية فما دام فى الأمة من يقرأ ويكتب، فهو يغنى عن الباقين.

ومن المعروف ومن الثابت وجود عدد من الكتاب مع النبى ﷺ يدونون ما كان يوحى إليه من آيات القرآن الكريم، فكانوا يكتبون على الرقاع والأضلاع وسعف النخل والحجارة والرقاق البيض، ثم جمعت هذه الصحف فى عهد أبى بكر، وعنى بعض الصحابة بكتابة حديث الرسول كعبد الله ابن عمرو بن العاص، فانه كان يدون ما يسمع من الرسول، قال أبو هريرة : «ما أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثا منى إلا ما كان من عبد الله ابن عمرو، فانه كان يكتب» وقال عبدالله بن عمرو : «كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه» [٩٨]

ويروى ابن النديم أنه كان فى مدينة الحديبية رجل يقال له محمد ابن الحسين جماعة للكتب، له خزانة، لم ير لأحد مثلها كثرة، فلقيه عدة مرات إلى أنس به ووجد عنده مصحفاً بخط خالد بن أبى الهياج صاحب على ، ورأى فيها بخط الحسين والحسن وأمانات وعهود بخط على بن أبى طالب وبخط غيره من كتاب النبى. [٩٩]

ولقد روى عن رسول الله ﷺ وعن بعض الصحابة ما يستفاد منه كراهية تدوين الحديث، وقد جمع الخطيب البغدادى هذه الأحاديث والآثار فى القسم الأول من كتابه [١٠٠]، ولكنه فى القسم الثانى، جمع من الأحاديث والآثار ما يكشف عن سبب هذه الكراهة، ثم يعقب عليها بما يغنى عن

الإضافة فى قوله [١٠١] : فقد ثبت أن كراهة من كره الكتابة من الصدر الأول إنما هى لئلا يضاهى بكتاب الله غيره أو يشتغل عن القرآن بسواه، ونهي عن الكتب القديمة أن تتخذ، لأنه لا يعرف حقها من باطلها، وصحيحها من فاسدها، مع أن القرآن كفى منها وصار مهيمنا عليها. ونهى عن كتب العلم فى صدر الإسلام لقلة الفقهاء فى ذلك الوقت، والمميزين بين الوحى وغيره، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه، كلام الرحمن».

غير أنه وردت كذلك أحاديث عن رسول الله ﷺ وأخبار من صحابته رضى الله عنهم، تحض على كتابة الحديث، وقد جمعها الخطيب البغدادى كذلك فى نفس الكتاب. [١٠٢]

وإذا كان الخوف على القرآن هو الباعث على عدم اطلاق العنان لكل من أراد أن يدون الحديث، وهو سبب التردد فى جمع الحديث فى صدر الإسلام على مثل ما جمعت المسانيد والصحاح ، فان الخوف أشد على مبادىء العقيدة من تدوين ماله صلة بالعقيدة، فالمدونات لا تزال لدى العامة إلى اليوم فـوق الاعتراض عليها، فنحن نسمع - إلى اليوم - بعض العامة يقول بحمـاس واقـتناع : إن هـذا الأمر موجود فى الكتب، أى لا محل للنقاش فيه والاعتراض عليه. [١٠٣]

وإذا كان من المشهور أن الرسول ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب، وأن فى الإصرار على ذلك تأكيد لجلال نبوته وتفخيما لحركته على أساس أن هذه الأمية ترفع من قدره وأن القول بكتابته تقليل من هذا القدر إلا أن البعض قد شكك فيما هو مشهور هذا. [١٠٤]

فأسعد طلس لا يستبعد أن يكون الرسول قد عرف شيئاً من القراءة والكتابة بعد البعثة أو الهجرة، ويورد شواهد من كتب السيرة على أنه لما عقد مع كبار قريش صلح الحديبية، دعا علياً كما فى صحيح مسلم، وقال : اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم فقال زعيم قريش سهيل بن عمرو بن عبد شمس : لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللّهم، فقال : اكتب، فكتبها، ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّه. فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول، لما قاتلتك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك، فقال محمد : امح محمد رسول اللّه. فقال : لا واللّه لا أمحوك. فأخذ رسول اللّه الكتاب فكتب : ابن عبداللّه. ونقل كذلك عن الذهبى فى تذكرة الحفاظ فى ترجمة ابن منده بسنده إلى عوف بن عبداللّه بن عتيبة عن أبيه، قال : مامات النبى حتى قرأ وكتب. وعن البخارى قوله فى باب عمرة القضاء : «فأخذ رسول اللّه الكتاب وليس يحسن، فكتب : هذا ماقاضى محمد بن عبداللّه» (١٠٥)

وقد أشار دروزة فى ذلك إلى آية العنكبوت (٤٨) من حيث أنها تضمنت نصاً صريحاً على أن النبى ﷺ لم يكن يكتب أو يقرأ، وأن هذا بالفعل إنما هو قبل البعثة، وأن آية الفرقان(٥) والسابقة، تفيد أن النبى لم يكن يقرأ ولا يكتب، لا كلمة (الأمى) إذ أن هذه الكلمة قد استعملت بمعنى (غيركتابى).

لكنه يؤكد أن هذا كان قد وقع، فقد ظل فى دائرة محدودة لا تتعدى كتابة الاسم أو التعرف عليه وكذلك بعض الجمل، وأن حدوث هذا بعد البعثة لكثرة ما أملى واتصل بالكتاب (١٠٦).

والحق أنها قضية غير هينة، تحتاج إلى مناقشة وبحث ودراسة مستقلة ليس هنا محلها ونرجو أن نقوم بها فى مناسبة أخرى، ومن هنا

فإننا لا نستطيع أن نبت بالرأى الفاصل، ما دمنا نفتقد الآن ما يجعلنا نكذب وجهة النظر هذه أو نصدقها، فالأحوط هو الركون إلى ما هو متواتر مشهور مجمع عليه من السلف الصالح.

٢- الدراسات الدينية :

وهذا اللون من الدراسات كان هو الذى يتصدر ما عداه، وليس ذلك بمستغرب فالدين الجديد يحتاج إلى فهم وتدبر وتطبيق ونشر وتوعية، وهدف مثل هذا يستدعى الاقبال على دراسة القرآن من مختلف الجوانب، وكذلك السنة النبوية الشريفة. ولا بد أن يتسم العمل فى هذا المجال - ربما دون غيره - بالكثير من الابتكار والابداع، لأن أيا من هذه الدراسات إنما تفتح أبوابه لأول مرة، فهو مسبوق.

والشئ الذى نتوقعه أيضا أن يقف بعض أصحاب رسول الله ﷺ عليه وسلم على رأس الحركة التعليمية والثقافية وأهمهم عمر بن الخطاب، وعلى ابن أبى طالب، وعبدالله بن عمرو، وعبدالله بن مسعود، وابن عباس وزيد ابن ثابت، وعائشة وإن كانت هناك اختلافات فى عددهم، إذ قد ينقص البعض من هولاء ويضعون آخرين.

ونكتفى بإشارات سريعة لبيان منزلة عمر العلمية فى هذا الشأن، فقد ذكر ابن مسعود فى هذا الشأن «كان عمر أعلمنا بكتاب الله وأفقهنا فى دين الله». وكان إذا اختلف أحد فى قراءة الآيات، قال له : اقرأها كما قرأها عمر، وأطنب فقال : (١٠٧) «لو أن علم عمر بن الخطاب فى كفة ميزان ووضع علم الأرض فى كفة لرجح علم عمر بعلمهم»، وقال ابن سيرين : «إذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشك فى دينه»، وكل ما فسر به آى القرآن فى معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح فى وزن العقل والدين وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح.

ونموذج آخر تراه فى عبدالله بن عباس، كما تصوره لنا كتب السير والتفسير (١٠٨) فقد كان واسع الاطلاع فى نواح مختلفة يعرف الشعر والأنساب وأيام العرب، ويجتهد فى تعرف ما عند الصحابة من حديث وعلم، يقول : «وجدت عامة حديث رسول الله عند الأنصار، فإنى كنت لآتى الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لى لأوقظ، فأجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ متى استيقظ ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف». كذلك كان يعلم ما ورد فى القرآن وأسباب نزوله، وحساب الفرائض والمغازى، ويعرف شيئا من الكتب الأخرى كالتوراة والانجيل. وكانت أكثر حياته حياة علمية يتعلم ويعلم لم يشتغل بالامارة إلا قليلا، لما استعمله على على البصرة.

أما على بن أبى طالب، فإنه ينفرد باتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت فى صدر الإسلام، فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذى تدور عليه، وندرت فرقة فى الإسلام لم يكن على معلماً لها منذ نشأتها أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها. (١٠٩)

أما القضاء والفقه، فالمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة، وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة بإحالتها على على لأنه كان فى هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح.

وقد حرص الرسول ﷺ - ومن بعده الخلفاء الراشدون - على ألا تقتصر فائدة العلم والتعليم على المدينة وحدها وإنما عمد إلى توزيع العلماء إلى مختلف المدن والأمصار بهدف تعليمها، ومن هنا فقد أرسل إلى اليمن وإلى البحرين وإلى مكة بعد فتحها، وكذلك فعل عمر بن الخطاب عندما

اتسعت الفتوح وكثرت الأمصار، فعن عمر أنه قال، حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام : «لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه، وما كان يفتيهم به. ولقد كلمت أبا بكر رحمة أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى على ، وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبسه، فقلت : والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه» (١١٠) وكتب عمر إلى أهل الكوفة : «إنى بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وآثرتكم به على نفسى، فخذوا عنه، فقدم الكوفة، ونزلها، وابتنى بها داراً إلى جانب المسجد».

فإذا توقفنا قليلا أمام علوم القرآن، نجد أن المعروف، هو جمع القرآن فى زمن أبى بكر، وقد جاء فى جمعه (١١١) :

حدثنا موسى بن إسماعيل عن إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : «أرسل إلى أبو بكر يوم مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن عمر أتانى، فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك رأى عمر. قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك. وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن. قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال هو الله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى

العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾(١١٢) حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ... »

وكان العرب عند ظهور الدعوة ، كلما تليت عليهم سورة أو آية، فهموها وأدركوا مفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ولأن أكثرها جاء فى أحوال كانت كالقرائن تسهل فهمها أو إذا أشكل عليهم شيئ منها سألوا النبى، فكان يبين لهم المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ، فحفظ الصحابة عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم، وعنهم أخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعى التابعين. (١١٣) ولما صار الإسلام دولة، واحتاجوا إلى الأحكام والقوانين، كان القرآن مصدر استنباطها، فزادت العناية بتفسيره وأصبح القراء والمفسرون مرجع المسلمين فى استخراج تلك الأحكام، وهم الفقهاء لأول عهد الإسلام، وكانوا يتناقلون التفسير شفاها إلى أواخر القرن الأول.

وبالنسبة للسنة، نجد أن لها قيمة كبرى فى الدين تلى رتبة القرآن، فكثير من آيات القرآن مجملة أو مطلقة، أو عامة، فجاءت السنة تبينها أو تقيدها أو تخصصها. كذلك كانت تعرض لرسول الله حوادث يقضى فيها وأسئلة يجيب عنها، ومبادلة أخذ وعطاء، وتصرف فى الشئون السلمية والحربية، كل هذه كانت أحيانا ينزل فيها قرآن، وأحيانا لا ينزل، وهذا النوع الثانى كالأول مرجع للمشرعين، فاقتضى ذلك جميعه العناية بالسنة (١١٤).

ولم يدون الحديث فى عهد النبى ﷺ كما دون القرآن، فانا نرى أن الرسول اتخذ كتبة للوحى يكتبون آيات القرآن عند نزولها ولكنه لم يتخذ

كتبة يكتبون ما ينطق به من غير القرآن. وقد عنى كثير من أصحاب النبى برواية الحديث، ولعل الذى كان يحفزهم على هذه العناية حث النبى على ذلك فقد روى عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «نضر الله امرأ أسمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب مبلغ أحفظ له من سامع» (١١٥)

وكانت الظاهرة السائدة فى عهد الخلفاء الراشدين، الإقلال من الرواية عن النبى والتثبت منها، والتشدد فيها، فقد كان كبار الصحابة يخشون من كثرة الرواية : (١١٦)

١- لئلا تزل بالمكثرين أقدامهم فيسقطوا فى هوة الخطأ والنسيان.

٢- لئلا يشتغل الناس برواية الحديث، وينصرفوا عن تلاوة القرآن ولما يتيسر حفظه لكثير منهم.

٣- لئلا يتخذ المنافقون والذين فى قلوبهم مرض من شيوع الحديث ذريعة للتزيد فيه.

ومع ذلك فقد نشأ من عدم تدوين الحديث فى كتاب خاص فى العصور الأولى (وأسباب أخري سياسية) واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة، وصعوبة حصر ما قاله الرسول ﷺ أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذبا إليه، فقد ذكر «أن بشير العدوى جاء إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله ﷺ قال : فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه (لا يصغى إليه) ولا ينظر إليه، فقال يا ابن عباس : مالى لا أراك تسمع لحديثى؟ أحدثك عن رسول الله ولا تسمع ؟ فقال ابن عباس : إنا كنا مرة (زمنا) إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف» (١١٧)

أما بالنسبة للفقه، فقد شهد هذا العصر له طورين :

الطور الأول : طور النشأة ، أو طور التشريع، وكان فى حياة الرسول وانتهى بوفاته سنة ١١ هـ واستمر ٢٢ عاما تقريبا. وفى هذه الفترة كان الفقه يعتمد على الوحى النازل من عند الله، فقد نزل القرآن وحفظت السنة، ولم ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى حتى كانت أصول الفقه قد استكملت وأسس التشريع قد تمت. وقد نزل الجانب الأكبر من الأحكام التفصيلية فى السور المدنية وهى تزيد قليلا على ثلث القرآن. وقد نزلت هذه الأحكام منجمة حسب الحاجة التى تدعو إليها دفعا للحرج عن المسلمين وتيسيرا لهم فى التكاليف.

الطور الثانى : طور الشباب، أو طور الاجتهاد، وهذا الطور ابتدأ فى عهد الخلفاء الراشدين حينما اتسعت رقعة البلاد وتم الاحتكاك بحضارات وأعراف مختلفة، وتعددت الأحداث والنوازل، وبرزت مشكلات تحتاج لبيان حكم الشرع فيها، وكان الكثير من هذه الأحداث والمشكلات ليس فيه نص صريح من كتاب أو سنة. وكان أبو بكر إذا أراد معرفة حكم من الأحكام، لجأ إلى القرآن، فإن لم يجد لجأ إلى سنة رسول الله، فإن لم يجد جمع من يثق بهم من أهل الرأي واستشارهم، ثم قضى بما يجمعون عليه، وكذلك كان عمر. وكان الصحابة فى بادئ الأمر يتشددون فى الاجتهاد بالرأى مخافة القول على الله وعلى رسوله بلا علم.

وبعد عمر تفرق الصحابة فى الأمصار، وهاجروا إلى البلدان المختلفة وكثر التحديث عن الرسول، والتعمق فى استنباط الأحكام من القرآن واتسعت أبواب الاجتهاد، وبدأ الفقه يتميز ويتكون (١١٨).

٣- الدراسات الأدبية :

الخطابة: والفرق بين الخطابة فى الجاهلية وفى الإسلام أن الإسلام زادها بالغة وحكمة بما كان من تأثر الخطباء بأسلوب القرآن ولجوئهم إلى اقتباس الآيات القرآنية . فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلا وإشارة أو تهديداً حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموعة آيات. وكان عدد كبير من الخلفاء والأمراء والقواد من الخطباء. ولا غرابة فى ذلك ، فأهل شبه الجزيرة، أهل خيال وذوى نفوس حساسة. وللبلاغة تأثير شديد فى عواطفهم. وإذا رجعنا إلى حوادث الفتح أو جمع الأحزاب أو إخماد الثورات، رأينا عجباً، وأول ثورة كادت تهب فى الإسلام، ثورة أهل المدينة لما بلغهم موت الرسول، فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة، فقام أبو بكر خطيباً فقال أيها الناس «إن يكن محمداً قد مات، فإن اللّه حى لم يمت..» وتلا الآية الكريمة، «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم}فهذه الكلمات كانت كافية لإخماد تلك الثورة (١١٩).

الشعر: ولم يتعد الأدب فى هذه العهد دائرة الشعر تقريباً وقد فطن بعض المستشرقين أن الدين قلل من أهمية الشعر حتى لا يطغي على القرآن، وهذا الزعم لا أساس له لأن القرآن ليس من الشعر فى شىء، ولا يصح أن يكون نموذجاً (١٢٠) له. ولو أن القرآن قد غض من شأن بعض الشعراء فلأنهم كانوا من أعداء الإصلاح ومن دعاة الفوضى، قال تعالى : ﴿ والشُّعراءُ يتبعُهُمُ الْغاوُون (٢٢٤) أَلمْ تر أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يهيمُون (٢٢٥) وأَنَّهُمْ يقُولُون ما لا يفعلُون ﴾(١٢١)

على أن الشعر قد أعلى من قدر هؤلاء الذين قاموا بنصرة المبادىء

القديمة ودافعوا عنها فأحلهم المحل اللائق بهم من الشرف، كما شجعهم الرسول وأجزل لهم العطايا، واعتبر هذا نوعاً من الجهاد فى سبيل الله والانتصار للحق. وأحسن مثال على ذلك الشاعر المخضرم : حسان ابن ثابت الذى قربه الرسول إليه.

القصص : وهذا اللون قد استحدث فى صدر الإسلام، وقد روى عن ابن الشهاب أن «أول من قص فى مسجد رسول الله ﷺ تميم الدارى، استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، فاستأذن تميم عثمان ابن عفان، فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة فكان تميم يفعل ذاك (١٢٢)» . وفى رواية أخرى عن الحسن أنه سئل : متى أحدث القصص؟ قال : فى خلافة عثمان. فسئل : من أول من قص ؟ قال : تميم الدارى».

وصورة هذا القصص، أن يجلس القاص فى مسجد وحوله الناس فيذكرهم بالله ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك، لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب.

٥- الدراسات التاريخية :

ويكاد يجمع المحققون على أن جمع أحاديث السيرة والمغازى وتبويبها هو بداية التأليف التاريخى فى العصر الإسلامى، وأن السيرة والمغازى وتبويبها هو بداية التأريخ الإسلامى، وأجمعوا على أن (ابن إسحاق) هو أول من مهد عن السيرة بأخبار ما قبل الإسلام، فيعد كتابه أول تاريخ عربى عام، وقالوا : أن (سيرة ابن هشام) تعد مختصرا لمؤلف ابن اسحاق (١٢٣).

وقد دخل التاريخ إلى مجال الثقافة العربية الإسلامية فى ظل التفسير والحديث، فالذين تحملوا مسئولية التفسير وجمع الحديث وتبويبه هم الذين رسموا معالم التاريخ بما جمعوه من نصوص ما زالت تحت مجهر التحقق من بداية تدوينها إلى اليوم. وكان عبيد بن شريه أول من أكسب ما يرويه من قصص ثوب التاريخ. ثم جاء وهب بن منبه فتصدى للمغازى وهى الفتوح الإسلامية ووضع أساسها وعنه روى المؤرخون المتقدمون.

وقد روى أن عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ أقدم من ألف فى السيرة النبوية وكذلك أبان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥ هـ، فلقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه فى سيرة الرسول، وجمع كل من ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ وموسى بن عقبة سنة ١٣١ هـ كتابا فى المغازى . (١٢٤)

رابعاً - المعاهد التربوية

وشهدت أرض الجزيرة العربية قيام عدد من المعاهد التربوية فى مقدمتها المساجد التى كانت هى «وسائط التربية الإسلامية» إلى الانسان المسلم على هذه الأرض فيها يتلقى تعاليم الإسلام وفيها يتدرب على السلوك المستقيم الذى رسم منهجه القرآن الكريم.

١- المساجد :

والمسجد اسم مكان للسجود الذى هو ركن عظيم وأساس من أركان الصلاة، تلك الصلاة التى هى العمود الفقرى للإسلام وفى اختيار السجود عن بقية الأركان ليشتق منه اسم مكان للمكان المعد للصلاة دلالة واضحة على أهمية السجدة وعظمتها، وهى كذلك لأن السجود يظهر حكمة العبادة لما فيه من وضع الجبهة - وهى أشرف الأعضاء - على الأرض رمزاً

للخضوع لله الخالق، وإخراجا للكبر عن القلوب، ولذلك ورد فى صحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى، أن النبى ﷺ قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد». فإذن أصل اشتقاقه يدل على أهمية المسجد، فكما كان السجود رمزا للاستسلام الكامل لله، كان المسجد شعاراً للموحدين المخلصين لله تعالى . (١٢٥)

ولليهود والنصارى تسميات لأماكن عبادتهم ذكر منها القرآن الكريم (الصوامع) و (البيع) و (الصلوات) وسلكها مع المساجد فى سلك واحد ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾. وقد عمم القرآن استخدام لفظ (المسجد) فأطلقه على أماكن العبادة لدى اليهود والنصارى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴾، فأطلق لفظ مسجد على ما أقام أولو الأمر والذين عاصروا معجزة أهل الكهف من بناء. وفى حديث الرسول ﷺ فى شأن اليهود والنصارى وتحذيرا من صنيعهم : «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ولا تكاد توجد جماعة إنسانية لها نصيب ملحوظ فى الحضارة، إلا وفى نسيج حضارتها ما يقابل (المسجد)، أو البيعة عند النصارى، أو الصلوات عن اليهود كما هو الحال عند قدماء المصريين والهنود والفرس والإغريق .. ويطلق عادة على هذه الأماكن لفظ (معبد) أو ما يشبه! وبغض النظر عن صحة العقيدة أو فسادها لدى هذه الجماعة أو تلك. فهذه المعابد تحتل مكاناً له دلالته فى سجل الحضارة الإنسانية وتاريخها الطويل، وهى تعبر فى قوة وعمق عن تجربة مستمرة ومحاولة متصلة دائبة، لم تنقطع من جانب الإنسان بهدف التعرف والاتصال بتلك القوة التى أحسها - رغم خفائها - تغمر عقله ووجدانه وهو مبعثر فى الطريق قبل أن تأخذ هداية

السماء بيده وتهديه إلى خالقه (١٢٦).

إن اللحظة التى بنى فيها الإنسان لنفسه كهفا يأوى إليه، يبنى فيها كذلك لإلهه أو آلهته «معبداً» يفزع إليه، مدفوعاً بإحساس غامر بالحاجة إلى الاتصال به أو بها، وإلى التعبير عن شعوره تجاهه أو تجاهها. وقد وجه الإنسان القديم من طاقته وإمكاناته المادية وإبداعه الفنى لهذه (المعابد) مالم يوجه بعضه إلى مسكنه الذى يعيش فيه. المعبد إذن عنصر أصيل فى حضارة الإنسان عبر التاريخ.

وقد حدد سبحانه وتعالى مكانة المسجد وأهميته فى بناء شخصية المسلم فى الآيات القرآنية التالية :

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾(١٢٧)

– ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾(١٢٨).

– ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (١٢٩)

– ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(١٣٠)

أما الأحاديث (النبوية) فمنها :

– عن عثمان رضى اللّه عنه (أن البنى ﷺ قال : من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه اللّه ، بنى اللّه له بيتاً فى الجنة).

– عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن النبى ﷺ قال : (من تطهر فى بيته مشى إلى بيوت اللّه ليقضى فريضة من فرائض اللّه كانت خطواته

إحداها تحط خطيئته، والأخرى ترفع درجته).

– عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : (المسجد بيت كل تقى وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة).

– عن عائشة رضى الله عنها (أن النبى ﷺ أمر ببناء المساجد فى الدور وأمر أن تنظف وتطيب).

وفيما يلى عرض للدور التربوى الذى قامت به المساجد الأولى التى بنيت على أرض شبه الجزيرة.

أ- المسجد الحرام : وقد حدثنا القرآن عن البيت العتيق وأخبرنا أنه أول بيت وضع للناس «إن أول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا وهدى للعالمين». وحين حدثنا عن هذا البيت جعله مرة «البيت» معرفا بأل التعريف **«وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا»**. ومرة بالإضافة إليه سبحانه **«وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود»**. ويضيف ماقام به إبراهيم وإسماعيل فيقول : **«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل»**. يرفع القواعد وكأنما كانت موجودة من قبل، أرشد الله إبراهيم عليه السلام إلى مكانها كما يشير إلى ذلك قوله الله تعالى : **«وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت»**.

توحى إلينا الآيات الكريمة إيماء خفياً أن هذا البيت قديم موغل فى القدم وإن لم تسعفنا مصادر التاريخ المسجل بأوليته الأولى. [١٣١] وهذا هو المتسق مع قوله تعالى «وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». وإذا كان التدين – فى صورة ما – ظاهرة عامة لازمت الإنسان فى كل فترات تاريخه، قوى هذا الفهم وتأكد.

ويرى البعض أنه أقدم بيت على وجه الأرض لم يسبقه بيت للعبادة ولا للسكنى وأن إبراهيم عليه السلام كان مجددا لبنائه، ويستدل بوضوح على وجود البيت قبل مجيء إبراهيم من الآية الكريمة : «ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم .. ربنا ليقيموا الصلاة». وبهذا الصدد يقول أحمد محمد جمال : (١٣٢).

«فالثابت أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم على نحو ما .. وان إبراهيم عليه السلام كان مجدداً لبنائه ومعيداً لكيانه، وباعثاً للطواف حوله والصلاة فيه». ولم يكن ممكنا بطبيعة الحال أن يمارس المسجد الحرام، دوره التعليمى طوال عهد الرسول حيث كان واقعاً تحت نفوذ المشركين معظم هذا العهد. قال أبو الوليد الأزرقى وأبو الحسن الماوردى : «أما المسجد الحرام، فكان فناء حول الكعبة وفضاء للطائفين ولم يكن له على عهد الرسول ﷺ وأبى بكر جدر تحيط به، وكانت الدور تحدق به، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية، فلما استخلف عمر، وكثر الناس، وضيقوا على الكعبة، وألصقوا دورهم بها، قال عمر : ان الكعبة بيت الله، ولا بد للبيت من فناء، وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم». فاشترى تلك الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها، واتخذ له جدارا ثم لما استخلف عثمان، اشترى دورا أخر ووسعه أيضاً، وبنى المسجد والأروقة . (١٣٣)

وبعد فتح مكة، خلف الرسول فيها معاذا يفقه أهلها ويعلمهم الحلال والحرام ويقرئهم القرآن، وكان ذلك بطبيعة الحال فى أحيان كثيرة بالمسجد الحرام. ويحدثنا ابن هشام عن معاذ فيقول إن النبى ﷺ اختاره يوم الفتح للقضاء فى مكة عندما ولى إمارتها عتاباً بن أسيد، ونحن إذ لا نجهل كفاية معاذ بن جبل وميزته العلمية وإلمامه الواسع، نستطيع أن نتبين نوعاً آخر

من أنواع الاستفادة التى اعتمدتها مكة يومها فى شأنها التعليمى. وإذا كانت كتب التاريخ تجمع على ندب معاذ بن جبل لتعليم اليمن، فليس فى هذا ما يتنافى مع إقامته فى مكة عقب الفتح مباشرة لينفع المكيين فى المسجد الحرام قبل ندبه إلى اليمن. ويضيف (الطبرى) أن رسول الله ﷺ أشرك معه هبيرة بن سهل الثقفى ويقول ابن حجر فى الاصابة أن هبيرة تولى مكة عام الفتح، ولما رجع النبى من الطائف عاد فولاها عتاب (١٣٤) واضعين فى الاعتبار أن الحكام والولاة فى هذا العهد كانوا يقومون بالواجب التعليمى الذى كانت تحتمه الدعوة فى بدء نشأتها على أقل تقدير.

ب - مسجد قباء : لما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، نزل بقباء، وكانت فى ذاك الوقت قرية قريبة من المدينة تعتبر ضاحية من ضواحيها والآن اتصلت بها ونزل بنى عمرو بن عوف، فجلس عند كلثوم بن الهدم، وقام أبو بكر يتلقى الناس الذين قدموا لرؤية رسول الله.

ثم أسس ﷺ فى هذا المكان أول مسجد بنى فى الإسلام، وهو مسجد (قباء) الذى يقول فيه سبحانه وتعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾(١٣٥)، وذلك ليكون مجمعا يجتمع فيه المسلمون بقباء يؤدون صلواتهم، ويقرأون القرآن ويذكرون الله تبارك وتعالى، ويتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم، وليكون مظهراً لوحدتهم وألفهم وأخوتهم وليكون (منارة) يدعون منها إلي صلواتهم وبيتا من بيوت الله التى أشاد بها الله فى قوله سبحانه : «فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدوة والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار» . وبذلك وضعت أول لبنة فى بناء

صرح الإسلام . (١٣٧)

وهذا المسجد قال فيه الحافظ انه أول مسجد ﷺ فيه عليه السلام بأصحابه جماعة ظاهراً، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة. وروى الترمذى عن أسيد بن ظهير عن النبى ﷺ قال : «الصلاة فى مسجد قباء ركعتين أحب إلى من أن آتى بيت المقدس مرتين .. لو يعلمون ما فى قباء لضربوا إليه أكباد الإبل». وأخرج الشيخان عن ابن عمر أنه قال : «كان ﷺ يزور قباء أو يأتى قباء راكباً أو ماشياً». (١٣٨)

وخرج النبى ﷺ من قباء، بعد أن أقام فيها ما أقام، حين ارتفع النهار من صباح يوم الجمعة، فأدركته الصلاة فى أرض بنى سالم بن عوف، فصلى بمن كان معه من المسلمين فى مسجدهم، وكان يطلق عليه اسم (غبيب) ثم سمى بعد ذلك مسجد الجمعة، وكان – كما تذكر كتب السير – مبنياً بحجارة قدر نصف القامة على يمين السالك إلى مسجد قباء.

وبعد أن انتهت الصلاة، ركب ﷺ راحلته، وأردف خلفه أبا بكر، ثم اتجه إلى المدينة .. فكان كلما مر على دار من دور الأنصار دعوه إلى المقام عندهم وقالوا : «يارسول الله هلم إلى القوة والمنعة»، ثم يحاولون وقف ناقته، فيقول : «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة». (١٣٩)

جـ - **المسجد النبوى :** ونزل النبى بالمدينة فى دار السيد الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى من بنى النجار أخوال جد رسول الله ﷺ وهو عبد المطلب، فقد كانت أمه السيدة سلمى بنت عمرو من بنى النجار. وما أن استراح النبى قليلا من سفر الهجرة الطويل وعنائها حتى كان أول ما فكر فيه هو بناء المسجد النبوى، وكان فى المبرك الذى بركت فيه ناقته

(القصواء) وكان مربداً لغلامين يتمين بالمدينة، فساوم النبى أولياءهما عليه وقد رغبوا - عن صدق - أن يكون مكان المسجد صدقة لوجه الله، ولكن النبى أبى إلا أن يكون بالثمن (١٤٠).

وشرع المسلمون فى إزالة الأشجار والمقابر، والأنقاض بالمكان وسووا الأرض وأزالوا الخرب وشرعوا فى البناء، والنبى ﷺ فى مقدمتهم يحمل اللبن. والحجارة، وينقل التراب، والنبى يقول وهم يرددون وراءه :

اللّهم إن الأجر أجر الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجرة

والبعض يقول :

هذى الجمال لا جمال خيبر ... هذى أبر - ربنا - وأطهر

وكان على بن أبى طالب يقول :

لا يستوى من يعمر المساجد ... يدأب فيها قائما وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائداً

وكان بعضهم يقول :

لئن قعدنا والنبى يعمل ... ذاك إذن للعمل المضلل

والمستقرئ للنشاط الذى مورس فى المسجد النبوى وخاصة فى عهد الرسول الكريم يلمس بما لا يدع مجالا للشك مدى ما جسده المسجد من (تربوية). إننا نؤكد هنا دون خشية مبالغة أنه المثال الفريد فى تاريخ التربية فى العالم أجمع الذى تجسدت فيه (التربية) بالمعنى الشمولى الذى نتحدث عنه. فما من مؤسسة تربوية شهدها العالم، إلا وتناولت التربية من جانب أو أكثر من جوانبها، لكن المسجد فى حياة الرسول ﷺ ، قام بأكبر عدد ممكن من الوظائف (التربوية) وهذا يتضح لنا مما يأتى :

(أ) لقد اختار النبى ﷺ المسجد ليكون مركزاً للتعليم والتوجيه والتفقه فى الدين، بتبليغ الوحى وتوضيحه فى خطب الجمعة ومجالس العلم، وفى كل فرصة تسنح له، والمساجد أنسب الأماكن لهذه المهمة العظيمة خصوصاً عند اجتماع المسلمين للصلاة فيه جماعة، كل يوم خمس مرات يجتمع منهم عدد كبير يصلح لتعليمه وتوجيهه، وعدد أكبر يوم الجمعة تلقى عليهم خطبه الجامعة وإرشادته المنوعة، والتعليم ذكر لله وتذكير به وبدينه وشرعه. وكان ﷺ يعقد مجالس العلم فى مسجده، ويتزاحم المسلمون عليها ويتنافسون فى القرب منه لتمام الاستفادة منه، عن الحرث بن عوف أن رسول الله بينما هو جالس فى المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ ، فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا.

فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآجره الله، وأما الآخر، فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض ، فأعرض الله عنه» (١٤٢).

وقد حث النبى ﷺ على حضور مجالس العلم فى المسجد فقال : «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» (١٤٣). وقال : «أفلا يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيعلم أو فيقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث ، وأربع خير من أربع ومن أعدادهن من الابل» (١٤٤). وروى ابن ماجه عن أبى هريرة، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من جاء مسجدى هذا لم يأته

إلا لخير يتعلمه أو يعلمه ، فهو بمـــــنزلة المجـــاهد فى سبـــيل الله ومن جـــاء لغير ذلك : فهـــو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره» (١٤٥)

ولقد كان جلوسه عليه السلام عند موضع الاسطوانة المسماة اليوم اسطوانة (التوبة) (١٤٦)، وهى كائنة فى الروضة الشريفة، وهى اليوم الاسطوانة الرابعة فيما بين المنبر النبوى وبين الحجرة المشرفة، فكان ﷺ إذا صلى الصبح، انصرف إلى ذلك الموضع فلحق أصحابه حلقا بعضهم دون بعض أى بعضها أضيق من بعض، فيتلو عليهم ما أنزل من القرآن من ليلته، ويحدثهم إلى طلوع الشمس ويسألونه عما يعرض لهم، ففى صحيح البخارى من حديث أبى موسى الأشعرى : «جاء رجل وهو قائم ، فقال : يا رسول الله : ما القتال فى سبيل الله ؟ فرفع رأسه إليه وقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله».

وبنى الصحابة لرسول الله مصطبة من طين يجلس عليها ليعرفه الغريب إذا دخل المسجد. وكان تعليمه الناس على طريقتين : أولاهما وهى الأكثر أن يملى على حاضرى مجلسه من القرآن والتربية الخلقية والمواعظ وأخبار الأنبياء السابقين – والثانية : جوابه عن أسئلة السائلين المسترشدين وما يدور بينه وبين أصحابه من أطراف الحديث. (١٤٧)

٢- وكان النبى ﷺ يسمح بأن تقام الأعمال الرياضية فى المسجد، بل وأكثر من ذلك كان ينظر إلى لعب الأحباش حينما يلعبون فى المسجد وسمح للسيدة عائشة أن تنظر إلى هذه الأعمال الرياضية، روى عن عائشة رضى الله عنها «دعانى رسول الله والحبشة يلعبون بحرابهم فى المسجد فقال : يا حميراء .. أتحبين أن تنظرى إليهم ؟ فقلت : نعم فأقامنى وراءه... فنظرت من فوق منكبيه .. قالت عائشة : «قال رسول الله ﷺ : لتعلم اليهود

أن فى ديننا فسحة » (١٤٨).

فيؤخذ من هذا الحديث الشريف أن الرسول كان يشرف على المباراة والاستعراض الرياضى الذى أقيم فى المسجد النبوى، فهذا إن دل على شئ فإنما يدل عى تشجيعه ﷺ للألعاب الرياضية وتحبيذه لألعاب القوى والبطولة التى تقوي الجيل المسلم وتعوده على الشجاعة والفروسية والثقة بالنفس.

٣- وكان النبى ﷺ يستقبل الوفود فى المسجد التى تأتى لأغراض مختلفة كطلب علم أو إعلان سلام أو عقد معاهدة أو طلب معونة أو غير ذاك. وكان المسجد أشبه بقاعة الاستقبال الرسمية مفتوحا ومهيأ لجميع الوافدين (١٤٩). استقبل فيه النبى ﷺ وفد نصارى نجران ، وكان فيه ستون رجلا منهم أربعة عشر من أشرافهم، ثلاثة منهم يرجع إليهم أمرهم، وهم العاقب عبد المسيح، وهو أميرهم، والسيد الأبهم وهو ملجأهم وغياثهم ومطعمهم فى الشدة وأبو حارثة بن علقمة أحد بكر بن وائل وهو أسقفهم وعالمهم. دخلوا عليه أثر صلاة العصر عليهم ثياب الحبرات، جبب وأردية، فقال أصحاب النبى : ما رأينا وفدا مثلهم جمالا وجلالة. وحانت صلاتهم، فقاموا فصلوا فى مسجد النبى إلى الشرق، فقال ﷺ : دعوهم ثم أقاموا فى المدينة أياما يناظرونه فى عيسى وهو يرد عليهم.

وفى هذه القصة إشارة إلى سماحة الإسلام وعدم تعصبه حيث أذن لهم أن يصلوا صلاتهم الخاصة على ما فيها من عقيدة تتنافى مع التوحيد الذى تنبعث الدعوة إليه من مسجد الرسول الذى يصلون فيه.

٤-كذلك كان المسجد النبوى الشريف يقوم مقام المجالس الشورية الآن كمجالس النواب ومجالس الشيوخ على اختلاف أسمائها اليوم، على

فرق كبير ما بين الشورى فى حقيقتها وجوهرها فى عهد الرسول وبين ما هى عليه اليوم. وكثيرا ما عقدت هذه المجالس الشورية فى المسجد وذلك كما حدث قبيل غزوة أحد وما حدث قبيل غزوة الأحزاب وغيرها من الغزوات والسرايا التى كان يرسلها الرسول، وكان من ورائها الغنم والخير للدعوة الإسلامية والمسلمين.(١٥٠)

٥- وقام مسجد الرسول بوظيفة الرعاية الاجتماعية والصحية، إذ اتخذه ﷺ مكانا للاعانة والرعاية الاجتماعية حيث كان يوزع الأموال على الفقراء والمحتاجين. ويروى البخارى عن أنس بن مالك أن مالا أتى الرسول من البحرين فقال، انثروه فى المسجد، وبعد الصلاة جلس إليه فما كان يرى أحدا إلا أعطاه، وقصة العباس رضى الله عنه مشهورة. (١٥١)

وأمر رسول الله لسعد بن معاذ بعد أن أصيب من رجل يقال له حبان ابن العرفة فى الأكحل أمر به أن يبقى فى خيمة لامرأة يقال لها رفيدة بمسجده ﷺ كانت تداوى الجرحى، وقال، اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب.

٦- كما كان المسجد النبوى محكمة أصدرت على بسطه وأعمدته وأساطينه أعدل الأحكام وفيها سطرت أروع صفحات القضاء البشرى، فقد روى البخارى فى صحيحه أن كعب بن مالك تقاضى ابن أبى حدرد دينا كان له عليه فى المسجد، فارتفعت أصواتهما.. فنادى رسول الله : يا كعب .. ضع عن دينك هذا، قال، لقد فعلت يا رسول الله. قال : قم فاقضه.

كما كان المسجد يربط بسواريه الأسرى، فقد روى الإمام البخارى ومسلم أن النبى ﷺ بعث خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية فى سوارى المسجد فاغتسل ثم دخل فقال

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. (١٥٢)

٧- كذلك كان المسجد النبوى يقوم مقام وسائل الإعلام عن الإسلام والمنافحة عنه فى عصورنا هذه، فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن حسان بن ثابت صاحب رسول الله وشاعره كان ينشد الشعر فى المسجد النبوى فى إظهار محاسن الإسلام والمنافحة عن الرسول والمسلمين، وإظهار فضائلهم ومحاسنهم. وفى صحيح البخارى أن البنى ﷺ قال : «أجب عن رسول الله، اللّهم أيده بروح القدس». ولما زجره عمر بن الخطاب عن إنشاد الشعر فى المسجد النبوى، قال له : «لقد كنت أنشد به، وفيه من هو خير منك». يريد النبى ﷺ . وقد أشهد حسان أبا هريرة على ذلك فشهد له بالفعل (١٣٥) .

٨- وكان وسيلة لتربية المسلمين على النظافة، ففى الحديث ، أن امرأة سوداء كانت تلتقط القمامة من المسجد ففقدها الرسول، فسأل عنها بعد أيام فقيل إنها ماتت فقال : فهلا آذنتمونى، فأتى قبرها فصلى عليها وجاء فى رواية الطبرانى أن النبى قال : «إنى رأيتها فى الجنة تلتقط القذى من المسجد». (١٥٤)

* * *

وأشهر من جلس للتعليم فى المسجد النبوى، زيد بن ثابت وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ولكن كلاهما يختلف فى منحاه العلمى عن الآخر فزيد ابن ثابت أنصارى صحب النبى ﷺ منذ صباه، وتعلم السريانية والعبرية، ولكن لا ندرى إلى أى حد كان مثقفاً بثقافتهما، فهم يحدثوننا أنه تعلم اليهودية فى نصف شهر، والسريانية فى سبعة عشر يوماً، وهى أيام قليلة لا تكفى لخدمة لغة والقدرة على تفهم آدابها، فهل استمر يتعلم حتى نال قسطاً

من آداب اللغتين؟ ذلك ما لاندرى. كان ضليعاً فى فهم تعاليم الإسلام، وله القدرة الفائقة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة، ومن الرأى - إذا لم يكن كتاب ولا سنة - حتى قال سليمان بن يسار : «ماكان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحداً فى القضاء والفتوى والفرائض والقراءة». وقال القاسم : «كان عمر يستخلف زيد بن ثابت فى كل سفر يسافره، وكان يفرق الناس فى البلدان... ويطلب الرجال المسمون (النابهون) فيقال له : زيد بن ثابت، فيقول : لم يسقط على مكان زيد ولكن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ومالا يحدث لهم وما لايجدون عند غيره». وقال قبيصة : «كان زيد بن ثابت مترئساً بالمدينة فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض فى عهد عمر وعثمان وعلى فى مقامه بالمدينة».

ويروى أن حسان بن ثابت رثاه فقال :

فمن للقوافى بعد حسان وابنه ومن للمعانى بعد زيد بن ثابت(١٥٥)

وهذه (المعانى) التى وردت فى هذا البيت هى الميزة التى امتاز بها عن عبدالله بن عمر، فقد كان عبدالله عالماً فقط، يجمع الأحاديث ويرويها ويكتبها ويتحرج من الفتوى وابداء الرأى وهما نزعتان ظلتا تسيران جنباً إلى جنب عهداً طويلا.

٢ - معاهد ومؤسسات أخرى :

أ - الكتاب : فى العربية، لفظة (الكتاب) يراد بها فى عرف هذا اليوم، المدرسة التى يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة. وهى الألفاظ العربية المستعملة فى العهود الأولى من الإسلام (١٥٦) . وقد ورد أن الرسول أمر عبدالله واسمه الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية، بأن يعلم فى كتاب المدينة، كما ورد أن جفينة وهو من نصارى الحيرة جاء المدينة ،

فصار يعلم الكتابة، وورد فى رواية أن على بن أبى طالب اختلف إلى الكتاب، فتعلم الكتابة وله ذؤابة وهو ابن أربع عشرة سنة. وورد أن رجلا نزل بوادى القرى، وعلم الخط بها (١٥٧).

وقد كتب جولدزيهر مقالا فى دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأولى عند المسلمين، وقد حاول فيه أن يثبت أن نشأة الكتاب ترجع إلى صدر الإسلام فقد أسند هذا الرأى إلى الأدلة الآتية (١٥٨) :

- أرسلت أم سلمة إحدى زوجات الرسول مرة إلى معلم كتاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها فى ندف الصوف وغزله.

- كان عمر بن ميمون يحفظ الصيغة التى تقى الإنسان شر العين، وقد أسندها إلى سعد بن أبى وقاص الذى كان يعلمها أولاده ويكتبها قائلا : إنى أفعل ذلك كما يفعل المدرس مع تلاميذه.

- مر ابن عمر وأبو أسيد فى مناسبة ما بكتاب، فلفتا إليهما أنظار التلاميذ.

- كان اللوح المخصص للكتابة موجوداً فى وقت مبكر جداً، فلقد روى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات فى الحكمة ليقلدها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة.

بيد أن أحمد شلبى حاول أن يفرق بين الكتاب، لتعليم القراءة والكتابة، و (كتاب) لتعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين الإسلامى، وأن الأول كان موجوداً قبل ظهور الإسلام، أما الثانى، فلم ينشأ فى صدر الإسلام، بل فى وقت متأخر عن ذاك (١٥٩). وفى رأينا أن المهم أن (الكتاب) كان قائماً فى سنوات الإسلام الأولى التى نؤرخ لها هنا فى شبه الجزيرة. أما هذه المحاولة فى التفرقة بين نوعين من (الكتاتيب) فلا نرى لها داعياً، وإنما

المسألة هى تغير فى (وظيفة) الكتاب جعلته قبل الإسلام يقتصر على القراءة والكتابة وسيلة لقراءة القرآن الكريم وحفظه، ومن خلال هذا وذاك يتعلم التلميذ مبادئ الدين الإسلامى.

ب - دار الأرقم : جرى التعليم الإسلامى بالمنزل فى عهد الإسلام المبكر ، وقبل نشأة المساجد، فلقد اتخذ الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم فى مكة مركزاً يلتقى فيه بأصحابه ومن تبعه ليعلمهم مبادئ الدين الجديد، ويقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم، كما كان الرسول يستقبل فى هذا المنزل من جنحوا إلى الإسلام ومالوا إليه ليغمر الرسول قلوبهم بارشاده وتعليمه فيعتنقوا الإسلام وينضموا إلى جماعة المسلمين (١٦٠).

وبالاضافة إلى دار الأرقم كان الرسول قبل إنشاء المساجد أيضاً يجلس بمنزله بمكة، ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم، وقد ظلوا كذلك إلى أن نزلت بالمدينة الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (١٦١).

وكان نزولها بعد إنشاء المساجد، وقد خفف الله بها عن الرسول ما كان يعانى من تدفق الجموع على بيته تدفقاً يكاد يكون متصلا مما لا يدع له وقتاً للراحة والاستجمام.

جـ - دار القراء : وأول من يلفت نظرنا إلى هذا الموضوع هو أحمد أمين (١٦٢) عندما أشار إلى أنه لم ير ما يدل على أن المسلمين أنشأوا فى هذا العصر مدارس خاصة للعلم إلا ما نقل المقريزى عن الواقدى أن عبدالله

ابن مكتوم قدم مهاجراً إلى المدينة مع مصعب بن عمير، وقيل قدم بعد بدر بقليل، فنزل دار القراء»، وأضاف إلى ذلك «.. ولم نعلم كثيراً عن دار القراء هذه وهل خصصت للمدارسة أم لا ؟».

وقد التقط أمين مدنى الإشارة وحققها تحقيقاً مستفيضاً دقيقاً، نحاول إيجازه في السطور التالية (١٦٣) :

فخبر الواقدى هذا ذكره ابن عبد البرى (الاستيعاب)، و الخبر الذى جاء فى الاستيعاب «أن عبد الله بن أم مكتوم» عندما قدم مهاجراً إلى المدينة مع مصعب بن عمير بعد يوم بدر بقليل نزل دار القراء».

و (دار القراء)، ذكرها (المسعودى) فى كتاب له ثلاث مرات دون أن يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى سبب هذه التسمية سوى أنها دار عبدالله بن مسعود.

ولعل الذى دعا البعض إلى تصور نص الواقدى وابن عبد البر يعنى أن دار القراء هذه أنشئت فى صدر الإسلام لحفظ القرآن وتفسيره والتفقه فى أحكامه يؤمها القراء وطلبة التفسير والحديث، هو أن عبدالله بن مسعود هو وحده مدرسة كما تؤكد الصفات التى وصف بها.

بيد أن (مدنى) يؤكد أن الشواهد التى قيلت لا تثبت أن دار القراء هى مدرسة لا فى عهد النبى وصحابته ولا فى عهد التابعين (١٦٤). فكل من تحدث عن قراءة القرآن وتعليمه وجمعه ونسخه فى حياة عبدالله بن مسعود لم يذكر أن داره كانت مدرسة للقرآن دون سواها، أو كانت تسمى (دار القراء) – جمع قارئ - أو (دار القرآن). وعندما ذكر ابن سعد فى طبقاته وصية ابن مسعود لم يذكر دارا له بهذا الاسم، وابن سعد هو تلميذ الواقدى، فلو أن الواقدى قصد أن الدار التى نزلها عبدالله بن أم مكتوم هى

مدرسة لأشار إليها. ولو كانت هناك دار لدراسة القرآن من قبل بدر لذكرت فيما ذكر عن أسباب جمع القرآن ونسخه - وعبدالله بن مسعود رحل إلى (حمص) وبعثه عمر إلى أهل القادسية والكوفة، فلو كانت له دار اتخذت مدرسة للقرآن لما أهمل ذكرها .. فهذه المناسبات جميعها جديرة بذكر هذه الدار لو كانت لها هذه الوظيفة.

هذه لمحات من التربية الإسلامية التى كانت لشبه الجزيرة العربية شرف شهود ميلادها وبزوغها شمسها، تربية الموحى بجوهرها خالق هذا الكون ، والمفصل لها نبى هذه الأمة وخاتم المرسلين .. نموذجاً سرعان ما انتشر عبر أنحاء العالم الإسلامى ينتقل مع جنود الإسلام ودعاته يسهم فى إعادة صياغة وتشكيل الإنسان الجديد المنشود.

الهــــوامش

١- محمد عبدالله دراز : نظرات فى الإسلام، تحقيق محمد موفق أبو اليسر البيانونى، حلب ، مكتبة الهدى، ١٩٧٢، المقدمة.

٢- ابن هشام : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، د. ت، جـ٤ . ص ٣٤ .

٣- الجاحظ : البيان والتبين ، جـ١ ص ١٦٤ .

٤- حسين مؤنس : عالم الإسلام ، القاهرة، دار المعارف، ص ١٧ .

٥- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة، النهضة المصرية. جـ١، ص ١٠

٦- وقد ذكر ياقوت تسعة وعشرين اسماً، منها المدينة، وطيبة (لطيب هوائها)، ويثرب ، والناجية، والمباركة، والمحببة .. الخ .

٧- فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول)، جـ١ ، ١٦٦ .

٨- أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٥ ، ص ٣٨٧ .

٩- المرجع السابق، ص ٤٠٠ .

١٠- سيرة النبى ، جـ ٤ ص ٢٢١ .

١١- محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، القاهرة، دار الفكر العربى ، ١٩٧٢، ص ١٨٢

١٢- شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول، بيروت، دار العلم للملايين ، ١٩٧٣ ، ص ٤٠ .

١٣- حسين مؤنس : عالم الإسلام ، ص ٣٨ .

١٤- الجمعة / ٥.

١٥- ابن هشام : سيرة النبى ، جـ١ ، ص ١١٦ .

١٦- أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون. القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٦٦ .

١٧- عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٦٥ ، ص ١٢٧ .

١٨- عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه القاهرة المؤتمر الإسلامى، ١٩٥٧ ، ص ٣٢ .

١٩- أحمد أمين فجر الإسلام، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٥، ص ٧٥

٢٠- السيد سابق : العقائد الإسلامية ، بيروت، دار الكتاب العربى، د. ت.ص ٩ .

٢١- محمد أبو زهرة : المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام، فى (التوجيه الاجتماعى فى الإسلام)، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ١٩٧٢ ، ج ، ص ٥٧ .

٢٢- الرعد / ٢٨

٢٣- أبو زهرة ص ٦٢ .

٢٤- محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق، د.ت، ص ٢٧٠ .

٢٥- أحمد كمال أبو المجد : الإسلام وتعمير الكون، منار الإسلام، أبو ظبى، العدد التاسع، رجب ١٣٦٩ هـ ص ٧ - ٨ .

٢٦- الفرقان / ٦٧ .

٢٧- الأعراف ٣٢ .

٢٨- هود/ ٦

٢٩ رواه الإمام أحمد.

٣٠- محمد المبارك : نظام الإسلام ، الاقتصاد، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٢ ص ٧٥ .

٣١- المرجع السابق ، ص ٧٦ :

٣٢- إبراهيم اللبان : حق الفقراء فى أموال الأغنياء، فى (التوجيه الاجتماعى فى الإسلام، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، جـ١ ، ص ٨٠ .

٣٣- يوسف عبد الهادى الشال : الإسلام وبناء المجتمع الفاضل. سلسلة البحوث الإسلامية، القاهرة ، العدد (٦٠)، ديسمبر ١٩٧٢ ، مجمع البحوث الإسلامية ، ص ٨.٧ .

٣٤- شلتوت، ص ٢٩٩ .

٣٥ - الزلزلة / ٧ - ٨ .

٣٦- عبد المنعم النمر : نعم طبقات.. ولكن دون استغلال . مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد، (١٦٠)، ربيع الثانى ١٩٣٨ ، ص ٣٤ .

٣٧- أحمد محمد العسال: الإسلام وبناء المجتمع، الكويت، دار القلم ، ١٩٧٥، ص١٢٤

٣٨- عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، القاهرة ، دار القلم ، د.ت ص ٨٥

٣٩- سبأ/ ٩ .

٤٠- الذاريات / ٢٠ - ٢١

٤١- فصلت / ٥٣ .

٤٢- الغاشية / ١٧ - ٢٠ .

٤٣- البقرة / ١٦٤ .

٤٤- محمد سلام مدكور : بحث عن التعليم فى الإسلام ، ماضيه وحاضره قدم للمؤتمر العالمى الأول للتعليم الإسلامى ، مكة المكرمة ٣١/٣ - ٨ / ٤ / ١٩٧٧ .

٤٥- محمد عبده : دروس من القرآن الكريم، كتاب الهلال ، العدد . الصادر فى مارس ١٩٥٩، دار الهلال ، القاهرة ، ص ١٢٠ .

٤٦- المرجع السابق ، ص . ١٢١ .

٤٧- عبد الفتاح جلال : من الأصول التربوية فى الإسلام، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى، سرس الليان (مصر)، ١٩٧٧ . ص ١٦ .

٤٨- البقرة / ١٥١ .

٤٩- البقرة / ٢٦٩

٥٠- العلق / ١-٥ .

٥١- المجادلة / ١١ .

٥٢- آل عمران / ٨.

٥٣- فاطر / ٢٨.

٥٤- زكى الدين المنذرى : الترغيب والترهيب من الحديث الشريف بيروت، دار الفكر، ١٩٧٣ ، جـ١ ص ٧٢ .

٥٦- البقرة / ١٥٩

٥٧- تفسير المنار، جـ ٢ ، ص ٥١.

٥٨- التوبة / ١٢٢ .

٥٩- رواه ابن ماجة فى سننه، الجزء الأول ، ص ٢٩٠ ، حديث رقم ٢٤٧ .

٦٠- رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن.

٦١- البقرة / ٣٠ .

٦٢- أحمد إبراهيم مهنا : الإنسان فى القرآن الكريم القاهرة ، مجمع

البحوث الإسلامية، ١٩٧١ ، ص ٤٧ .

٦٣- البقرة / ٣١ .

٦٤- مهنا ، ص ٤٨.

٦٥- إبراهيم / ٣٢ / ٣٣ .   ٦٦ - النحل / ٥ - ٨ .

٦٧- محمد البهنسى : من توجيه القرآن الكريم، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية ، أغسطس، ١٩٦٩ ، ص ١٠ .

٦٨- الإسراء / ١٣ - ١٥ .

٦٩- رواه مسلم .

٧٠- عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، مكة المكرمة ط١، ص ١٣٨ .

٧١- الأعراف / ٣٢.   ٧٢- البقرة ٢٢٣.

٧٣- من توجيه القرآن / ص ٩ .

٧٤ الحجرات / ٥٥ .

٧٥- عائشة عبد الرحمن: الشخصية الإسلامية ، دراسة قرآنية، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

٧٦- محمد أحمد خلف الله : القرآن والثورة الثقافية. الأنجلو المصرية القاهرة : ١٩٧٤ : ص ٨٨ .

٧٧- المرجع السابق. ص ٨٩ .

٧٨- القلم / ٤ .

٧٩- الميدانى ، ص ٦٤ - ٦٥ /

٨٠- عبد الحميد حسن : التربية الخلقية والاجتماعية فى السنة النبوية ، فى (التوجيه الإسلامى للشباب)، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة، ١٩٧١ ، ص ١٥٤ .

٨١- النور / ٣٧ .   ٨٢- آل عمران / ١٣٤ .

٨٣- عبد الغنى أحمد الناجى : تربية الإرادة فى منهج الإسلام، مجلة المنار الإسلام، أبو ظبى ، العدد الأول ، السنة الثانية ، محرم ١٣٩٧ هـ ص ١١١

٨٤- محمد الهادى عفيفى : فى أصول التربية، الأصول الفلسفية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤ ، ص ٢١١ .

٨٥- جون ديوى : الديمقراطية والتربية ، ترجمة متى عقراوى وزميله ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٤ ، ص ١٥٩ .

٨٦- عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية، بيروت، دار الكتاب العربى ١٩٦٩، ص ١٦

٨٧- محمد شديد : منهج القرآن فى التربية ، بيروت ، دار الأرقم . د.ت، ص ١٦٩ .

٨٨- عبد الرازق نوفـل : وسائل التعليم فى القرآن الكريم. مجلة منار الإسلام ، أبو ظبى ، العدد ١١ ذى القعدة ١٣٩٦ هـ ، ص ٧.

٨٩- الحشر / ١٢   ٩٠- البقرة / ٢٦٠

٩١- الميدانى ، ص ٣٦١ .

٩٢- العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، ص ٢٦ .

٩٣- الشعراء / ٦٩- ٧٤ .

٩٤ - عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية ، ص ١٣٩ .

٩٥ - يس / ٤٠ ٩٦- البقرة ٢٨١ .

٩٧- حسين مؤنس : عالم الإسلام ، ص ١٦٦ .

٩٨- أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ١٦٦ .

٩٩- المرجع السابق . ص ١٦٧ .

١٠٠- الخطيب البغدادى : تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش ، دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧٥ ، ص ٢٩ - ٤٩ .

١٠١- المرجع السابق . ص ٥٧ .

١٠٢ - المرجع السابق. ص ٦٤ - ١١٤ .

١٠٣ - أمين مدنى : التاريخ العربى ومصادره ، القاهرة، دار المعارف جـ ، ص ٢١١ .

١٠٤- محمد أسعد طلس : تاريخ الأمة العربية، عصر الانبثاق، بيروت ، مكتبة الأندلس، ١٩٥٢ ، ص ١٦٥ .

١٠٥ - المرجع السابق

١٠٦ - محمد عزه دروزه : سيرة الرسول، جـ١، ص٤٥-٤٦ .

١٠٧ - عباس محمود العقاد : عبقرية عمر، في (إسلاميات) ص٢١٩ .

١٠٨ - أحمد أمين، فجر الإسلام، ص١٤٨ .

١٠٩ - عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام على في (إسلاميات ٩ ، ص١٢٨ .

١١٠ - طبقات ابن سعد، جـ٤ ، ص٦١

١١١ - صحيح البخارى ، جـ٢، ص٢٢٦(طبعة الشعب بالقاهرة) .

١١٢ – التوبة / ١٢٨ .

١١٣ – جرجى زيدان : تاريخ التمون الإسلامي ، القاهرة، دار الهلال، ١٩٥٨، جـ٣، ص٧٠ .

١١٤ – فجر الإسلام، ص٢٠٨ .

١١٥ – مسند الإمام أحمد ، جـ٦، ص٢٩٦ الحديث رقم ٤١٥٧ .

١١٦ – أبو زيد شلبى : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، القاهرة ، مكتبة وهبه ١٩٦٤، ص١٩ .

١١٧ – صحيح مسلم .

١١٨ – أبو زيد شلبي، ص٢١٨ .

١١٩ – جرجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ١، ص٢١٨ .

١٢٠ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، جـ١، ص٥٠٦ .

١٢١ – الشعراء / ٢٢٥–٢٢٦ .

١٢٢ – فجر الإسلام ، ص١٥٨ .

١٢٣ – أمين مدنى : التاريخ العربي ومصادره ، ص١٩٠ .

١٢٤ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ١ ، ص٥١٣ .

١٢٥ – على محيى الدين القرة : مفهوم المسجد في الإسلام ، وماذا يتطلب منا في الوقت الحاضر . نوعز رساله المسجد . مكة المكرمة ، ١٩٧٥ ، ص ١٠٧ .

١٢٦ – محمد حسين الذهبى : رسالة المسجد العالم عبر التاريخ ، مؤتمر رسالة المسجد ، ص٤٥٨ .

١٢٧ – التوبة / ١٨ .

١٢٨ – الجن / ١٨ .

١٢٩ – الأعراف / ٢٩ .   ١٣٠ – الأعراف / ٣١ .

١٣١ – الذهب ، مرجع سابق ، ص ٤٥٨ .

١٣٢ – عن : عبد الرحمن صالح : تاريخ التعليم في مكة المكرمة، بيروت، دار الكفر، ١٩٧٣ ، ص ٤٠ .

١٣٣ – الزركشى (محمد بن عبد الله) : السلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغى، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٣٨٤هـ ، ص٥٧.

١٣٤ – أحمد السباعى : تاريخ مكة المكرمة، مطابع دار قريش، ١٣٨٠هـ، جـ١ ، ص٥٨ .

١٣٥ – التوبة / ١٠٨ .

١٣٧ – محمد محمد أبو شهبة : رسالة المسجد في صدر الإسلام ، مؤتمر رسالة المسجد ، ص٢٢٠ .

١٣٨ – محمد عبد الرحيم فودة ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، في : بيوت الله ، مساجد ومعاصر، كتاب الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠، ص١٢٧ .

١٣٩– المرجع السابق. ص ١٢٨ .

١٤٠– أبو شهبة ، ص ٢٢٠ .

١٤١– يعنى هذا اللبن (الطوب النيىء) على ما ينال العامل فى حمله من المشقه والاغبرار، أبقى ذخرا، وأكثر ثواباً ، وأشد طهرا ، من جمال خبير، وهى ما يحمل من التمر والزبيب ونحوها من التجارة ، وأنها الروحانية سامية لا تكون إلا من هذه النفوس التى أحسن الإسلام تكوينها وتربيتها.

١٤٢- رواه البخارى ومسلم.

١٤٣- رواه مسلم عن أى هريرة.

١٤٤- رواه مسلم عن عقبة بن عامر.

١٤٥- عبدالله عبد الخالق المشد : وظيفة المسجد فى المجتمع المعاصر فى (التوجيه الاجتماعى للاسلام)، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٢ ، جـ ٣ ص ١٥٦ .

١٤٦- أضيفت الاسطوانة إلي التوبة مشيرة لتوبة أبى لبابة.

١٤٧- أبو بكر القادرى، رسالة المسجد عبر التاريخ، فى (مؤتمر رسالة المسجد)، ص ٢٤٢ .

١٤٨- القرة، ص ١١٢ .

١٤٩- المشد ، ص ١٥٧ .

١٥٠- أبو شهبة ، ص ٢٢٣ .

١٥١- محمد رشاد الشافعى : بحث عن رسالة المسجد ، فى (مؤتمر رسالة المسجد) ، ص ٥٣٨ .

١٥٢- القرة،ص ١٣

١٥٣- أبو شهبة .ص ٢٢٦ .

١٥٤- المشد، ص ١٦٣ .

١٥٥- فجر الإسلام، ص ١٧٥ .

١٥٦- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ، دار العلم للملايين، ١٩٧١ ، جـ ٨ ، ص ٢٩١ .

١٥٧- المرجع السابق، ص ٢٩٢

١٥٨–أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٦، ص ٤٩

١٥٩– المرجع السابق . ص ٤٨ .

١٦٠– المرجع السابق. ص ٦٨

١٦١– الأحزاب / ٥٣

١٦٢– فجر الإسلام ، ص ١٦٥ .

١٦٣– التاريخ العربى ومصادره، جـ٢ ص ١٧٩ وما بعدها.

١٦٤– المرجع السابق، ص ١٨٠ .

* * *

دور المؤسسات التعليمية فى رفع المستوى الثقافى للأقلية المسلمة *

مقدمة

اذا كان المسلمون يشكلون الجمهرة الكبرى من سكان مناطق عدة من العالم، مثل المنطقة العربية، وعدد آخر من البلدان الآسيوية والإفريقية، فإن بلادا أخرى كثيرة يشكل المسلمون فيها أقلية تتراوح بين عدة عشرات من الألوف وبين ملايين قليلة معظمهم فى أوربا وأمريكا وبعض البلدان الآسيوية والافريقية.

وإذا كان المجتمع يسعى عادة إلى إيجاد التجانس والوحدة الفكرية والثقافية بين أبنائه، فإن الأقلية المسلمة تصبح معرضة لخطر الذوبان فى المجتمع الكبير مما يحتم ضرورة السعى الحثيث للحيلولة دون الوقوع في هذا الخطر، ويكون ذلك بانتهاج كافة السبل الممكنة واستنفار كافة النظم والمؤسسات للمشاركة فى تحقيق هذا الهدف.

ولا تقتصر المسألة على الحيلولة بين الأقلية المسلمة وبين الذوبان فى المجتمع الكبير غير المسلم، وإنما تتعداها إلى ضرورة التنمية الذاتية للمسلمين والتطوير الدائم لأحوالهم الثقافية والاجتماعية.

بل إننا لنزيد على ذلك ضرورة السعى لتوسيع الرقعة الإسلامية وكسب المزيد من الأنصار بجذب من يمكن جذبه إلى الانضواء تحت المظلة الإسلامية بحسن عرض الفكرة الإسلامية والدعوة إليها بالتالى هى أحسن، وتقديم النماذج الطيبة التى تؤكد للآخرين بطريق عملى أن النهج الإسلامى كفيل بأن يبوئ صاحبه مكانة عالية فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

---

* الندوة العالمية للشباب الإسلامى – الرياض ١٢ : ١٧ جمادى الأول ١٤٠٦ – ١٩٨٦ .

ولا شك أن مثل هذه المهمة لها جوانبها المتعددة اجتماعياً وثقافياً واقتصاديا وسياسياً مما يحتم تضافر قوى كل المؤسسات القائمة واستحداث ما نحن بحاجة إليه للقيام بهذه المهام الرئيسية.

ومن بين هذه المؤسسات التى تلعب دورا خطيرا فى هذا الشأن المؤسسات التعليمية نظرا لطبيعة مهمتها الأساسية وهى بناء البشر مما يتيح لها الفرصة أن تكون ذات أثر لا فى المجال التعليمى فحسب، بل فى سائر المجالات الأخرى .

ولعل هذا يبرز لنا أهمية البحث فى الدور الذى يمكن أن تقوم به المؤسسات التعليمية سعياً لرفع المستوى الثقافى للأقلية المسلمة فى المجتمعات غير المسلمة. ذلك أن مثل هذا البحث يوفر للعمل الإسلامى قاعدة علمية متينة الأسس قوية الأركان بحيث يبعد عن الارتجال والعشوائية التى تؤدى بالعمل إلى الفشل عادة.

ومن الخطأ أن نظن أن المؤسسات التعليمية تقتصر على تلك المعاهد النظامية التى تقدم أطراف المعرفة فى صورة مقررات فى أوقات محددة على أيدى معلمين متخصصين ومحترفين، إنها تشمل أيضاً نوعاً أخر نطلق عليه (مؤسسات التعليم اللامدرسى)، وذلك مثل دور العبادة ووسائل الإعلام والأسرة والنوادى، وغير ذلك من مؤسسات اجتماعية، وذلك لأن عملية بناء الإنسان عملية متكاملة يضرها أن تقتصر على جانب منها، تختص به المدرسة أو الجامعة.

مشكلة البحث :

يمكن تحديد المشكلة التى يحاول هذا البحث التصدى لها من خلال طرح التساؤل الرئيسى التالى :-

(ماالدور الذى يمكن للمؤسسات التعليمية أن تقوم به من أجل رفع المستوى الثقافى للأقلية المسلمة)؟

ويقتضى هذا محاولة الاجابة على الأسئلة الفرعية التالية :

أ - ما الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة ؟

ب - ما المشكلات التربوية التى تواجه الأقلية المسلمة ؟

جـ - إلى أى حد تختلف الاحتياجات والمشكلات التربوية باختلاف أوضاع المجتمعات غير المسلمة؟

د- ما أهم المؤسسات التعليمية التى يمكن أن تسد هذه الاحتياجات؟

هـ- كيف يمكن تحقيق التكامل بين مؤسسات التعليم المدرسى ومؤسسات التعليم اللامدرسى؟ ... الى غير ذلك من تساؤلات .

خطة البحث :

بناء على ما سبق يقتضينا الأمر أن نعالج النقاط التالية :

١- الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة .

٢- المشكلات التربوية التى تواجه الأقلية المسلمة.

٣- اختلاف الاحتياجات والمشكلات التربوية باختلاف المجتمعات غير المسلمة.

٤- المؤسسات التعليمية التى يمكن أن تسد الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة.

٥- التكامل بين مؤسسات التعليم المدرسى ومؤسسات التعليم اللامدرسى.

٦- الدور الذى لا بد من القيام به لرفع المستوى الثقافى للأقلية المسلمة.

٧- مراجع مختارة .

وفيما يلى من صفحات تفصيل لهذه الخطوات ...

الاحتياجات التربوية :

لسنا فى حاجة ملحة فى هذا المقام لأن نغوص فى تفاصيل تلك الفروق الدقيقة التى حاول الباحثون أن يشيروا إليها بين عدد من المصطلحات التى تكاد أن تنتهى إلى نطاق واحد مثل (الحاجات) و (الاحتياجات) و (المتطلبات) و (الدوافع) وما إلى ذلك، وإنما يسمح المقام لنا بإشارة عاجلة موجزة إلى فرق دقيق بين (الحاجات) و(الاحتياجات) يكمن فى أن الأولى أقرب الى الجانب البيولوجى، أما الثانية فهى أقرب إلى الجانب الاجتماعى [١] . ومن ثم فإن (الاحتياجات) تكون أقرب تطابقا - مع بعض التجاوز - مع (المتطلبات) وتكاد (الدوافع) بدورها - مع بعض التجاوز - أن تتطابق مع (الحاجات) .

وعلى الرغم من تلك التفرقة الدقيقة التى أشرنا اليها بين (الحاجات) وبين (الاحتياجات)، إلا أن هذا لا يمنعنا من استخدام الأولى كمثال لشرح الثانية خاصة ونحن نعلم أن المستوى (البيولوجى) أبسط دراسة وملاحظة من المستوى (الاجتماعى) [٢].

إن للإنسان مستوى معينا من التوازن فى (وجود) العناصر التى تدخل فى تكوينه، فاذا أخذنا الماء على سبيل المثال، سنجد أن جسم الإنسان لا يقوم إلا بقدر معين كحد أدنى منه، فإذا نقص هذا القدر عن الحد الأدنى يوشك التوازن فى (وجود) عناصر الجسم أن يختل ويدخله فى دائرة الاضطراب فيشعر بـ (حاجة) الى الماء و (دافع) إلى الشرب. [٣]

كذلك فإن للإنسان شخصيته الخاصة الاجتماعية المكونة من عدد من الخصائص والعناصر. لكننا هنا نكون أمام صورة (مثالية) لا (واقعية) لكنها غير (مفارقة) أو (متعالية) ..إنها تدخل فى دائرة (الأهمية الاجتماعية) و (الضرورة الدينية) .. وبدون تحققها تصبح حياة المواطن مضطربة .. قلقة .. غير موفقة .. ومن هنا تمثل هذه الصورة مجموعة (احتياجات) المواطن .. وهى بطبيعة الحال تختلف من مجتمع إلى آخر باختلاف الثقافة، كما أنها تختلف من عصر إلى آخر لنفس السبب . (٤)

فإذا جئنا إلى مجال التطبيق بالنسبة لموضوعنا، فسنجد أن الأقليات المسلمة تعيش فى مجتمعات لها معاييرها وقيمها ومثلها وطموحاتها وأساليبها الفكرية وعاداتها وتقاليدها مما لا بد منه كي تتوفر للمواطن (الكفاية الاجتماعية) الضرورية لحسن معيشته وتعامله. وبحكم كون المسلمين فى مثل هذه المجتمعات (أقلية) فإن هذا يعنى – باحتمال غالب وترجيح واضح – أن مثل هذه المكونات اللازمة لكفاية المواطن الاجتماعية قد لا تتماثل مع المكونات اللازمة للشخصية المسلمة التى يتطلبها الدين من الإنسان المسلم . ومن ثم يكون المواطن المسلم فى هذه المجتمعات أمام فئة أخرى من المكونات التى لا بد من توفرها لديه.

إن هذه العناصر اللازمة لشخصية المواطن ليرتفع إلى مستوى (الكفاية الاجتماعية) اللازمة للمجتمع الذى يعيش فيه تمثل (احتياجات) تتعدد وتختلف بتعدد واختلاف المجالات والميادين، من سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية .. الخ (٥) .

وكذلك فإن العناصر اللازمة لشخصية المسلم تمثل (احتياجات) ضرورية لهذا المواطن أيضاً.

واذا كانت الاحتياجات لها مضمونها الذى يجعلها اقتصادية أو اجتماعية (وسياسية) فإن (الطريقة) التى نلجأ اليها لسد هذه الاحتياجات هى مما ينتمى الى عالم التربية والتعليم، فإذا كان المواطن فى احتياج إلى اكتساب عدد من المهارات التى تمكنه من أن يكون عاملا فنياً، فإن (طريقة) اكتساب هذه المهارات مما تختص به التربية ويختص به التعليم، أما المحتوى، فهو مما يختص به كل من عالم (الهندسة) و (الاقتصاد). (٦)

لكن هذا لا ينفى وجود احتياجات لها مضمونها التربوى الخاص مثل الاحتياج إلى اكتساب القيم الاخلاقية اللازمة.

ومن ثم فإن الاحتياجات التربوية يتسع مداها ليشمل فئة خاصة بها، بالإضافة إلى أهميتها وضرورتها كـ (جسر) وكـ (أداة) لاكتساب الاحتياجات الأخرى .

وعندما ننطلق إلى محاولة تحديد الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة فإن المحاولة ليست سهلة يسيرة .. إن المنهجية العلمية تقتضى دراسة ميدانية يقوم بها فريق من الباحثين فى عدد من المجتمعات التي توجد فيها هذه الأقلية ، وهو عمل يستغرق شهورا طويلة . وبالطبع فإن هدفا مثل هذا تنوء به قدرة هذه (الورقة) مما يجعلنا أمام سبيل آخر ينحو بالكتاب إلى (تصور) تقريبى لا نستطيع أن نزعم أن له الإحاطة والدقة. وليس معنى أنه (تصور) أنه يقوم على (التخيل) وإنما قد توفر له - بحمد الله - قدر من الملاحظة الشخصية والقراءات المتعددة .

- إن الانسان المسلم كعضو فى أقلية اجتماعية - يكون بالدرجة الأولى فى حاجة ملحة إلى أن يفهم أساسيات الدين الإسلامى وأن يقوم هذا الفهم على قواعد راسخة ومفاهيم واضحة، بدرجة تجعله واعيا إسلاميا .

- والمسلم هنا لايقتصر احتياجه علي مجرد (الفهم) و (الوعى) . وإنما هو أيضاً بحاجة إلى (ممارسة) شعائر الدين وخاصة في الصلاة والصيام ..

- وهو بحاجة إلى (التكافل الاجتماعى) بين أقرانه من المسلمين ، ومن ثم إلى ضرورة القيام بواجب (الزكاة) كسبيل أساسى لتحقيق التكافل المطلوب.

- وهو لكى يفهم دينه ويعيه لا بد له من امتلاك الأداة الرئيسية لذلك ألا وهى اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم.

- والمسلم فى هذه المجتمعات يكون بحاجة إلى التسلح بقدر من الوعى والتفكير الناقد الذى يجعله يكشف (الدسائس) الفكرية التى قد يدسها أعداء الأمة الإسلامية على الفكر الإسلامى، فتكون مثل هذه الأقليات أولى ضحاياه عادة .

- والتوعية الإسلامية عملية لا بد أن تكون (مستمرة) غير مرتبطة بفترة زمنية محددة فى مرحلة تعليمية معينة، ذلك أن المسلم هنا يظل طوال حياته معرضا لزخم لا ينقطع من الأفكار والمذاهب والآراء التى قد تتناقض أو تتضاد مع العقيدة الإسلامية.

- واذا كانت ظروف المسلم فى هذه المجتمعات قد فرضت عليه أن يعيش فى محيط كبير لا يشاركه الملة والعقيدة، إلا أنه يظل منتميا إلى إخوانه المسلمين فى مجتمعات الكثرة المسلمة ، ومن ثم فهو يكون بحاجة ملحة إلى الارتباط بها إعلاميا خاصة وأن وسائل الإعلام فى المجتمعات غير الإسلامية تهمل عادة كل ما يتصل بالعالم الإسلامى إلا ما يسئ إليه فقط ، فإنها تلح عليه وتنشره وتذيعه وتبالغ فيه مثل ما يتصل بالمنازعات

والمعارك المؤسفة التى تقع أحياناً بين بعض البلاد الإسلامية.

- والمسلم يحتاج إلى تحصيل العلم، كل فى الفرع الذى يميل إليه ويرغب حيث أن العلم هو أهم مظاهر (القوة) فى عصرنا الراهن حيث لا تقتصر القوة على مجرد امتلاك القدرة (الاقتصادية والعدة العسكرية) بل لا بد أيضاً من (القدرة العلمية) التى هى وسيلة الوصول إلى المقدرة الاقتصادية العالية والمقدرة العسكرية المتقدمة . (٧)

- والمسلم بأمس الحاجة إلى أن يقدم فى مثل هذه المجتمعات (مثلا أخلاقيا) رفيع (المستوى)، فهو فضلا عما يؤدى إليه تقديمه لهذا المثل الأخلاقى من تحقيق لأهداف العقيدة الإسلامية وسلامة بنية المجتمع الإسلامى ، فإنه يقدم لغير المسلمين صورة مشرفة للشخصية المسلمة قد يكون لها تأثيرها فى جذب البعض إلى ديننا الحنيف .

- والمسلم الذى حصل وعيا طيبا بأساسيات دينه لا يستطيع أن يقنع بذلك متصورا أن الهدف تم الحصول عليه .. كلا فهناك بالضرورة مسلمون آخرون لم تتيسر الظروف اللازمة لهم لكى يحصلوا ما حصله، ومن هنا فالإسلام يحتم دائما على من يعلم أن يعلم ما تعلمه فى المجال الدينى للآخرين .. ليس بالضرورة أن يكون مطالبا بأن يتحول إلى داعية، وإن كان هذا مطلبا هاما، ولكن على أقل تقدير يسهم فى واجب (توعية) الآخرين ونقل الرسالة الإسلامية لإخوانه.

- ومما يكمل هذا ايضاً أن تمتد المسئولية إلى (إعلام) غير المسلمين بالصورة الحقيقة للإسلام عقيدة وشريعة .

المشكلات التربوية التى تواجه الأقلية المسلمة :

لعل من أخطر المشكلات التربوية التى تواجة الأقليات الإسلامية هى

أن المسلم لا يعيش مجتمعاً إسلامياً : نقول هذا من منطلق أن المجتمع هو الوسيط المربى الأساسى ، إذ مهما تعددت وسائط التربية وأجهزتها ومؤسساتها فسوف يظل المجتمع هو (الرحم) الذى تنبت فيه شخصية المواطن إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا ، ومن هنا فإن وجود المسلم جزءا من أقلية وسط كثرة غير مسلمة يجعله يضع أبناءه فى (رحم) مختلف تماماً يغذيه آناء الليل وأطراف النهار بالمثل والقيم والطموحات غير الإسلامية.

أن شأنا مثل هذا له خطره المزدوج، فهو أولا يعيق ما قد يتم من تربية إسلامية لأبناء المسلمين سواء عن طريق الأسرة أو عن طريق مؤسسات أخرى، ذلك أن فعل التربية لا يؤتى ثمره كاملا إذا كان هناك ما يفعل فعلا معاكسا. وهو من ناحية ثانية يوقع الأبناء فى صراع حاد بين (تربية) يطمح إليها ويسعى نحوها يتطلبها دينه، وبين (واقع) اجتماعى يسير به فى اتجاه آخر، وهو إن أخلص تماماً لتربيته الإسلامية خاف أن يبدو فى الوسط الأكبر غريبا مغتربا، وهو إن تجاهل هذه التربية وانغمس فى الوسط الأكبر بما فيه، عاش تحت سياط ضمير يلهب فكره ووجدانه بضربات مؤلمة لانه قد تنكب طريق الإسلام.

إن هذا ينقلنا إلى مشكلة أخرى نواجهها نحن أيضا فى المجتمعات المسلمة، ألا وهى ما اصطلح على تسميته بـ (الأصالة والمعاصرة)، إنها بالنسبة للمسلم الذى يعيش فى مجتمعات غربية تكون أشد وطأة وأكثر إلحاحاً. إن المسلم هنا يكون أمام تحد كبير لتحقيق هذه المعادلة.. كيف يصبح الإنسان مسلما حقا، ومعاصرا يعيش أصداء العصر ومطالبه ؟

إن الدراسة المتأنية لهذه القضية ربما تكشف عن عدم وجود تعارض وتناقض، وهو مانؤمن به شخصيا، ولكننا نتحدث هنا عن حقيقة قائمة فى التكوينات الشخصية تجعل من كثيرين وكأنهم يقفون أمام طريقين، إما هذا وإما ذاك.

وإذا كانت التربية لا تقف عند حد (الفهم) و (العلم) و (الوعى) وإنما تتطلب (عملا) و (ممارسة) ، فإن الأقلية المسلمة قد لا توجد صعوبة فى توفير (الوقت) و (المكان)، المناسبين لدراسة ما يتصل بالصلاة، ولكنها قد تجد صعوبة (عملية) فى هذا الشأن وخاصة فى المجتمعات الغربية بحكم ظروف العمل ونظامه ونظام العطلات الأسبوعية والموسمية. ونفس الشئ يمكن قوله بالنسبة للقيام بفريضة الصيام وفريضة الحج.

وبالطبع فإن من أهم المشكلات أيضا أن أبناءهم وبناتهم يتعلمون فى مؤسسات تربوية لا إسلامية على أيدى معلمين غير مسلمين فى أغلب الأحوال مما يعرضهم لخطر الذوبان فى المجتمع الكبير وإضعاف الهوية الإسلامية، ولعل ما يمكن الإشارة إليه هنا ما تكون عليه المدارس من اختلاط بين البنين والبنات فى تلك المرحلة الدقيقة من عمر الأبناء ألا وهى مرحلة المراهقة بصفة خاصة، فضلا عن المرحلة السابقة واللاحقة. والمسألة لا تقف عند حد معلمى هذه المدارس وعلومها وكتبها وإدارتها، وإنما تكمن المشكلة كذلك فى جماعات الرفاق التى تلعب دور خطيرا فى التأثير على شخصية الطالب ربما يفوق فى بعض الأحوال دور المعلمين أنفسهم.

كذلك فإن غياب اللغة العربية يجعل السبل وعرة والطرق عسيرة أمام المسلم فى هذه المجتمعات كى يدرس دينه ويقرأ القرآن الكريم والأحاديث النبوية. صحيح أن هناك ترجمات، لكنها مهما أوتيت من دقة، إلا أن الإحاطة الدقيقة والوعى السليم والبصر العميق بأصول الإسلام يتأتى بدرجة أكثر فاعلية عن طريق الدراسة الكافية باللغة العربية.

وإذا كان البعض قد جاء مهاجرا من بلد عربية مما يجعله مالكا لناصية (اللغة) إلا أن أبناءه ينسونها بالتدرج لأنها لا تمارس فى المجتمع

الخارجى. بل إن الكبار أنفسهم قد يتعرضون لمثل هذا النسيان لنفس السبب.

ومن المسلم به افتقاد الأقلية المسلمة للعدد الكافى من المعلمين والمربين وعلماء الدين الذين يمكن لهم أن يقوموا بواجب التربية الإسلامية وتعليم اللغة العربية خاصة بالنسبة لغير الناطقين بها. صحيح أن بعض البلدان الإسلامية توفد مبعوثين لهم، إلا أن عدد هؤلاء غير كاف، ونخشى أن نقول : أن نوعيات بعضهم قد لا تكون بالمستوى المطلوب بسبب ما قد يتم من (وساطات) فى اختيارهم إذا كانت الجهة التى يبتعثون إليها هى أحد البلدان الغربية المتقدمة .

ولا نستطيع أن نغض الطرف عما تتعرض له بعض الأقليات المسلمة من صور (غسيل المخ) والحرب الفكرية وخاصة فى المجتمعات الشيوعية، حيث يتعلم الأبناء غالبا ما تهاجم به الأديان بصفة عامة، والدين الإسلامى بصفة خاصة، ويمنع الجميع من ممارسة شعائر الدين، أو توضع أمام الممارسة العقبات والصعاب. هذا فضلا عما يتعرضون له من إرهاب فكرى يجعل تداول الكتب الإسلامية عسيرا، ونشر الأفكار والآراء الإسلامية محجوار عليه.

ويتعرض أبناء الأقليات المسلمة وخاصة فى البلدان المتقدمة صناعيا سواء فى المجتمعات الماركسية أو المجتمعات الأوربية والإمريكية لصور متعددة من الحياة الجنسية بلا حياء مما قد يغرى البعض بالانخراط فى علاقات مماثلة والذين يستطيعون الصمود، فإنهم قد يعانون من مشاعر ضاغطة من الكبت الجنسى حيث عوامل الإثارة متعددة وكثيرة وقوية تكاد تحيط به فى كل مكان.

والتعليم يحتاج دائما إلى قاعدة اقتصادية يقوم عليها، وهنا نجد عددا غير قليل من الأقليات المسلمة تعيش أوضاعا اقتصادية متدنية مما يجعل الهم الأكبر للآباء هو توفير لقمة العيش والكساء والمأوى وغير ذلك من الاحتياجات الأساسية التى يجدها بصعوبة بالغة، وقد لا يجدها. ومن هنا يصبح من العسير أن يعنوا بتعليم أبنائهم فضلا عن أنفسهم. ومن المعروف أن تردى الوضع الاقتصادى يجلب معه نوعا آخر من التردى، ألا وهو الوضع الصحى لافتقاد التغذية اللازمة وصعوبة النظافة والوقوع فى براثن الحشرات المتعددة، وهذا وذاك مما يشكل عقبة رئيسية أمام التعليم، بل إن بعض الأقليات المسلمة ذات الوضع الاقتصادى المعقول تقف أحيانا عاجزة أمام التكاليف الباهظة اللازمة لتوفير مسجد مثلا أو لتوفير مدرسة خاصة لما قد يحدث من (فتور) لدى بعض الأفراد من حيث المساهمة المالية.

وقد تؤدى (تجربة) الجهود التعليمية وتفرقها بين هيئات وجمعيات مختلفة إلى ضعف هذه الجهود أو إلى صعوبة صمودها أمام ما تواجهه من مشكلات ومن صعاب، بل وأحيانا من تضاد وتناقض تكون فيه بعض النظم السياسية الخارجية مسئولة عن إذكائه فى كثير من الأحوال وتعميقه وتوسيع نطاقه.

أما الكتب الدينية والكتب الدراسية، فهى مع الأسف الشديد، ليست بالوفرة التى تمكن أبناء الأقليات المسلمة من الاستعانة بها من أجل التثقيف فضلا عن تعليم وتعلم الأساسيات. ولا بد هنا من الإشارة بكل تقدير إلى الجهود الواضحة التى بذلتها رابطة العالم الإسلامى فى هذا الشأن.

اختلاف الاحتياجات والمشكلات التربوية باختلاف المجتمعات غير المسلمة :

ترتبط الاحتياجات والمشكلات التربوية ارتباطا رئيسيا بالبنية الأساسية التى يكون عليها المجتمع، ذلك أن النظام التربوى عادة ما يكون نظاما فرعيا ضمن مجموعة من النظم مثل النظام الاقتصادى والنظام السياسى والنظام الاجتماعى.... إلى غير ذلك من نظم يتكون منها المجتمع. وسبل التأثير والتأثر تحكم علاقات هذه النظم بعضها بالبعض الآخر. (٨)

ومن هنا كان من الطبيعى أن يحدث تباين واختلاف بين احتياجات ومشكلات تعانيها أقلية مسلمة فى مجتمع عن تلك التى يواجهها مسلمون آخرون فى مجتمعات أخرى. وإن كان هذا لا ينفى وجود قدر من التماثل والتشابه التقريبى بين بعض وآخر. إن هذا لا ينفى القاعدة التى نقيم عليها حديثنا بل تدعمه وتؤكده، وبيان ذلك أن هناك بطبيعة الحال سياسات متماثلة بين بعض المجتمعات تجاه الأقليات المسلمة مما يماثل بين مشكلاتهم بنفس القدر. وعلى سبيل المثال فهناك سياسة موحدة على وجه التقريب فى المجتمعات الماركسية تجاه المسلمين، ومن ثم فمن المتوقع وجود تشابه بين مسلمى بلد مثل المجر مع احتياجات ومشكلات مسلمى تشيكوسلوفاكيا، وغيرهما من البلاد ذات نفس النظام .. وهكذا.

ويمكن اقتراح ثلاث فئات تنقسم اليها – على وجه التقريب – المجتمعات ذات الأقلية المسلمة وهى :

١- المجتمعات الغربية مثل الدول الأوربية والأمريكية، وهى مجتمعات تسير بصفة عامة على الطريق الرأسمالى اذا تغاضينا عن بعض

اللمسات او النزعات الاشتراكية فى بعض البلدان مثل السويد وانجلترا، والدين الغالب فيها هو الدين المسيحى مع تفاوت فى المذاهب من بروتستانتية إلى كاثوليكية إلى إنجيلية .. وهكذا.

والحركة الاستعمارية التى تعرض لها العالم الإسلامى طوال القرنين التاسع عشر وجزء من القرن العشرين، إنما حملت لواءها كبريات هذه الدول وفى مقدمتها انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. وكان من آثار ذلك نزوح عدد غير قليل من أبناء المجتمعات الإسلامية المستعمرة إليها وهؤلاء بحكم هذا التراث وهذه الوضعية يواجهون مشكلات ذات نوعية خاصة ويحتاجون الى أمور معينة لحل هذه المشكلات.

٢- المجتمعات الماركسية، وفى مقدمتها بطبيعة الحال الاتحاد السوفيتى والصين ثم عدد من البلدان الأوروبية مثل تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغسلافيا والمجر.

فالمسلمون هنا يتعاملون مع اقتصاد تحكمه الدولة وتسيطر عليه مما يجعل من المستحيل بالنسبة إليهم افتتاح مدارس خاصة وبناء أو شراء أماكن لتأدية الصلاة، بينما لا يمنع القانون مثل هذا بالنسبة لمسلمى الدول الغربية.

كذلك نشير إلى ما سبق أن ذكرناه من تعرض الأبناء الى تعليم مضاد للدين فى المدارس بصورة علنية غير مستورة، فالفلسفة الماركسية بتوجهاتها مقرر أساسى فى مختلف مراحل التعليم ولا توجد أدنى فرصة للطلاب المسلمين أن يدرسوا شيئا يتصل بدينهم، بينما يجد المسلمون فى المجتمعات الغربية في سياسة (الحرية

الدينية) ما يمكنهم من الحصول على القدر الذى يستطيعونه من التثقيف الدينى وممارسة الشعائر الإسلامية. ولا أنسى فى هذا المقام تلك الصورة المشرفة التى رأيتها لمسلمى مدينة بوسطن الأمريكية عندما أقاموا صلاة عيد الفطر كعادتهم كل عام، وكان ذلك فى أضخم معهد فى العالم للتكنولوجيا وهو المسمى بـ (M . I . T)، وكان صوت التكبيرات يجلجل بحرية دون اعتراض من أحد.

كذلك من المعروف أن لأى مجموعة من الطلاب أن تكون جماعة خاصة - ومنهم المسلمون بطبيعة الحال - لتمارس النشاط العقدى الذى تريده.

٣- مجتمعات العالم الثالث، ويقع معظمها فى قارتى آسيا بدرجة بسيطة وإفريقيا بدرجة أوضح. أما بلدان أمريكا الجنوبية واستراليا، فالعدد قليل للغاية وهنا نجد أن مظلة التخلف مع الأسف الشديد تظلل هذه المجموعة بحيث تتصدر الاحتياجات والمشكلات الاقتصادية والصحية غيرها من الاحتياجات.

وربما لا نجد لدى بعضها حجرا من الدولة على النشاط الدينى الإسلامى فى المجال التربوى، لكن سوء الأوضاع الاقتصادية - كما سبق أن أسلفنا - يجعل الأقليات هناك (مهمومة) بلقمة العيش بالدرجة الأولى، ويكفى التذكير بتلك الصور بالغة البؤس والمرارة للآلاف فى إثيوبيا مثلا والهند ممن عانوا الجفاف والموت جوعا. وإن كان يمكن أن يفتح سبلا أمام أبنائها لتلافى هذه المشكلات الطاحنة الطاغية. بيد أنه يضعف من هذا الاحتمال أن التعليم القادر بالفعل على تكوين الكفايات العلمية والفنية مكلف وليس سهلا، وفئات المسلمين هنا لا تستطيع تحمل نفقاته، إلا أن يكون تعليما بسيطا لا

يتعدى حدود القراءة والكتابة. وتعليم بهذا القدر من البساطة تكون قدرته ضعيفة على تفجير طاقات أبناء المسلمين وتحويلهم إلى ثروة بشرية ذات تأثير فعال وقوة اقتصادية ذات بال.

كذلك فإن (الجدب الثقافى) العام الذى تعيشه كثير من هذه البلاد، وهو مالا يوجد مثله فى المجتمعات الغربية أو الماركسية، يكون له دوره المخيف فى استمرار حالة (السبات) الفكرى والاسترخاء الثقافى لدى جماعات المسلمين على الأقل بحكم (العدوى).

المؤسسات التعليمية التى يمكن أن تسد الاحتياجات التربوية :

لكى نقف على المؤسسات التعليمية التى يمكن أن تسد الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة ، لا بد أن نحدد أولا ما نقصده بالمؤسسة التعليمية ؟ بل إننا حتى قبل أن نحدد ما نقصده بالمؤسسة التعليمية، لا بد أن نحدد ما نقصده بالتعليم. إن البعض قد يعتبر ذلك (تزيدا) فى الكلام على اعتبار أن أمر (التعليم) واضح للناس لا يكتنفه غموض. لكن هذا غير صحيح .

إن لغتنا العربية بها من الدقة فى تحديد المفاهيم والمعانى، ما ينبغى استثماره من أجل الوضوح الفكرى والتحديد السليم لمجال العمل، ففى اللغة الانجليزية نجد أن كلمة Education يترجمها البعض منا بـ (التعليم) ، والبعض الآخر بـ (التربية) لكننا إذا أردنا الدقة فليس هناك ترادف بين الكلمتين إذ أن المقصود بكلمة (التعليم) يمكن أن يندرج تحت كلمة (التربية)، لكن العكس غير صحيح.

إن التعليم، هو ذلك الجهد المنظم المقصود الذى يبذله فريق من

المتخصصين المؤهلين لتزويد الطلاب بكم من المعرفة والقيم والاتجاهات والمهارات وفق برامج محددة موضوعيا وزمنيا فى مؤسسات خاصة أقيمت لهذا الغرض. أما التربية فهى ذلك الجهد الواعى القائم على بصر من أجل إحداث تغييرات مرغوب فيها فى شخصية المواطن تكسبه (الكفاية الشخصية والكفاية الاجتماعية)، وتسعى دائما إلى المحافظة على ثقافة الجماعة وكذلك إلى تجديدها وتطويرها. (٩)

الأول لا بد أن يتم على أيدى متخصصين محترفين، وهم المعلمون، أما الثانى فليس ذلك ضروريا.

الأول لا بد أن يتم فى مؤسسات متخصصة أقيمت لذلك، أما الثانى فليس ذلك ضرورياً.

الأول لا بد آن يتم وفق برامج محددة زمنيا وموضوعيا، آما الثانى فليس ذلك ضروريا.

إن مثالا واحدا يمكن أن يزيد الصورة ايضاحا ...

فـ (المدرسة) مؤسسة تعليمية تنطبق عليها كافة الشروط التى ذكرناها واصفين بها التعليم ... أما (النادى) - مثلا - فليس كذلك ... إنه مكان مفتوح لكل الأعمار، نستطيع أن ندخله اليوم ولا ندخله بعد ذلك لعدة أسابيع أو حتى شهور... وهو متعدد الوظائف والأغراض بحيث لا نستطيع القول بضرورة قيامه على يد عدد من المتخصصين المتفرغين لوظيفة (التعليم) فقط. إنها يمكن أن تكون إحدى وظائفه، لكنها ليست وحدها، وهذا ما يجعلنا ندخله فى تلك الدائرة الأوسع ... دائرة (التربية).

ومن هنا، فإذا وضعنا الاحتياجات والمشكلات التربوية للأقلية المسلمة أمام نظرنا فسوف نجد أن (المؤسسات التعليمية) وحدها يستحيل

عليها أن تفى بالغرض إذ لا نجد أمامنا إلا المدارس والمعاهد والجامعات مما يمكن تسميته بالمؤسسات التعليمية، ومثل هذه المؤسسات هى غالبا ما تقع فى يد الدولة أو الهيئات الاجتماعية التى تديرها وتضع لها من البرامج ما يجعلها تسير فى اتجاه الأكثرية.

صحيح أن هناك مجتمعات تسمح للأقلية بافتتاح مدارس خاصة بها، إلا أن قيام الأقلية بافتتاح (جامعة) أمر جد عسير وأخشى أن أقول إنه شبه مستحيل فى أغلب الأحوال . كذلك - فكما أسلفنا - هناك مجتمعات لا تسمح بذلك سواء بالنسبة للجامعات أو المدارس، أيضا فإن فرص العمل فى مجتمع الأكثرية غير المسلمة لا تفتح عادة إلا لخريجى معاهد تسير برامجها فى دائرة الاطار العام لهذا المجتمع.

إن هذا يجعلنا نقترح ألا يتجه جهدنا الأساسى إلى ما نسميه بـ (المؤسسات التعليمية) وحدها، وإنما إلى (إلى المؤسسات التربوية)، إذ إن هذا يفتح أمامنا آفاقا واسعة، فنستثمر كل وسيلة ونستغل كل مؤسسة يكون لها دور فى تشكيل شخصية المواطن وذلك مثل (الإذاعة) و (التلفزيون) و (النادى) و (الصحافة)، وأهم من كل هذا وذاك (الأسرة) ... ذلك الوسيط التربوى الأساسى الذى يفوق دوره، دور سائر الوسائط التربوية.

ويمكن أن نطلق على المؤسسات المتخصصة فى التعليم اسم (مؤسسات التعليم المدرسى) دون إن يعنى هذا ربطها بـ (المدرسة) وحدها، وإنما كذلك المعاهد والجامعات، أما تلك المؤسسات ذات الآثار التربوية العامة فيمكن أن نطلق عليها اسم (مؤسسات التعليم اللامدرسى). وكذلك يمكن أن نطلق على الأولى أسم (مؤسسات التعليم النظامى) وأن نطلق على الثانية اسم (مؤسسات التعليم اللانظامى).

إن خروجنا من دائرة التعليم النظامى (المدرسى) - دون إهماله طبعا- واستغلالنا لطاقات التعليم اللانظامى (اللامدرسى) يجعلنا نتلافى الكثير من الأخطاء والثغرات التى أصبح كثيرون يلحقونها فى الأول، مثال ذلك :

- عجز التعليم النظامى عن مسايرة التغير، فضلا عن قيادته والتحكم فيه.

- التركيز على الحفظ والاستظهار فى وقت أصبح الاتجاه فيه يركز على (الكيفية) و (الطريقة)، أو بمعنى آخر على (تعويد) الانسان على المواجهة الذاتية للمواقف والمشكلات بعقل مفتوح وفكر ناقد.

- سيادة بعض المفاهيم الخاطئة عن التعليم مثل : (التعليم يعنى التعليم المدرسى - التعليم هو نقل المعرفة - الحياة مقسمة الى فترتين : فترة التعليم والإعداد للحياة، وفترة العمل - أن التدريس هو العنصر الاساسى فى التعليم - المعلمون لهم حق احتكار نقل المعرفة) ... وهكذا.

التكامل بين مؤسسات التعليم المدرسى ومؤسسات التعليم اللامدرسى :

وإذا كنا قد أكدنا على ضرورة الاستعانة بمؤسسات التعليم اللامدرسى مثل الاذاعة والصحافة والتلفزيون والأسرة والمسجد والنادى وغيرها، إلا أنه من الضرورى أن نضع فى الاعتبار ضرورة أخرى لا تقل عن ذلك أهمية، ألا وهى ضرورة التنسيق والتكامل والاتساق بين جهود مؤسسات التعليم المدرسى ومؤسسات التعليم اللامدرسى.

فإذا كان أبناء الأقلية المسلمة يتلقون فى المدرسة قيما ينكرها ديننا الإسلامى فلا بد أن تسرع الأسرة - مثلا - بتصحيح ذلك الأمر، أما إذا كانت المدرسة تابعة للمسلمين، فلن نجد بطبيعة الحال تناقضا، لكننا نكون أيضا بحاجة إلى عدم اختلاط المعانى والافكار، فقد تقدم المدرسة مفهوما، ويسمع الطفل مفهوما آخر فى الأسرة. وهنا تكمن الخطورة حيث أن المصدرين إسلاميان، فقد يؤدى هذا بالطفل إلى عدم الثقة فى أيهما أو فى كليهما.

إنه لمن العبث الفصل بين التعليم النظامى والتعليم اللانظامى فى أى مجتمع من المجتمعات ذلك لأنه قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن أيا منهما مهما توفرت له فرص وإمكانيات التجديد والإصلاح والتطوير وتنوع المؤسسات وتوفر النماذج، لا يمكن أن يعمل بنجاح فى منأى عن الآخر حتى وإن ادعى كل منهما الاستقلالية عن الآخر، فهذه العلاقة مصيرية متأصلة فى طبيعة العملية وجذورها، عالقة فى مفهوم التعلم الانسانى، وهما متكاملتان متساندتان على نحو مقصود أحياناً وعلى نحو عفوى فى أغلب الأحيان.

إننا لو تأملنا فى وظيفة واحدة -مثلا- من وظائف أجهزة ووسائل الاتصال الحديثة، فسوف نلمس الخطورة الكبيرة التى تتعرض لها الأقلية المسلمة مما يحتم عملية التكامل والتآزر بين كافة الوسائط التربوية لدرء مثل هذا الخطر. فلوسائل الاتصال دور هام فى خلق الدوافع لدى الأفراد، وتلك الدوافع هى التى تلعب الدور الأساسى فى تحريك المواطن نحو هذا العمل أو ذاك. إن وسائل الاتصال والإعلام فى مجتمع مثل الولايات المتحدة الأمريكية (مجتمع الوفرة والاستهلاك) أصبحت تمثل سلطة قوية ومنظمة، بحيث أفقدت الأفراد حرياتهم وقدراتهم على التفكير الناقد.

وفى ذلك الشأن يصف (ميلز) C.W.P Mills المجتمع الجماهيرى Mass Society فى الولايات المتحدة فيقول :(١٠)

- نجد جماعة قليلة من الناس تعبر عن آرائها أكثر مما تتلقى آراء الآخرين ذلك لأن مجتمع الجماهير قد أصبح مجرد تجميع للذين يحصلون على انطباعاتهم من وسائل الاتصال .

- أن وسائل الاتصال منظمة إلى أبعد حد بحيث يصعب إن لم يستحل على الفرد - أى فرد - أن يستجيب مباشرة إلى أى شئ يتعلق بالجماهير دون أن يخضع لأى نوع من التأثيرات.

- أن عملية تحويل الآراء إلى أفعال، خاضعة لتحكم السلطات التى تنظم وتضبط قنوات هذه الافعال.

- أن الجماهير لا تتمتع باستقلال ذاتى عن المنظمات، بل على العكس من ذلك فممثلو هذه المنظمات ينفذون إلى الجماهير مفقدين إياها أى ضرب من الاستقلال قد يتشكل نتيجة للمناقشة.

وللدلالة على خطورة وسائل الإعلام من خلال الأرقام، نضرب المثال التالى :

فقد وجد أن الشخص البالغ العاشرة من العمر فى أوربا يمضى نحو ٢٤ أربعا وعشرين ساعة أسبوعيا فى مشاهدة التلفزيون، أى مايعادل الوقت الذى يقضيه فى المدرسة، أما فى الولايات المتحدة، فيكون الشخص البالغ السادسة عشر من عمره، قد أمضى (١٥,٠٠٠) خمسة عشر ألف ساعة على الأقل من حياته يشاهد التلفزيون.

فإلى هذا الحد، أصبح نظام الإعلام والاتصال فى أى مجتمع من المجتمعات، متقدمها وناميها مؤثرا فعالا فى مجريات أمور هذا المجتمع،

وعليه، إذا اعتبرنا أن ثقافة المجتمع تعتبر كيانا ديناميكيا فى عمليات الخلق والمحافظة والنشر، فإن من المنطق أن يكون هناك كيانان آخران يكمنان فيهما من خلال وثاقة العملية التى يتمتعان بها بالنسبة لعملية التنمية وهما التعليم والاتصال، التعليم لكيان يحافظ على الثقافة ويضع أسس الخلق الذى يريدها، والاتصال ينقل التعليم ويتيح الفرصة للمشاركة فى الوحدة الثقافية. (١١)

دور المؤسسات التربوية :

لعلنا بعد استقراء الاحتياجات والمشكلات التربوية الخاصة بالأقليات المسلمة نستطيع أن نقف وعلى الفور على الدور الذى يمكن أن تقوم به المؤسسات التربوية من أجل سد هذه الاحتياجات وسعيا نحو مواجهة هذه المشكلات، لكننا بالإضافة إلى ما سبق، نريد أن نستند إلى عدد من (التقارير) والواقعية فى التأكيد على بعض المهام الضرورية فى هذا الشأن

١- فنحن نؤكد هنا على أهمية توفير قاعدة مناسبة من الظروف الاجتماعية والاقتصادية للأقليات المسلمة لما لهذه الظروف من أهمية قصوى فى رفع المستوى الثقافى وعلى سبيل المثال ففى الإحصائيات الرسمية الفرنسية والتى نشرتها منظمة العمل العربية جاء أن أكثر من ٥٦٠ ألف عامل مهاجر - معظمهم من المسلمين - يعيشون فى بيوت من القصدير والأحياء المتهدمة. واعترف تقرير المعهد العالى للإحصاء بأن هذه المساكن هى من أحقر وأقذر المساكن البشرية .. ويؤكد أن ٢٥٠ الف عامل مهاجر يعيشون مزدحمين فى بيوت لا تحتوى على الماء، وفى ظروف سكنية صعبة جداً.

وأكدت احصاءات سنة ١٩٧٥ م أن اكثر من ٣٢ ٪ من العمال العرب بفرنسا يعيشون الظروف نفسها، وتذكر إحصاءات المعهد العالى للدراسات الاقتصادية والاجتماعية الفرنسية - كما جاء أيضا فى نشرة منظمة العمل العربية - أن ٣٠٪ من الجزائريين لا يملكون الماء فى بيوتهم و ٦٨٪ من بيوتهم خالية من التدفئة المركزية و ٨٥,٦٪ يعيشون فى بيوت مزدحمة أكثر من اللازم.

وتمضى النشرة فى دراستها قائلة (أن الذى ضاعف من حدة هذه الأزمة ظهور فئة جديدة من التجار المستغلين أطلق عليهم اسم (تجار النوم) ، فقد قام هؤلاء التجار بتأجير المبانى والمخازن القديمة وغير الصحية للعمال المهاجرين ليسكنوها وغالبا ما تكون قاعات النوم على شكل عنابر كئيبة تتنافى مع أدنى الشروط الصحية او الانسانية. (١٢)

ولكى نقف على الآثار الثقافية لمثل هذه الظروف، ينبهنا مسئول جزائرى فى تلك الفترة (أن هذا ينعكس على العلاقات بين الأفراد وبخاصة على الأطفال، فهناك ٢٢٥ الف جزائرى تقل أعمارهم عن الـ ١٦ سنة، وبين هؤلاء ترتفع نسبة الجانحين، إذ أنهم يضطرون إلى هجر دراستهم . (١٣)

لكننا نحمل المؤسسات التربوية فوق طاقاتها إذا قلنا أنها تستطيع مواجهة هذه الأوضاع وحدها، ذلك أن مواجهة هذا إنما يدخل فى نطاق (الدول العربية والإسلامية وكذلك المنظمات العربية والإسلامية فى وطننا الكبير).

٢- وهناك فئات من الشباب تذهب الى الدول الغربية، من أجل الدراسة ثم لا تعود إلى أوطانها. واذا كان هؤلاء فى تصرفهم هذا يخطئون

فى حق بلدهم الا أننا نخطئ خطأ أفدح عندما نهمل شأنهم ونعاملهم كأبناء عاقين. ذلك أن أطفالهم يقعون فريسة مشكلات ثقافية تؤدى فى النهاية إلى قطع أية صلة بينهم وبين الوطن الأم. ويروى أحد الصحفيين أن زوجة، مبعوث عربى مسلم إلى فرنسا تحدثت إليه تشرح لماذا يلعب طفلها وحده فى ركن من أركان المكان المخصص للأطفال فى حديقة (التويلرى) بباريس :

«لقد جئنا إلى بباريس، و (محرم) فى الرابعة من عمره، أدخلناه مدرسة الأمومة بالحى، وهى المدرسة التى تلى فى الترتيب (روضة الأطفال)، وتسبق المدرسة الابتدائية قبل أن نغترب، كان (محرم) دائما بين أبناء عمومته وأبناء أخواله وخالاته. لقد افتقد الطفل هذه الصحبة بعد وصولنا إلى باريس، ولهذا فقد كان مقبلا على مدرسة الأمومة بفرحة الطفل العائد إلى رفاق اللعب، لكنه لم يجد هناك بالطبع رفاقه القدامى. وجد أطفالا لا يفهمون لغته، وكان يظنهم يرفضون اللعب معه، لكنهم لم يفهموه فحسب .. ».

- لكن اعتقد أن الأطفال لديهم قدرة على خلق شكل من أشكال التفاهم التلقائى الذى قد يتجاوز حاجز اللغة.

- غير صحيح أن. الطفل لا تربطه بالعالم إلا الكلمات، الألفاظ. عندما كان يتقدم من رفاقه مادا إليهم يديه محدثا إياهم بالعربية، كانوا أحيانا يقابلونه بالتجاهل وأحيانا بالعنف العدوانى... هو بالنسبة إليهم طفل غامض ما دام من أرض عربية.

- كيف كان رد الفعل لدى طفلك ؟

- كان فى البداية يحاول أن يشدهم إليه، يشدهم من ملابسهم أو من

أيديهم، أحيانا كان يكتفى بأن يسير وراءهم من مكان إلى مكان عبر حديقة المدرسة بعد ذلك بدأ يتشاجر معهم، ويعتدى عليهم بدون مبرر.

– هل نمت لديه وتأصلت هذه النزعات العدوانية ؟

– لقد بلغت حدا مزعجا أدى بإدارة المدرسة أن تتصل بى – الأم – وبزوجى لنناقش معهم الموضوع، قالوا لنا أن (محرم) يعتدى على زملائه وزميلاته. هناك فترة نوم إجبارية فى مدرسة الأمومة كل يوم عند الظهر .. لكنه يرفض النوم بل يخلع حذائه ويبدأ فى ضرب الأطفال النائمين الذين يصرخون من ألم الضربات أو من مجرد الفزع.

– كيف كان التصرف ؟

– قررنا ألا نتركه فى المدرسة إلا نصف الوقت فقط، إلى أن يتعود على الجو الجديد .. ونعود، واختفت النزعات العدوانية، لكن حل محلها ميل واضح إلى الانطواء والعزلة. (١٤)

إن هذه الصورة (الميكروسوبية) المفصلة توقفنا على ما يجب القيام به من قيام (مكاتب) خاصة للخدمة الاجتماعية والنفسية تابعة للمؤسسات التربوية أو السفارات والقنصليات الإسلامية، ذلك أن ترك هؤلاء يغوصون فى هذه المشكلات لا بد أن يؤدى إلى فقدهم دينيا وثقافيا ويكونون صيدا سهلا للمؤسسات الصهيونية والإلحادية وما أشبه.

٣– وفى دولة إفريقية مثل (ليبيريا) كان ٩٠ ٪ من سكانها مسلمين، ولكن حين قدم زنوج الولايات المتحدة إليها فى منتصف القرن الماضى كانوا جميعهم قد اعتنقوا المسيحية وانفرد هؤلاء بالسلطة والنفوذ السياسى والاقتصادى والثقافى فى البلاد، بل إنهم أحالوا أهالى البلاد الأصليين من المسلمين إلى غرباء وهم أصحاب الأرض الشرعيين.(١٥)

فلقد قاموا بأكبر حركة اضطهاد للمسلمين من سكان البلاد الأصليين، وصادروا حقوقهم، ومارسوا ضدهم التفرقة العنصرية، بل إن أخطر مايمكن قوله، أنه قد تم تحويل عدد من القبائل المسلمة الى اعتناق المسيحية، وذلك لأن النشاط التبشيرى اعتمد على أن السلطة الفعلية فى البلاد فى يد قيادة مسيحية، بالإضافة إلى الوسائل المادية الهائلة التى تملكها وسائل التبشير، ومن هنا فقد وقف النمو الإسلامى فى تلك البلاد وظهرت الكنائس التى لم يكن يسمع عنها من قبل وشاهد القوم رجال الكهنوت من المسيحيين فى طول البلاد وعرضها، بل إن الأناجيل توزع مجانا على طبقات الشعب المختلفة. (١٦)

ولا بد من الإشارة إلى أن الصحوة الإسلامية الحالية قد عرفت طريقها إلى هذه البلاد، فقام نشاط تعليمى إسلامى عظيم، لكن الواجب الإسلامى وحق الأخوة الإسلامية فى السراء والضراء يضع أمام المسلمين فى عالمنا العربى والإسلامى، بل المسؤلين فى رابطة العالم الإسلامى والأزهر والرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد فى المملكة العربية السعودية ووزارت الأوقاف فى البلاد العربية والإسلامية مسئولية خاصة نحو أبناء الإسلام فى ليبيريا وغيرها من المناطق التى تعيش ظروفا مماثلة، من أجل مد يد العون المادى والروحى والمعنوى من أجل تحقيق النهضة الإسلامية المرجوة.

كذلك فإن الجامعات العربية والإسلامية مدعوة بتخصيص المنح الدراسية لأبناء ليبيريا وإرسال العديد من الكتب الإسلامية باللغة العربية والإنجليزية إلى مسلمى تلك الأنحاء وتقديم المساعدات للمشاركة فى بناء المساجد والمدارس الإسلامية، وإرسال الدعاة والمدرسين والأطباء والمهندسين. (١٧)

٤- أما بالنسبة للمسلمين فى الاتحاد السوفيتى، فإنهم يحتاجون إلى نوعية أخرى من الجهود نظر لظروفهم الخاصة*.

ففى مجتمع الشباب يلقنون منذ دخولهم روضة الأطفال مناهج تعليمية مبنية على إنكار الله تطبيقا لنص الدستور، حتى إذا ما وصلوا إلى المرحلة الجامعية، فإنهم يدرسون تاريخ الحزب الشيوعى بعمق وتفصيل، ويختمون تعليمهم فى السنة الرابعة بدراسة علم الإلحاد المبنى أساسا على نقص الاديان وإنكار وجود الله.

ولا بد أن يؤدى استمرار هذا النهج على مدى ستين عاما، مدعوما بكافة وسائل الإعلام والتثقيف إلى إحداث تغيير شامل فى البناء الفكرى والنفسى لدى أجيال الشباب فى مجتمعات المسلمين. وقد تحقق ذلك بقدر لا ينكر بتأثير هذه المناهج أولا، ثم نتيجة للإغراءات والامتيازات التى يحصل عليها الطلاب إذا ما انخرطوا فى سلك الحزب فأعضاء الكومسمول ومنظمة الشبيبة الشيوعية لهم الأولوية فى الالتحاق بالجامعات والمعاهد، أما غيرهم فليس لهم الحق فى الاشتراك فى النشاطات الطلابية المختلفة، ولا مجال أمامهم بعد التخرج إلا فى نطاق الوظائف العادية.

لكن ثمة قطاع آخر من المسلمين لا يزال أشد حرصا على دينهم، معتصم به فى مواجهة كافة العواطف والأنواء، وهؤلاء هم الذين يصدق فيهم الوصف الذى ورد فى الحديث الشريف، (القابضون على الجمر) (١٨). هؤلاء هم الذين يرسلون أبناءهم الى بلدة (نمانجن) الاوزبكية ليقيموا عند حفظـــة القرآن هناك، يحفظون ويتلقون منهم القدر الممكن من الثقافة الدينية، وأمثالهم هم الذين نذروا أنفسهم لهذه الرسالة، أن يظل القرآن الكريم على الأقل محفوظا فى قلوب المسلمين وعلى ألسنتهم، وليس فقط فى المصاحف المخطوطة التى تحتفظ بها الأسر القديمة.

---

* نذكر القارئ بأن هذه الدراسة تمت قبل انهيار الاتحاد السوفيتى.

وهؤلاء هم الذين يوفدون أبناءهم إلى معهد بخارى الدينى بعد مرحلة التعليم الإبتدائى ليقضوا هناك سبع سنوات ينتقلون بعده إلى معهد طشقند العالى فى دراسة لمدة اربع سنوات أخرى وليتخرجوا بعد ذلك خطباء ووعاظا وقراء، وهم صابرون على ذلك رغم أنه من غير المعقول أن يكون عدد المسلمين ٤٠ مليونا وأن تخصص لتعليم الدين لأبنائهم مدرستان فقط لا تستوعبان أكثر من ١٠٠ طالب فى كل صفوف الدراسة.

وهؤلاء هم الذين يمولون كافة صور النشاط الدينى التى لا تقدم لها الحكومة أى عون مالى، رغم أنها وضعت يدها على الأوقاف التى كانت تؤدى هذه المهمة، هؤلاء يقدمون تبرعاتهم ويعتبرونها زكاة - إلى المساجد ، وتجمع حصيلة التبرعات ثم توزع على خمسة مصارف : نفقات المسجد ، والصيانة وراتب الإمام - نفقات الإدارة الدينية بموظفيها ونشاطاتها المحلية، مثل إدارة المعهدين الدينيين ودفع رواتب شهرية لطلابها - العلاقات الخارجية للمسلمين السوفييت، المؤتمرات والوفود وغيرها - ثم يقتطع من هذه التبرعات أيضا (سهم) يرسل إلى الحكومة يضم إلى ميزانية الآثار القديمة، وسهم خامس وأخير تحصل عليه الحكومة يوضع تحت بند : أمن وسلام العالم .. (١٩)

والطلاب الذين يصرون على دراسة الدين فى معهدى بخارى وطشقند يدفعون من روابتهم (ضرائب) للدولة، يسمونها (نالوج) أى عقوبة أو جريمة باللغة الروسية، وبواقع راتب شهرين فى السنة. والمبرر الذى تبرر السلطات به هذه الضريبة هو أن الفرد فى المجتمع السوفيتى لا بد أن يؤدى عملا منتجا لأنه فى مقابل ذلك يتلقى خدمات مجانية فى التعليم والعلاج، ويدفع أجرا رمزيا للسكن، والذين يتعاطون (مهنة الدين)، طلابا كانوا أم خطبأ ووعاظا، هؤلاء يصنفون باعتبارهم أعضاء غير منتجين فى المجتمع، وعليهم

أن يدفعوا للدولة ما يشـــبه التعويض لأنهم باختيارهم هذا أصبحوا يستفيدون ولا يفيدون.

وبالطبع فإن مد يد المساعدة لهؤلاء المسلمين بطريق مباشر قد يكون أمرا عسيرا فى الاتحاد السوفيتى ولا سبيل هنا إلا عن طريق الإذاعات الإسلامية بأن توجه إليهم برامج خاصة لتدعيم ثقافتهم الدينية.

وهناك سبيل آخر يمكن لمثل هذه البرامج أن تقوم به غير التثقيف الدينى واللغوى، وهو التأكيد دائما على أهمية (تكثير النسل) حيث يتوفر والحمد لله لدى المسلمين هناك إحساس بأن تلك وسيلة ضرورية فى سبيل المقاومة، يدلنا على ذلك ما نشرته مجلة (أنباء موسكو) فى يونيه ١٩٧٩م من أن عدد سكان روسيا الاتحادية زادوا بنسبة ٦٪ من عام ١٩٧٠ - ١٩٧٩ ، بينما زادت نسبة السكان المسلمين فى جمهورية طاجيكتان ٣١٪ ، وكانت نسبة الزيادة فى اوزبكستان ٣٠٪ وتركمانيا ٢٨٪، أى أن نسبة زيادة السكان المسلمين كانت خمسة أضعاف الزيادة بين الروس. (٢٠)

٥- وإن المسابقة الدولية التى تقيمها المملكة العربية السعودية لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره لمثل طيب لا بد من أن تحتذى به الدول الإسلامية الأخرى وتتوسع فيه وتشرك فيه أبناء الأقليات الإسلامية، ومما يؤكد لنا ذلك ما نقرأه، فى السطور التالية لطالب مسلم فى الحادية العشرين من عمره، يدرس فى كلية الهندسة فى كوبنهاجن بالدانمرك اشترك فى المسابقة الدولية السابعة : (إن امكانياتى قليلة بالنسبة لمعرفة اللغة العربية والتكلم بها.. ولكن حبى للإسلام ورغبتى الملحة فى تلاوة القرآن الكريم هما من الدوافع التى تدفعنى لدراسة اللغة العربية لانها لغة القرآن الكريم. وقـــد أعاننى الله على تـــلاوة القرآن الكريم وحفـــظت جزءا منه بالإضافة إلى تجويد الجزء الآخر.

وروى ذلك الشاب أن الحياة فى الدانمرك حياة مادية بحتة خالية من مبادئ الإسلام، ولا يوجد من المدارس الدينية سوى مدرسة واحدة لتعليم المسلمين، وأكد أن ثلاثمائة وأربعين دانمركيا قد أشهروا إسلامهم. (٢١)

وإذا كان هذا الشاب قد استطاع بظروفه الأسرية أن ينجح فى ذلك إلا أنه من العسير الاعتماد على هذا السبيل بالنسبة للجميع. إن المراكز الإسلامية، وخاصة فى أمريكا تفتقر إلى الموجهين الإسلاميين ومعلمين لحفظ القرآن وتجويده، يقول هذا الشاب «ولذلك فنحن نشعر بصعوبة المسابقة السنوية الدولية .. التى تقام فى المملكة . والمسابقات المحلية التى تقام فى بعض الدول الإسلامية الأخرى .. ولذلك أرجو أن ترسل الدول الإسلامية الأساتذة والموجهين ومعلمى القرآن الكريم لتحفيظ القرآن الكريم وتجويده، وتفسيره إلى المراكز الإسلامية فى الخارج» (٢٢) .

٦- إن الاخوة المسلمين فى الأقطار العربية وغير العربية لا يعرفون الكثير عن مسلمى يوغسلافيا، فجامعة (بلغراد) تهتم بدراسة اللغة العربية وبها قسم للدراسات الشرقية، إلا أنها فقيرة فى الكتب والمراجع العربية، بل إن المسلمين هناك لا يحصلون على أية صحيفة أو مجلة عربية مما يجعلهم تواقين إلى ذلك ويرجون المؤسسات والمنظمات الإسلامية أن تسعفهم ببعضها حتى يكونوا على اتصال دائم بإخوانهم المسلمين فى الأقطار الاخرى.

لقد قال طالب يوغسلافى مسلم يدرس العربية وآدابها لبعثة صحيفة كويتية :«أليس غريبا أن تصل الكتب العربية إلى أثينا، عاصمة اليونان، وتقف عندها ؟ إذ المسافة بين اثينا وبلغراد العاصمة - لا تزيد عن نصف ساعة».

ويعلق أحد أعضاء البعثة بأن كلام الطالب صادق، فقد جئنا إلى بلغراد عن طريق اليونان، وفى ميدان سينتاجا، أكبر ميادين العاصمة اليونانية كانت الكتب والمؤلفات والصحف العربية تحتل مكانا بارزا فى أكشاك بيع الصحف والمكتبات وعلى مدى أسبوعيـــــن كاملين بين بلغراد وسراييـــــفوا، لم نجـــد صحيفة عربية واحـــــدة فى أى مكان. (٢٤)

هل نحن فى حاجة إذن الى التأكيد على المكاتب الثقافية والإعلامية للدول العربية أن تقوم بهذا الواجب البسيط ؟

٧- تمتاز الثقافة الإسلامية أينما كانت وحيثما وجدت، بوحدة الجذور والينابيع واتفاق المقاصد والغايات. ولكن هذه الثقافة الواحدة اتسمت بتعدد خصوصياتها وتلون أشكالها كنتيجة طبيعية لاتساع رقعة العالم الإسلامى جغرافيا، وتنوع مجتمعاته بيئيا، وتباين أنظمته السياسية والاقتصادية، فضلا عن تباينه عن المجتمعات الأخرى غير الإسلامية والتى تعيش بها أقليات إسلامية. (٢٥)

وهكذا فان أية أستراتيجية ترمى إلى توثيق عرى الوحدة بين المسلمين وتحقيق تلاحمهم، لا بد أن تتخذ الوسائل الكفيلة باطلاع شعوبهم على الخصوصيات الثقافية التى تميز بعضهم عن بعض والسبل اللازمة لتنشيط التفاعل الثقافى بينهم، وبذلك تبنى وحدة الأمة الإسلامية على أسس نوعية من التعارف والتفاهم والتثاقف عملا بقوله تعالى : (يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وتلعب اللغة دورا رئيسيا فى عمليتى التنمية الحضارية والتبادل الثقافى لا لكونها أداة اتصال وثيق تعبر بواسطتها عن المفاهيم والأفكار

والقيم، وتحفظ بها التراث الثقافى والعلمى فحسب، وإنما كذلك بوصفها عنصرا جوهريا من العناصر المكونة للثقافة والفكر تتجاوز أهميتها التعبير إلى التغيير بحيث تؤثر القوالب اللغوية فى البنيات الفكرية، والأنظمة المفهومية والأنماط السلوكية للجماعة الناطقة باللغة. ولهذا أولت المجتمعات المعاصرة المتطورة تخطيط السياسة اللغوية اهتماما بالغا وعناية خاصة فشجعت البحوث المتعلقة بها ، ونما نتيجة ذلك علم جديد مشترك بين علوم الإجتماع والسياسة واللغة وأطلق عليه اسم (علم اللغة الاجتماعى)، موضوعه التنوع اللغوى فى المجتمع الواحد، وهدفه تخطيط السياسة اللغوية بصورة موضوعية وطريقة علمية. (٢٦)

وقد أفرز الوضع اللغوى للمسلمين فى الأقطار غير العربية نتائج خطيرة على توجهات الأمة الإسلامية مما يستوجب استنفار جهود كافة المؤسسات والمنظمات والجامعات الإسلامية لتقديم خبرتها ومشورتها فى هذا الشأن وضرورة تشجيع تعلم لغة إسلامية عالمية لعموم المسلمين تكون لغة تفاهم مشتركة بينهم ووسيلة اتصال بينهم وبين سائر البلدان الإسلامية. ولا حاجة بنا إلى القول بأن اللغة التى توفرت لها مقومات تأدية هذه الرسالة هى لغة القرآن الكريم التى يصلى بها المسلمون ويؤدون بها شعائر دينهم، والتى غدت بفضل الرسالة الإسلامية التى تحملها لغة عمل فى المنظمات الدولية والمحافل العلمية. (٢٧)

وإنه ليحضرنا فى هذا المجال الإشارة إلى بعض البلاد التى تدخل فى نطاق الدول العربية الإسلامية، ومع ذلك توجد بها مناطق واسعة لا يشكل المسلمون بها أغلبية ويحيط بهم مناخ ثقافى يبعدهم كثيرا عن المناخ الإسلامى، ونسوق مثالا على ذلك (جنوب السودان) ، ففى بحث خاص بهذا الشأن يشير الى أن فى المديريتين الاستوائيتين ٤٣ مدرسة ابتدائية تسير

فيها الدراسة باللغة الانجليزية مقابل ٢٠ مدرسة فقط تسير فيها الدراسة باللغة العربية (ومثل هذا الأمر فى المرحلة المتوسطة). (٢٨)

وفى كامل الإقليم يسير التعليم الثانوى باللغة الانجليزية باستثناء أربع مدارس فقط تعلم باللغة العربية.

إن هذا الوضع قد شكل بيئة مناسبة للجهود التبشيرية والغربية أن تبث عقائدها وقيمها واتجاهاتها وأفكارها مما يجعل الحاجة ماسة إلى أن تمد الدول الإسلامية الأخرى القادرة يد المعونة لتوفير وسائل التثقيف والتعليم العربى لمسلمى مثل هذه المناطق.

٨- وأخيرا فإنه مما يرتبط بما سبق توجيه الانتباه إلى فئات أخرى تذهب إلى الإقامة والهجرة إلى الخارج - خارج العالم الإسلامى - وتكون على علم باللغة العربية، حتى إذا جئنا إلى جيلهم الثالث من الأبناء، نجد نسيانا كاملا للغة العربية، ومثالنا هنا هو ما حدث بالنسبة لمسلمى استراليا. (٢٩)

إذ يسعى العرب إلى فتح المدارس العربية هنا وهناك .. وفى عام ١٩٧٧ م كانت توجد ثلاث مدارس عربية تديرها أربع راهبات لبنانيات يتعلم بها ٤٢٠ طفلا من المسلمين والمسيحيين اللغة العربية والإنجليزية والفرنسية. وفى كل عام ترفض إدارة المدرسة أكثر من مائة تلميذ جديد لعدم توفر الاماكن.

وفى مسجد (لاكنبه) بدأ تعليم العربية فى فصول مكشوفة حتى تم بناء المسجد فهل يمكن المحافظة - على تعليم اللغة العربية بصفة مستمرة ومستديمة فى استراليا؟ إنها أمنية الجميع، ولكن الواقع شئ آخر، والذوبان اللغوى أمر يصعب تداركه إلا بافتتاح مدارس خاصة

عربية استرالية رسمية معترف بها لأن مقررات المدارس النظامية الأسترالية الحالية وواجباتها ترهق الطفل إرهاقا كبيرا، فما بالك لو أضفنا له لغة جديدة، عليه أن يدرسها فى إجازاته وعطلاته؟ ... إنه إرهاق كبير.

وبعـــــــد ..

ان الاحتياجات كثيرة .. والمشكلات متعددة .. والثقافة متغيرة ومتطورة تحتاج من المؤسسات التعليمية أن تلهث وراءها حتى تستوعبها وتستجيب لمعطياتها وتجتهد فى تطويرها وتوجيهها ...

الهـــــوامش

١- Edwin K. Townsend Cales : Adult Education in Develping Countries, Pergman press, Oxford, 1977, P. 18 .

٢- أحمد زكى صالح : علم النفس التربوى. القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٥ ، ص ٣٣٠ .

٣- المرجع السابق . ص ٣٣١ .

٤- سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٠ ، ص ٣٠ .

٥- المرجع السابق . ص ٣١ .

٦- جون ديوى : التربية فى العصر الحديث، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد ومحمد حسين المخزنجى، القاهرة، النهضة العربية ، ١٩٤٩ ، ص ١٤٧ .

٧- فيليب . هـ. فينكس : التربية والصالح العام، ترجمة محمد الغزاوى، ويوسف خليل، القاهرة، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٦٥ ، ص ١٥٤ .

٨- Tom Lovtt : Adult Education Community development and the Working Class. Ward Lock Educational, London, 1975,P.20.

٩- Ivor Morrish : Aspects of Educational Change, George Allen, Unwin, London ,1976 , P. 20 . .

١٠- بوتومور : الصفوة والمجتمع، دراسة فى الاجتماع السياسى، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧ ، ص ١٤٩ .

١١- عبد الله أبو طبانة : تكامل التعليم المدرسى والتعليم خارج المدرسة، مجلة التربية الجديدة، العدد الثلاثون، (عدد خاص)، بيروت، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، سبتمبر / ديسمبر.

١٢- مجلة الوطن العربى ، باريس، العدد ١٦ الصادر فى يونية ١٩٧٧ .

١٣- المرجع السابق.

١٤- الوطن العربي العدد ٤٦ ، يناير ١٩٧٨ .

١٥- عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والمسلمون فى ليبيريا، مجلة التضامن الإسلامى، تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة، السنة الأربعون الجزء الأول رجب ١٤٠٥ هـ -٣ ابريل ١٩٨٥ ، ص ٥٨ .

١٦- المرجع السابق - ص ٥٩ .

١٧- المرجع السابق - ص ٦٢ .

١٨- فهمى هويدى : استطلاع مصور عن (المسلمون فى الاتحاد السوفيتى)، مجلة العربى الكويتية، يناير ١٩٨٠ ، العدد ٢٥٤ ، ص ١٠٣ .

١٩- المرجع السابق - ص ١٠٤ .

٢٠- المرجع السابق ص ٩٠ .

٢١- مجلة التضامن الإسلامى، السنة التاسعة والثلاثون، الجزء الثانى عشر، جمادى الثانية ١٤٠٥ هـ - مارس ١٩٨٥ ، ص ٥٠ .

٢٢- المرجع السابق - ص ٥٩ .

٢٣- المرجع السابق - ص ٦٠ .

٢٤- مجلة العربى الكويتية، العدد ٣٣ ، ابريل ١٩٧٨ .

٢٥- علي القاسمى : تنمية اللغات الإسلامية وأثرها فى وحدة الفكر الإسلامى، مجلة معهد اللغـة الـعربية ، جامـعة ام الـقرى، مكة المكرمة، العدد الثانى ١٤٠٤ هـ - مارس ١٩٨٥، ص١٧ .

٢٦- المرجع السابق - ص ١٨ .

٢٧- المرجع السابق - ص ١٩ .

٢٨- عبد العزيز الجلال :التعليم واللغة العربية فى جنوب السودان ، المرجع السابق، ص ٣٨١

٢٩- مجلة العربى الكويتية ، العدد ٢٢٩ ، ديسمبر ١٩٧٧ م .

تعليم الرياضيات فى تراثنا الحضارى *

مقدمة :

تؤكد الدراسة التاريخية لحركة الحضارة فى مختلف الأزمنة أن هناك علاقة طردية بين درجة التطور الحضارى ودرجة ازدهار العلوم الرياضية، فحيثما كشف البحث عن درجة عالية من التقدم الحضارى وجدنا كذلك درجة عالية من التقدم الرياضى.

كما تبين الدراسة التاريخية للرياضيات أنها لم تكن ذات طبيعة عالية أو مطلقة، بل كانت تخضع لقوانين التطور والتأثر من ثقافة الى أخرى شأنها فى ذلك شأن الفنون والعلوم الأخرى، فالرياضيات فى الماضى تأثرت بالثقافات التى نشأت من خلالها باعتبارها ثقافة فرعية لثقافة المجتمع الذى نشأت فيه، كما أنها تأثرت جزئيا بطبيعة المادة ذاتها. (١)

وعندما نجد من الأدلة والبراهين ما يؤكد ازدهارا فى العلوم الرياضية مرتبطا بازدهار مماثل فى التقدم الحضارى، فمن المنطقى أن يرتبط هذا وذاك بدرجة عالية أخرى فى عملية «التعليم» الرياضى، ذلك أن المعرفة العلمية بطبيعتها ذات طبيعة «تراكمية»، بحيث إذا رأينا فكرة أو نظرية رياضية قال بها هذا العالم أو ذاك، فمن المرجح أن يكون هذا العالم أو ذاك قد «تعلم» سواء كان بجهده الذاتى فى القراءة أو السماع أو المشاهدة عن الجهود السابقة، كما أن هناك آخرين بطبيعة الحال سوف (يتعلمون) هذه الفكرة أو تلك النظرية ويدخلون عليها ما توصلوا إليه من إضافات وتعديلات، ودراستنا الحالية معنية بالدرجة الأولى بهذا الجانب بالذات من تطور العلوم الرياضية ألا وهو مايتصل (بتعليمها) و (تعلمها).

---

* الكتاب السنوى في التربية وعلم النفس ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٧

وذلك لسببين :

أولهما ، أننا رجال تربية وتعليم ومن ثم فان من الطبيعى أن يكون التفاتنا الأكثر إلى الجانب (التعليمى)، وكذلك فإن هذه السلسلة ذات وظيفة (تربوية) بالدرجة الأولى من حيث تخصصها فى نشر الأبحاث والدراسات (التربوية).

ثانياً : أن الجهد الأكثر من التأريخ العلمى لحضارتنا العربية الإسلامية كان ينصب فى الغالب والأعم على (المحتوى) خاصة بغرض إبراز أننا (أصحاب فضل) على الحضارات الأخرى .

وإذا كنا لا نستطيع أن نهمل هذا الجانب، إلا أن تركيزنا سوف يتجه إلى «الطريقة» وإلى «الشكل» .

ولعل هذا قد يريح من تأخذهم الدهشة للوهلة الأولى متسائلين كيف لمثلنا أن يقرب هذه الدائرة ونحن لسنا من أصحاب الرياضيات ؟

التعليم الرياضى فى الحضارة المصرية القديمة :

فمنذ آلاف السنين، عندما نشأت مدن المعابد (مثل منف أو طيبة) استحال على الكهنة أن يعتمدوا على ذاكرتهم فى تسجيل أعداد الداخلين إلى المعبد أو الخارجين منه، ومن هنا نشأت الحاجة إلى التسجيل، وهذا بدوره أدى إلى تعود الإنسان على فكرة العد ،[٢] ومن ثم الحاجة إلى تعليمه وتعلمه.

وقد يسر للرياضيات المصرية القديمة سبيل التطور والتعلم والتعليم، عاملان : عامل قديم، وهو اهتداء أصحابها إلى تصوير رموز مفردة بسيطة عبروا بها عن العشرات ومضاعفاتها، أى المائة والألف وعشرة الآلاف ومائة

الألف وألف الألف (أى المليون) منذ أوائل عصورهم التاريخية خلال القرن الثانى والثلاثين قبل ميلاد المسيح على وجه التقريب، وذلك على خلاف ما جرى عليه أغلب أصحاب الحضارات الكبيرة الذين عاصروا المصريين وأعقبوهم، والذين اعتادوا على أن يعبروا عن مضاعفات العشرات الكبيرة بكلمات هجائية، يتكون كل منها من عدد من الحروف والمقاطع الصوتية، خلال عصور طويلة من تاريخهم القديم (٣).

أما العامل الآخر، فيتصل بما تكبده المصرى القديم من خوف وقلق إزاء بعض الظواهر الطبيعية الخارقة، فظاهرة فيضان النيل، وما تمثله من إغراق الأرض الزراعية بالمياه ثم الانحسار عنها قد أثارت مشكلات عديدة فى المجتمع الزراعى القديم مما اضطر القائمين بالأمر إلى تحديد وحدات طولية ومساحية، حتى يمكن إعادة تقسيم الأرض بين الفلاحين وتقدير الضرائب المستحقة عنها، وقد دفعت مطالب الحياة اليومية إلى ابتكار مقاييس محددة للموازيين والمكاييل. أما ظاهرة الموت، فقد فكر الانسان المصرى القديم فى مقاومتها بافتراض وجود حياة أخرى وما تلا ذلك من بناء المقابر الهرمية الضخمة وما تتطلبه من تقدم فى العلوم الرياضية (٤).

ويؤكد بعض المؤرخين أن تراث المصريين القدماء لم يسعفنا حتى اليوم بما يمكننا من معرفة الطريقة التى كان التلاميذ من أسلافنا يتعلمون بها (الحساب) و (المساحة والهندسة) وسائر المواد الرياضية، وليس بين أيدينا سوى كتاب وضع للمتقدمين، ولم يوضع للمبتدئين(٥). والكتاب يحتوى على خمسة أبواب، تضم سبعة وثمانين مسألة موزعة بين تلك (الأبواب)، فالأول فى العد وكتابة الأرقام، والثانى فى القواعد الأربعة، والثالث فى الكسور، والرابع فى الربع والجذر التربيعى، وحل المعادلات والمتواليات ، والخامس فى الهندسة.

وفى باب الرياضيات بقى لنا من تراث المصريين كتاب آخر يعرف عند العلماء الباحثين باسم (قرطاس أنسطاسى رقم ٤) يرجع تاريخه إلى عصر متأخر، وفيه نوع من الجدل الحسابى، مثار حول مناقشة بعض المسائل الحسابية، نسوق منها على سبيل المثال ما يأتى : كم عدد اللبنات اللازمة لبناء محدد نعرف حجمه ؟ كم عدد العمال اللازمين لنقل مسلة معروف حجمها وارتفاعها ؟ وكم عدد من يستطيعون إقامتها فى زمن مداه ست ساعات ؟ (٦)

ذلك كل ما اجتمع بين أيدى بعض الباحثين من كتب فى الرياضيات، وهذا مجمل ما احتوت عليه من معلومات ومعارف، ولكنها جميعا - فيما يؤكد البعض - لا تهدينا إلى الطريقة التى اتبعها المعلمون فى تعليم التلاميذ مادتى الحساب وأصول الرياضيات.

لكن الدكتور عبد العزيز صالح يسعفنا بكثير من الأمثلة المبينة لما كان خافيا، فقد كانت الطريقة المثلى فى أداء التلاميذ للعمليات الحسابية هى : «حينما تحسب (فليكن ذلك) وأنت هادئ ولا تدع صوتا يسمع». وقد وجهت هذه النصيحة إلى تلميذ ألحقه أبوه بالمدرسة، وذلك مما يرجح أن الرياضيات كانت تعلم فى المدارس ولا تترك للتدريب العملى فى أثناء الوظيفة، وذلك على الرغم من قلة ما وجد من دروس التلاميذ. (٧)

ومن العجيب حقا أننا إذ نلمس حرصا شديدا فى الفكر التربوى المعاصر على ربط موضوع التعليم بحياة التلاميذ خاصة والحياة العملية عامة، نجد نقدا حادا من المؤرخين الغربيين لتعليم الرياضيات المصرية القديمة على أساس أن هذا التعليم كان دائما يلتبس بالمسائل المادية دون المعنويات أو المبادئ المجردة !!

ولعل هذا المعيار إنما هو أثر من آثار الفكر الإغريقى القديم، وعلى سبيل المثال فقد اشتملت كراسة أحمس على جدول صغير لنتائج قسمة الأعداد من ١-٩ على العدد (١٠) معبرا عنها بالكسر ذى البسط الواحد الصحيح [٨].

وقد استخدم الجدول فى عدة مسائل علمية تستطيع عقلية التلاميذ أن تسايرها حيث وضعت على أساس تقسيم رغيف و رغيفين وستة وسبعة وثمانية وتسعة أرغفة على التوالى على عشرة رجال.

وقد رأى الأستاذ (بترى) W.F. Petrie بناء على ذلك أن من أسس الحساب المصرى ما لا يعدو ما كان يأخذ به جمهور الناس فى الحياة اليومية العادية بحيث كانت طريقة القسمة التجريبية المكتوبة فى كراسات التلاميذ هى بذاتها طريقة توزيع الخبز على عمال الحقول حين الغذاء [٩].

ولا نجد أننا أمام (تهمة) توجب النفى، وإنما على العكس من ذلك، لنا أن نفخر بأن ما كان يجرى فى الحياة العامة كان يترك صدى لدى المعلمين وهم يصوغون مسائلهم، غير أنه ينبغى فيما يرى - د. عبد العزيز صالح - أن نقدر إلى جانب ذلك أنه ما كان يتهيأ للمعلم أن يدلل على صحة جدوله السابق ويقربه إلى تلاميذه بغير أمثلة تصطبغ بشئ من الحيوية (المادية) ولا نقول الواقع المادى، فتقسيم رغيف بين عشرة رجال، يبعد أن يقوم به شخص متعلم، بل ويبعد أن يتم فى الحياة الواقعية.

وتؤكد الروايات الإغريقية أن الفيلسوف اليونانى (طاليس) كان من أقدم من تقلوا أصول الهندسة المصرية إلى اليونان، وأنه علم تلميذه (بيتاجوراس) كل ما يعرفه عنها، ثم وجهه إلى مصر ليتم دراسته الرياضية مع علمائها وكهنتها، ووصف أفلاطون فى (القوانين) بعض الأساليب

المصرية لتعليم الصغار عمليات الحساب، وهى أساليب يصعب تأكيدها فى ضوء المصادر المصرية الباقية، ولكن حسبها أنها كشفت عن المثالية التى افترضها أفلاطون وأتباعه للحضارة المصرية وأهلها[١٠].

ودعا أفلاطون أحرار قومه الى أن يتعلموا ما يتعلمه الناشئ المصرى من فروع المعرفة، وروى لهم أن مصر جعلت تعليم الحساب متعة وتسرية، وأن معلميها كانوا يوزعون على تلاميذهم ثمارا وأزدهارا، ويطلبون منهم توزيعها على أفراد يزيدون عنها فى العدد تارة، وينقصون عنها تارة أخرى ثم يوزعون عليهم صحافا تتضمن أوزانا من ذهب ونحاس وفضة، ويطلبون منهم أن يستعينوا بها فى تمارينهم الحسابية، وبهذه المسائل، كما روى أفلاطون، يتزود التلميذ المصرى بخبرة حسابية طيبة، يستعين بها فى إدارة شئون أسرته وفيما يسند إليه من أعمال حسابية فى مستقبل حياته الوظيفية، كأن يقسم أرزاق الجنود فى الجيش أو يقسم أرزاق العمال فى المشروعات الكبيرة [١١] وذا كان بطليموس الأول قد أوصى بإنشاء المتحف (الموسايون) Mousaion ، أى معبد ربات الفنون والعلوم، والمقصود هنا بكلمة (متحف) معهد للعلم والدراسة، فى مدينة الاسكندرية قديما، فإن العلم الرياضى قد ارتبط بهذا المتحف منذ نشأته ارتباطا وثيقا، كان ذلك فى البداية على يد إقليدس صاحب كتاب (الأصول) والذى عاش وألف بمدينة الإسكندرية فى عهد بطليموس الأول [١٢].

ولا يمكن أن نؤكد أن أقليدس كان أستاذا بالمتحف، أو أنه درس به وقتا ما والأغلب أنه زاره واجتمع بأساتذته ودرس الرياضة لبعض الطلبة فيه والمؤكد أنه ألف كتاب (الأصول) بمدينة الإسكندرية.

ومما لا شك فيه أن كبار علماء الرياضة أثناء العصر البطلمى

والعصر الرومانى، زاروا الإسكندرية واتصلوا بالمتحف ، وتعلم بعضهم الآخر فيه أو، معاهد دراسية متصلة به، فأرشميدس صاحب المبدأ الشهير وأحد كبار علماء الميكانيكا، وممن اهتم بدراسة المنحنيات الهندسية فى تغيرها المتصل، زار مدينة الإسكندرية، وأقام بها مدة طويلة فى النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد، وأخذ العلم عن علمائها.

أهداف تعليم الرياضيات فى الحضارة العربية الإسلامية

كان من أهم عوامل تقدم العلوم الرياضية فى ظل الحضارة الإسلامية، حرص الناس على تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية وتأدية العبادات والمناسك على أكمل وجه يرضى الله ورسوله (١٣). وطور المسلمون علوم الرياضيات لحاجتهم فى بادئ الأمر إلى تحديد مواقيت الصلاة وبداية شهر رمضان والتعرف على اتجاه القبلة وتقسيم المواريث أو الغنائم بين المنتفعين والمستحقين بالحق والعدل، ففى سورة النساء وضح الله أحكام المواريث بالتفصيل وأنزل آيات علم الفرائض فى قوله تعالى(١٤):

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ، وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ

فإن كَانُوا أَكْثَرَ من ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

كما ورد فى الترغيب فى تعلم الفرائض فى قول الرسول ﷺ : وسلم «تعلموا الفرائض وعلموه الناس، فإنه نصف العلم، وهو ينسى، وهو أول شئ ينزع من أمتى». وعن أهمية العدد والحساب فى معرفة عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ومضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والاجازات وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس فى معايشهم يقول الله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ (١٥)

ويكاد علماء العرب والمسلمين يجتمعون على ما تؤدى إليه دراسة الرياضيات من تعويد دارسها على الموضوعية والدقة وأهمية التدليل والبرهنة على ما نسوق من أحكام.

فهذا طاش كبرى زادة يذكر أن الهندسة « ومن جملة منافعها العلاج بها على الجهل المركب، لما أنها علوم يقينية لا مدخل فيها للوهم ، فيعتاد الذهن على تسخير الوهم، والجهل المركب ليس إلا من غلبة الوهم على العقل»(١٦)

والهندسة على نوعين : عقلية وحسية، فالحسية، هى معرفة المقادير وما يعرض فيها من المعانى إذا أضيف بعضها إلى بعض، وهى مايرى بالبصر ويدرك باللمس، والعقلية بضد ذلك وهى مايعرف ويفهم. والنظر فى الهندسة الحسية «.. يؤدى إلى الحذق فى الصنائع كلها وخاصة فى (المساحة) وهى صناعة يحتاج إليها العمال والكتاب والدهانين وأصحاب

الضياع والعقارات في معاملاتهم في جباية الخراج وخفر الأنهار وعمل البريدات وما شاكلها .. »

والنظر في الهندسة العقلية يؤدي إلى الحذق في الصنائع العلمية «لأن هذا العلم هو أصلا الأبواب التي تؤدي إلى معرفة جوهر النفس، التي هي جذر العلوم، وعنصر الحكمة..)(١٧).

أما ابن خلدون، فقد أكد أن تعلم الهندسة يفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره، لأن براهينها كلها بينة الانتظام ، جلية الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر لممارستها عن الخطأ»

وهو ينقل عن قدامى شيوخ العرب قولهم «ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقيه من الأوضار والأدران، وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه ..» (١٨)

أما علم (العدد) ، فيذكر طاش كبرى زاده أن منفعته هي «ارتياض النفس بالنظر في المجردات عن المادة ولواحقها . ولذلك كانت القدماء يقدمونه في التعليم على سائر العلوم حتى المنطق». (١٩)

كذلك أشار ابن خلدون إلى أن دراسة هذا العلم تؤدي إلى تكوين «عقل مضيء دَرِب على الصواب»، ويؤكد أن الذي يمهر في دراسته، يتعود على الصدق» لا لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس، فيغير ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا» (٢٠)

وقد ذكر ابن خلدون أن من فروعه ما يسميه (بالمعاملات) وهو تطبيق قواعد علم الحساب على المعاملات التي تجرى بين الناس في حياتهم.

كذلك أفاض ابن خلدون فى بيان فوائد فرع آخر من العلوم الرياضية (الفرائض) والذى يتعلق بتطبيق قواعد الشريعة فى الميراث والفرائض الفقهية، وقد وصف هذا الفرع بأنه «من أجل العلوم»، ويشير إلى ما يذكره بعض علماء الحديث من أحاديث عن أن «الفرائض ثلث العلم » و« أنها أول مايرفع من العلوم» (٢١)

ويتجلى من نتاج علماء المسلمين، أنه كان يسود بعض مؤلفاتهم مسحة عملية، واتجاه لتطبيق النظريات الهندسية والحسابية والجبرية على الأغراض العملية من شؤون حياتهم ولوازم مجتمعهم، فقد وضع «ابن الهيثم» – مثلا – مقالة «فى استخراج سمت القبلة»، ومقالة «فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية»، ومقالة « فى استخراج ما بين البلدين فى البعد بجهة الأمور الهندسية»، وكذلك وضع ابن الهيثم كتابا طابق فيه بين الأبنية والحفور بجميع الأشكال الهندسية، وقد قال فى ذلك «.. مقالة فى إجارات الحفور والأبنية ، طابقت فيها جميع الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية، حتى بلغت فى ذلك إلى أشكال قطوع المخروط الثلاثة : المكافئ، والزائد، والناقص ..» .(٢٢)

ومن هنا نفهم لماذا كتب حاجى خليفة : «ومنفعته ضبط المعاملات وحفظ الأموال وقضاء الديون وقسمة التركات ويحتاج إليه فى العلوم الفلكية وفى المساحة والطب. وقيل يحتاج إليه فى جميع العلوم ولا يستغنى عنه ملك ولا عالم ولا سوقة (٢٣) وزاد شرفا بقوله سبحانه وتعالى «وكفى بنا حاسبين».

ومن الأمثلة التى وردت فى رسائل إخوان الصفا، وكتب الحساب، يتبين أن العرب كانوا يستعينون بقوانين الحساب أو مبادئه فى حل مسائل

العلوم الطبيعية والمثلث و الفلك ويرون أنه لولا ذلك لما أمكن الاستفادة من هذه العلوم التى ذكرناها والتوسع فيها. وقد جاء فى (رسائل إخوان الصفا)، بعد إيراد أمثلة مختلفة عملية على النسبة والتناسب «... فقد بان، أن علم نسبة العدد علم شريف جليل، وأن الحكماء، جميع ما وضعوه من تأليف حكمتهم فعلى هذا الأصل أسسوه وأحكموه وقضوا لهذا العلم بالفضل على سائر العلوم إذ كانت كلها محتاجة إلى أن تكون مبنية عليه، ولولا ذلك لم يصح عمل ولا صناعة ولا ثبت شئ من الموجودات على الحال الأفضل» .(٢٤)

متى يتم تعليم الرياضيات ؟

القارئ للرسالة التى وضعها (الكندى) خاصة بكمية كتب أرسطو ربما يتصور أن الكندى يقدم على تعليم الرياضيات تعليم المنطق والطبيعة والمتيافيزيقا، حيث أنه لم يتحدث عن العلوم الرياضية إلا بعد أن انتهى من الحديث عن هذه العلوم، لكن الأهوانى ينقل لنا نصا هاما للكندى نتأكد فيه أولوية الرياضيات ، حيث يقول : (٢٥)

«فكتب أرسطو طاليس المرتبة التى يحتاج المتعلم الى استطراقها على الولاء على ترتيبها ونظمها ليكون بها فيلسوفا، بعد علم الرياضيات، هى أربعة أنوا ع من الكتب».

ثم قال بعد الانتهاء من عرض هذه الأصناف الأربعة من الكتب «فهذه أعداد ما قدمنا ذكره من كتبه (يشير الى كتب أرسطو) التى يحتاج الفيلسوف التام إلى اقتناء علمها بعد علم الرياضيات، أعنى التى حددتها بأسمائها ، فانه إن عدم أحد علم الرياضيات، التى هى علم العدد والهندسة والتنجيم والتأليف، ثم استعمل هذه دهره، لم يستتم معرفة شئ من هذه،

ولم يكن سعيه مكسبه شيئا إلا الرواية إن كن حافظا تاما علمها على كتبها وتحصيله فليس بموجود إن عدم علم الرياضيات البتة». وهكذا يبين لنا هذا النص أن تعلم الرياضيات ضرورة لا بد منها قبل تعلم العلوم الفلسفية حتى يمكن لطالب الفلسفة أن يفهمها فهما يقوم على الوعى والاستنارة لا مجرد الحفظ والاستظهار.

تلك هى علة سبق الرياضيات من حيث المنهج الفكرى.

لكن هناك علة أخرى من حيث ما تدل عليه تقاليد التعليم مما أثر عن الاسكندرانيين، فالتعليم هو الارتياض والرياضة من الارتياض، كتب الكندى في ذلك : « إن عادة الفلاسفة كانت الارتياض بالعلم الأوسط، بين علم تحته وعلم فوقه، فأما الذى تحته فعلم الطبيعة وما ينطبع عنها، وأما الذى فوقه فعلم ما ليس من (الطبيعة) وترى أثره فى الطبيعة».

ومعنى ذلك أن العلوم الرياضية على الرغم من أنها تلى فى الترتيب العلوم الطبيعية من جهة الموضوع، إلا أنها علة فى وجودها، بحسب الفلسفة المثالية المعروفة عن المدرسة الفيثاغورية وأفلاطون، والأفلوطينية المحدثة.

وقد نقل ابن نباتة كلام الكندى الذى يبين فيه أن العلم الرياضى أول فى التعليم، وأوسط فى الطبع.

ولا ينبغى أن يفوتنا أن الكندى كان يجعل الرياضيات جزءا من الفلسفة التى قسموها إلى علوم أربع وهى : الحساب والهندسة والموسيقى والفلك. أما ابن سينا فقد قسم الفلسفة إلى : المنطق والطبيعات والرياضيات و(الإلهيات)، ومعنى ذلك أن ابن سينا لايرى البدء بتعليم الرياضيات وإنما بالمنطق على اعتبار أنه (آلة) العلوم، بل وأخر تعليم

الرياضيات إلى ما بعد تعليم الطبيعات [٢٧]

وقد التزم إخوان الصفا بالتقسيم الرباعى للفلسفة، لكنهم جعلوا الرياضيات فى المقدمة يليها المنطقيات ثم الطبيعيات والإلهيات. وينبغى الالتفات إلى تأكيد إخوان الصفا على أنه ليس من السهل على كل تلميذ أن يتعلم كافة العلوم ويتقنها، وذلك لعوامل كثيرة يأتى فى مقدمتها أن العلوم كثيرة جدا فى الوقت الذى نجد فيه عمر الانسان قصيرا فضلا عن اختلاف الأمزجة والميول بين المتعلمين [٢٨] .

بيد أن هناك قدرا من العلم الذى لا بد أن يشترك فيه جميع الساعين فى طلب المعرفة، ألا وهو العلم الدينى بحكم النزعة الدينية الغالبة على المجتمع الإسلامى ، ومن هنا يوجب الإخوان تعليم علوم الدين وفلسفة أولا، ثم تأتى بعد ذلك دراسة الفلسفة، بما تشمله من رياضيات، وأرادوا بذلك أن يتلافوا هجوم الفقهاء على تعليم الفلسفة للصبيان الذين لم تتح لهم بعد فرص تعلم الدين، يقول الإخوان : «فأما من تعلم علم الشريعة وعرف أحكام الدين وتحقق أمر الناموس، فإن نظره فى علم الفلسفة لا يضره ، بل يزيد فى علم الدين تحققا وفى أمر المعاد استبصارا، وبثواب الآخرة وبالعقاب الشديد يقينا وإليها اشتياقا وفى الآخرة رغبة وإلى الله تعالى قربة» [٢٩]

وتعليم الرياضيات ضرورى عند إخوان الصفا لا لفوائده المتعددة فى حياة المتعلم و (الناس) وإنما لحسن فهم رسائل الإخوان نفسها. وفى داخل منطقة الرياضيات يعطون (علم العدد) أولوية فى التعليم «إذ هو جذر العلوم وبمعرفته يستطيع المتعلم أن يتدرج إلى معرفة سائر العلوم الرياضية» [٣٠].

وبعد تعليم علم العدد، يجئ تعليم الهندسة، وبهذا، فإن « معرفة

خواص العدد والأشكال يعين على فهم كيفية تأثيرات الأشخاص الفلكية وأصوات الموسيقى فى نفوس المستمعين، والنظر فى كيفيات تأثيرات الحس فى منفعلاتها يعين على فهم كيفية تأثيرات النفوس المفارقة فى النفوس المتجسدة فى عالم الكون والفساد ، وفى علم الهندسة العقلية للناظرين طريق إلى الوصول الى معرفتها » (٣١).

أساليب التأليف والتعليم :

نستطيع أن نرجح إلى حد كبير أن الكثرة الغالبة من الكتب التى ألفها علماء المسلمين فى الرياضيات كان الغرض منها تعليميا، ونحب أن نقرر بداية أننا لا نقصد بذلك المعنى التعليمى الشائع فى وقتنا الحاضر من حيث انحصار التأليف فيما هو متداول وأولى فى نطاق العلم، ذلك أن هدفنا مثل هذا وإن كنا لا ننكر وجوده لدى أسلافنا، إلا أن الإضافة والتجديد والتعميق لم تخل منها الكتب الرياضية حتى تلك التى وجهت بغرض التعليم.

وليس غرض التعليم مقتصرا على «التبسيط» وإنما هو يمتد كذلك إلى «الانتقاء» و«النقد». لقد أعمل علماء المسلمين تفكيرهم النقدى، ونتبين الجهد الذى بذلوه فى فهم ما ورثوه من علوم عن القدماء فى التراجم الذاتية لبعض أولئك العلماء (٣٢) . كما يتبين ذلك أيضا فى المقدمات التى كتبها العلماء المسلمون وفى العبارات العارضة التى ترد فى كتاباتهم، يقول نصير الدين الطوسى فى مقدمة ترجمته المنقحة لكتاب (الكرة والاسطوانة) لأرشميدس:

«إنى كنت فى طلب الوقوف على بعض المسائل المذكورة فى كتاب الكرة والاسطوانة لأرشميدس زمانا طويلا لكثرة الاحتياج إليه فى المطالب الشريفة الهندسية، إلى أن وقعت إلى النسخة المشهورة من الكتاب التى أصلها ثابت بن قره، وهى التى سقط عنها بعض المصادرات لقصور فهم

ناقله إلى العربية عن إدراكه وعجزه بسبب ذلك عن النقل، فطالعتها وكان الدفتر سقيما لجهل ناسخه فسددته بقدر الإمكان، وجهدت فى تحقيق المسائل المذكورة، إلى أن انتهيت من المقالة الثانية، وعثرت على ما أهمله أرشميدس من المقدمات مع بناء بعض مطالبه عليه، فتحيرت فيه، وزاد حرصي على تحصيله، فظفرت بدفتر عتيق فيه شرح أوطوقيوس العسقلانى لمشكلات هذا الكتاب الذى نقله إسحاق بن حنين إلى العربية نقلا على بصيرة، وكان فى ذلك الدفتر أيضا متن الكتاب من صدره إلى آخر الشكل الرابع عشر من المقالة الأولى أيضا من نقل إسحق وكان مايذكره أوطوقيوس فى أثناء شرحه من متن الكتاب مطابق لتسلك النسخة»(٣٣)

وفى أعمال مؤلفين آخرين مثل إبراهيم بن سنان نجد تراجم ذاتية قيمة لا تهمنا منها النوادر الصغيرة التى تروى بوصفها تفاصيل، ولكن يعنينا منها الدوافع التى حفزت المؤلف على القيام بعمله (العلمى، والأسباب التى جعلته يركز اهتمامه على موضوعات رياضية معينة (دون غيرها) ورأيه فيما قام به من عمل، وتحليل كل من أبحاثه باختصار واحدا بعد آخر، ويتبين لنا من هذا أن علماء المسلمين كانوا، منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) واثقين، بفضل الجهد الذى بذلوه فى عملهم، من أنهم يقدمون لطلاب المعرفة الرياضية زادا مصفى مطورا يسيرون به الى أمام على طريق التعليم والتعلم الرياضى (٣٤).

ولعل تأملا فى تلك السطور الهامة التى وردت فى كتاب (الجبر والمقابلة) للخوارزمى تبرز بجلاء ووضوح تلك الأهداف الثقافية والفكرية والتعليمية لمثل هذا الكتاب وغيره وبالتالى أسلوب الكتابة والتأليف، يقول الخوارزمى : (٣٥).

« ... ولم تزل العلماء فى الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب بما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظرا لمن بعدهم ، واحتسابا للأجر بقدر الطاقة ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره وذكره و (أن) يبقى لهم من لسان الصدق ما يصغر فى جنبه كثير مما كانوا يتكلـفونه من المؤونة ويحملونه على أنفسهم من المشقة فى كشف أسرار العلم وغوامضه وهم :

– إما رجل سبق إلى مالم يكن مستخرجا قبله فورّثه من بعده.

– وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقا فأوضح طريقه وسهّل مسلكه وقرّب مأخذه.

– وإما رجل وجد فى بعض الكتب خللا فلّم شعثه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا متخير بذلك من فعل نفسه» .

ولقد وضع المسلمون مؤلفات كثيرة فى الحساب وترجم الغربيون بعضها وتعلموا منها، وكان لها أكبر الأثر فى تقدمه، ومن هذه المؤلفات كانوا يقسمون الحساب الى أبواب : منها ما يتعلق بحساب الصحاح ومنها ما يتعلق بحساب الكسور، ويذكرون فى كل منهما أعمالا مختلفة يضعونها فى فصول: الأول فى الجمع والتضعيف، والثانى فى التصنيف، والثالث فى التفريق (الطرح) ، والرابع فى الضرب ، والخامس فى القسمة ، والسادس فى التجذير واستخراج الجذور. وكان لهم أسلوب خاص فى إجراء هذه العمليات ، ويذكرون لكل منها طرقا عديدة، ومن هذه الطرق ما هو خاص بالمبتدئين وما يصح أن يتخذ وسيلة للتعليم.

ولقد انتبه بعض رجال التربية فى أوروبا إلى قيمة هذه الأساليب المسطورة فى كتب الحساب العربية من وجهة (التربية) فأوصوا بها

وباستعمالها عند تعليم المبتدئين. جاء فى مجلة التربية الحديثة : «.. وهذا ما حدا بنا إلى درس الأساليب المتنوعة المذكورة فى كتب الحساب القديمة، بشئ من التوسع والتعمق، وفعلا وجدنا بينها طرقا عديدة يحسن الاستفادة منها في التعليم »، ولهذا السبب أتت المجلة على بعض هذه الأساليب ودللت على فوائدها فى أحد أعدادها ليستفيد منها الأساتذة والمعلمون فى تدريس الحساب. (٣٦)

وكان علماء الرياضة المسلمين يكثرون من الأمثلة والتمارين فى مؤلفاتهم ويأتون بمسائل علمية تتناول ما كان يقتضيه العصر، ويدور على المعاملات التجارية والصدقات وإجراء الغنائم والرواتـــب على الجيـــوش، كما تتطـــرق إلى البريد وسيره واللحاق به وإلى طرق البيع والشراء (٣٧) .

وحرص بعض المؤلفين على إخراج كتب أشبه بما نسميه فى أيامنا هذه (الكتب الخارجية) من حيث قصدها الى شرح كتاب قائم وتقريبه إلى الأذهان : ومن الأمثلة الدالة على ذلك :

– شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم المصرى، تأليف على بن أحمد العمرى الموصلى المتوفى حوالى سنة ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م ، وهذا الكتاب معروف لدى علماء الرياضيات فى القرنين الرابع والخامس للهجرة، فقد تداولوه واستفادوا منه، واعتمدوا عليه فى دراساتهم الرياضية .

– وشرح كتاب الخوارزمى في الجبر لأبى يوسف يعقوب بن الحسن الصيدنانى من رياضيى القرن العاشر الميلادى .

– وشرح كتاب أبى كامل شجاع بن أسلم المصرى في الجبر المقابلة للاصطخرى الحاسب من رياضيى القرن العاشر الميلادى (٣٨).

ومنهج ابن الهيثم فى التحليل قريب الشبه بمذهب ديكارت الذى ذكره

فى كتابه (مقال فى المنهج) حيث يوصى فى القاعدة الثانية بأن «أقسم كل واحدة من المعضلات التى سأختبرها إلى أجزاء بقدر ما فى الوسع، وبقدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه». والتحليل هنا مثالى ، شبيه بتحليل العالم الرياضى الذى يحلل النظرية إلى عناصرها، والعالم الفيزيقى الذى يحلل الظواهر الضوئية، وهو من المعطيات الحسية إلى حركات وأحداث.

ولشرح ذلك، يكتب ابن الهيثم فى مخطوطة (التحليل والتركيب) : «.. إن كيفية التحليل هى أن نفرض المطلوب على غاية التمام والكمال ثم ننظر فى خواص موضوعه اللازمة لذلك الموضوع ولجنسه ، وفيما يلزم من لوازمه، ثم فيما يلزم تلك اللوازم إلى أن نتبين إلى شئ معطى فى ذلك المطلوب، ووقف الناظر عنده، والمعطى هو المعنى الذى لا يمكن دفعه ولا يمتنع منه مانع» (٣٩)

ثم ينتقل ابن الهيثم إلى تفسير خطوات التركيب قائلاً:

«أما كيفية التركيب فهى أن نعرض الشئ المعطى الذى انتهى إليه التحليل، وعنده وقف الناظر، ثم تضاف إليه الخاصة التى وجدت قبل تلك الخاصة، ويسلك فى الترتيب عكس الترتيب إلى المعنى المطلوب لأنه كان أول موضوع فى التحليل....

وصناعة التحليل تحتاج إلى تقدم العلم بأصول التعاليم والارتياض بها ليكون المحلل ذاكرا الأصول عند التحليل، ويحتاج مع ذلك أيضاً إلى حدس صناعى، وكل صناعة فليس يتم لصانعها إلا حدس على الطريق الذى يؤدى إلى المطلوب، والحدس إنما يحتاج إليه فى صناعة التحـــليل إذا لم يجد المحلل في موضوع المسألة خواصا معطاة، ومتى ركبت أنتجت

المطلــوب» (٤٠) .

ومن أطرف ما يحفظه تراثنا الحضارى لجوء البعض إلى نظم المعلومات والحقائق الرياضية فى صورة شعرية، ولا شك أن هذا الأسلوب كان يساعد كثيرا على سرعة وحسن تعلم الرياضيات لمن توفرت له هذه الصورة الشعرية لما هو معروف عن الشعر من احتوائه على موسيقى خاصة داخلية تساعد على حفظه وفهمه.

ومن أبرز من قاموا بمثل هذا النظم (ابن الياسمين) الذى وضع أرجوزة فى الحساب والجبر، وفى هذه الأرجوزة نجد خلاصة كثير من المبادئ والقوانين والطرق التى تستعمل فى الحساب وحل المسائل والمعادلات الجبرية التى تشتمل عليها كتب الجبر الحديثة.

ومن أمثلة ما يذكره ابن الياسمين فى هذا الشأن :

على ثلاثة يدور الجبر　　　المال والأعداد ثم الجذر

ثم يفسر كل واحد من هذه الأشياء بقوله:

فالمال كل عدد مربـــــع　　　وجذره واحد تلك الأضلع

والعدد المطلق مالم ينسب　　　للمال أو الجذر فافهم تصب

ومن هنا يفهم أن المال هو كل عدد مربع، والجذر أحد ضلعيه، والعدد المطلق هو الذى لم ينسب الى جذر، ولا إلى مال، ولا إلى غيرهما ، فالإثنان – مثلا– عدد .

والجذر والشئ بمعنى واحد　　كالقول فى لفظ أب ووالد

أى أن الجذر والشئ مترادفان، وبعبارة أخرى يمكن أن يقال : إن الجذر هو العدد المجهول، ويعبر عنه فى علم الجبر بالرمز (س) ، وعلى ذلك

يكون المال (س٢) (٤١)

تدهور .. ثم نهوض :

لسنا بسبيل الاستقصاء التدريجى لكل مراحل تطور تعليم الرياضيات فى العالم العربى الإسلامى بصفه عامة وفى مصر بصفة خاصة ، وإنما نقتطف من كل طور حضارى بعض صور تقدمه أو تدهوره.

ومن هنا، كان لنا أن نقفز قفزة زمنية كبرى لنصل الى أواسط القرن الثامن عشر حيث نلاحظ ذلك الأمر العجيب حقا وهو قوة الدولة وشدة سطوتها، وفى نفس الوقت ذبول علمى واضح وخاصة بالنسبة لتلك الفروع ذات الصلة المباشرة بالتقدم المادى والتطور الحديث. ووجه العجب هنا هو ما هو مستقر الرأى عليه من أن ازدهار العلم والثقافة مرتبط ارتباطا موجبا بالقوة العامه للدولة.

هى مسألة بحاجة الى مزيد من الدراسة ليس هنا موضعها، لكن ما يمكن أن نلتمسه من بصيص نور فى التفسير هو أن الدولة العثمانية صاحبة السيادة فى هذا العهد، كانت جراثيم الانحلال والاضمحلال، قد بدأت تعمل عملها، وكان مما ساعدها على ذلك - ضمن العديد من العوامل الأخرى - هذا الإهمال المزرى للعلوم الرياضية.

ومن الصور ذات الدلالة ما اتفق من تولى عبد الرحمن كتخدا القازدغلى ولاية مصر إلى عام ١٧٥٠ م (٤٢) إذ كان هذا الباشا فيما يؤكد مؤرخنا الشهير «الجبرتى» «له رغبة فى العلوم الرياضية»

ولما وصل إلى مصر قادما من الحجاز، استقر فى القلعة وقابله صدور العلماء فى ذلك الوقت وهم : الشيخ عبدالله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ سالم النفراوى، والشيخ سليمان المنصورى .. فتكلم إليهم

وناقشهم وباحثهم، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فإذا بهم يحجمون عن التفاعل منه بالحوار والحديث، أما السبب، فهو كما قالوا «لا نعرف هذه العلوم» وكان لا بد لهذا الأمر أن يدهش الباشا »

لم كانت الدهشة ؟إن الرجل يقول بصريح العبارة أن لمصر سمعة علمية هائلة خارجها إلى الدرجة التى جعلت الباشا يمنى نفسه بعلم غزير وثقافة مزدهرة عندما تقرر أن يتولى أمر مصر، فسعد بهذه المهمة غاية السعادة، إلا أنه صدم صدمة عنيفة عندما جاء ووجد قممها العلمية على هذا القدر من الجهل بالرياضيات !

ولما حاول شيخ الأزهر أن يعتذر بأن هذا الصنف من العلوم ليس مما هو ضرورى لعلماء الدين إلا النذر اليسير، حاججه الباشا مؤكدا أن تحليل كثير من الواجبات والوظائف الشرعية يقتضى تعلم هذه العلوم...

فما كان من شيخ الأزهر إلا أن اعترف، بأن تعلم العلوم الرياضية له متطلبات ومهارات ومواصفات لا تتوفر فى علماء الأزهر فى هذه الفترة ، وإن تمكنت منها قلة محددة !!

وهذا هو نص الحوار : (٤٣)

الباشا : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق إلى المجئ إليها، فلما جئتها وجدتها كما قيل «تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ! »

شيخ الأهر : هى يا مولانا كما سمعتم : معدن العلوم والمعارف.

الباشا : وأين هى .. وأنتم أعلم علمائها ؟ وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجد عندكم منها شيئا. وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول

والوسائل ونبذتم المقاصد .

شيخ الأزهر : نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام . وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشئ من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث ، كعلم الحساب والغبار.

الباشا : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم، والأهلة وغير ذلك ..

شيخ الأزهر : نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية .. إذا قام به البعض، سقط عن الباقين، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلالات وصناعات وأمور ذوقية، كرقة الطبيعة، وحسن الوضع، والخط والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية ! وأهل الأزهر بخلاف ذلك .. غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك ..

وكان من الباشا أن طلب مقابلة هذا البعض الذى له معرفة بالرياضيات، وكان منهم الشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا المعروف وكان يقابله مرتين فى الأسبوع ليتعلم الرياضيات على يديه، وظل على ذلك طوال فترة ولايته، وكان يقول: «لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ.. لكفانى !».

وقد بلغ عشق هذا الوالى بالرياضيات أن مسألة رياضية غمضت عليه مرة حين مطالعته أحد الكتب، فصار حزيناً غاية الحزن، حتى إذا جاء موعد لقائه مع أستاذه الشيخ الجبــرتى، واستطاع هــذا الشــيخ يجلى ماغمض على الوالى «كاد يطيرفرحا، وحلف أن يقبل يده» (٤٤)

لكن المسألة لم تعد مع الأسف الشديد «الموقف الفردى» للوالى، ولم ينعكس هذا على حركة التعليم سواء فى زمنه أو ماتلاه ..

ثم كانت القارعة سنة ١٧٩٨م بمجيئ الحملة الفرنسية واضطراب الأمور الى أن استقر الأمر لمحمد على فى حكم مصر.

لقد أيقن من استقرائه الواعى لجملة المتغيرات العالمية والمحلية أنه لابد من القوة المادية، وأن تعليم العلوم الرياضية هو واحد من جملة السبل الموصلة إلى تحقيق هذا الهدف.

ففى التعليم الابتدائى على النمط القربى الحديث نجد تلاميذ الفرقة الأولى فى مدرسة المبتديان يدرسون كتاب علم الحساب المطبوع حديثا وإن لم نعرف اسم مؤلفه.

وكانت الدراسة بالمكاتب – كالدراسة فى غيرها من المدارس فى ذلك العصر – دراسة لكتب، والامتحانات امتحانات في الكتب، فبدل أن يقال – مثلا– أن التلاميذ يدرسون الحساب، يقال أنهم يقرءون كتاب كذا : وبدل أن يقال: كانت إجابة التلاميذ فى مادة الحساب مرضية كان يقال أن إجابة التلاميذ عما قرءوه فى كتاب الحساب مرضية فالدراسة هنا مستمدة من الأزهر ومقلدة له حتى بالنسبة لمثل هذا العلم الذى اعتبر من العلوم (الحديثة).[٤٥]

ولأن التأليف الرياضى .. كان غائبا، كان طبيعيا أن تستعين الدولة بكتب أجنبية ثم تعهد للبعض بترجمتها.

وبطبيعة الحال فإن تعليم الرياضيات تم التوسع فيه بعض الشئ فى التعليم التجهيزى (الثانوى).

وقد واجهت محمد على فى جهوده (لمسح) الأراضى المصرية وحفر

الترع وإقامة الجسور وإنشاء المصانع والبحث عن المعادن، مشكلة فقر مصر فى المهندسين الذين يقومون على هذه الأعمال التى لا غنى عنها لبلد ناشئ يبغى أسباب الرقى، فكان يكثر من إنشاء ما يمكن تسميته تجاوزا (مدارس) الهندسة كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فإذا ما سمع بعالم فى الهندسة أو الرياضيات مثلا، أمر بأن يلحق به تلاميذه ليأخذوا العلم عنه وعين لهم مكانا يقيمون فيه. وإذا عاد أحد أعضاء البعثات المتخصصين فى فن من فنون الهندسة أو الرياضيات عهد إليه أن يعلم بضعة تلاميذ ما تعلمه هو فى أوربا. وقد لا تستمر مثل هذه (المدرسة) سنة أو سنتين، ذلك لأنها أنشئت لغرض محدود، فلا تلبث أن ينفرط عقدها بعد أداء هذا الغرض كله أو بعضه . (٤٦)

وشهد عهد محمد على نهوضا جبارا فى التعليم الرياضى بإنشاء مدرسة مستقرة للهندسة، وأرسل بعثات إلى أوروبا للتخصص فى العلوم الرياضية، وترجم العائدون عددا من الكتب الضرورية كى يتعلم منها التلاميذ.

وليس مصادفة أن يصير أحد نبهاء التلاميذ الذين درسوا الرياضيات والهندسة فى مصر وأوروبا هو «أبو التعليم المصرى » الحديث، ألا وهو على مبارك.

لكن حال التعليم الرياضى أخذ بعد ذلك يتذبذب بين صعود وهبوط وفقا لما كانت تصير إليه حال البلاد.

الهـــــوامش

١- وليم تاوضروس عبيد و عبد العظيم أحمد أنيس : مقدمة فى تاريخ الرياضيات ، وزارة التربية والتعليم بالاشتراك مع كلية التربية بجامعة عين شمس ١٩٨٤- ١٩٨٥ ، ص ١٦ .

٢- المرجع السابق : ص ١١

٣- عبد العزيز صالح : الرياضيات فى مصر القديمة، فى : محمد شفيق غربال وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، وزارة الثقافة والأرشاد القومى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، م١ ، د.ت، ص ٥٨٧ .

٤- مختار رسمى ناشد : فضل الحضارة المصرية على العلوم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (المكتبة الثقافية)٢٢٩١ ، ١٩٧٣ ، ص ١٤

٥- أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم فى مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤ ، ص ٢٠٣ .

٦- المرجع السابق : ص ٢٠٤ .

٧- عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة. القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦ ، ص ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

٨- المرجع السابق : ص ٣٠٢ .

٩- المرجع السابق : ص ٣٠٣ .

١٠- عبد العزيز صالح : الرياضيات فى مصر القديمة، مرجع سابق،ص ٩٥ .

١١- المرجع السابق : ص ٥٩٦ .

١٢- نجيب بلدى : تمهيد التاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، القاهرة دار

المعارف ، ١٩٦٢ ، ص ٣٩ .

١٣- أحمد فؤاد باشا : التراث العلمى للحضارة الإسلامية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣ ، ص ٥٣ .

١٤- سورة النساء : ١١ - ١٢ .

١٥- الاسراء : ١٢ .

١٦- طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨ ، ط١ ، ص ٣٧١ .

١٧- قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، القاهرة ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٠ .

١٨- ابن خلدون : المقدمة، القاهرة، دار الشعب، د.ت ، ص ٤٥٨ .

١٩- مفتاح السعادة : جـ١ ، ص ٣٧٤.

٢٠- مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٥٦ .

٢١- المرجع السابق : ص ٤٥٧ .

٢٢- قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى ، ص ٩١ .

٢٣- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، بيروت، دار الفكر ، ١٩٨٢ ، ط١، ص ٦٦٣ .

٢٤- تراث العرب العلمى ، ص ٥٥ .

٢٥- احمد فؤاد الأهوانى : الكندى، فيلسوف العرب، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب (٢٦) ، ١٩٦٤، ص ١٠٢ .

٢٦- المرجع السابق، ص ١٠٣ .

٢٧- المرجع السابق : ص ١٠٥ .

٢٨- نادية جمال الدين : فلسفة التربية عند إخوان الصفاء ، القاهرة، المركز العربى للصحافة، ١٩٨٣ ، ص ٣٢٣ .

٢٩- المرجع السابق : ص ٣٢٤ .

٣٠- المرجع السابق ص ٣٣٩ .

٣١- المرجع السابق ص ٣٤٠ .

٣٢- شاخت وبوزورث : تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وزميله، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ديسمبر ١٩٧٨ ، جـ ٣، ص ١٦٦ .

٣٣- المرجع السابق . ص ١٦٧ .

٣٤- المرجع السابق. ص ١٦٨ .

٣٥- عمر فروح : تاريخ العلوم عند العرب، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٠، ص ٣٤٥ .

٣٦- لم يذكر قدرى حافظ طوقان الذى نقلنا عنه هذا فى كتابه (تراث العرب العلمى) ص ٥٣ ، مكان نشر هذه المجلة : هل هى التى كانت تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة أم غيرها؟ كذلك لم يذكر تاريخ العدد المشار إليه ولا رقمه أو أية بيانات أخرى تتيح فرصة الرجوع إليه.

٣٧- عمر رضا كحالة : العلوم البحتة فى العصور الإسلامية، دمشق، مطبعة الترقى ، ١٩٧٢ ، ص ٩٢ .

٣٨- المرجع السابق : ص ١٢٧ .

٣٩- أحمد سعيد الدمرداش : الحسن بن الهيثم ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، سلسلة أعلام العرب (٨٥) ، يولية ١٩٦٩ ، ص ٦٩ .

٤٠- المرجع السابق . ص ٧٠ .

٤١- قدرى طوقان : تراث العرب ، ص ١٤٣ .

٤٢- الجبرتى : المختار من تاريخ الجبرتى، القاهرة ، دار الشعب، ١٩٥٨، ص ٦٧ .

٤٣- المرجع السابق. الصفحة نفسها .

٤٤- المرجع السابق. ص ٦٨ .

٤٥- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٣٨ ، ص ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

٤٦- المرجع السابق. ص ٣٥٩ .

الدور التربوى للإمام على بن أبى طالب*

١- المقومات البنائية لشخصية الإمام على

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، فهو أول هاشمى يولد من أبوين هاشميين، إذ كان بنو هاشم قد تعودوا أن يصهروا إلى أسر أخرى من قريش، قبل أن يتزوج أبو طالب من بنت عمه فاطمة بنت أسد.(١)

وروت فاطمة أنهاأثناء حملها، قال الرسول ﷺ لعمه أبى طالب : "إن كانت حاملا أنثى فزوجنيها" ، فلما وضعت فى الكعبة، جعلت حملها فى غشاوة، فأمر أبو طالب ألا تفتح حتى يأتى محمد فيأخذ حقه، فلما جاء محمد وفتح الغشاوة، أخرج منها غلاما حسنا فشاله بيده، وسماه عليا، وأصلح أمره، ثم أنه لقمه لسانه فما زال يمصه حتي نام. (٢)

هكذا فتح على بن أبى طالب عينيه أول ما فتحهما على ابن عمه محمد، الذى أصبح فيما بعد رسول الله، ﷺ .. منه تعلم أولى الكلمات، وأولى الخطوات..

وعندما أصابت قريشا أزمة عنيفة، كانت أشد وطأة على أبى طالب لكثرة عياله، فاقترح الرسول ﷺ على عمه العباس الذى كان أيسر بنى هاشم، أن يتكفلا اثنين من عياله، فكان نصيب محمد، عليا، فلم يزل على معه حتى بعثه الله عز وجل رسولا نبياً، فاتبعه على رضى الله عنه، وآمن به وصدقه.

وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة – وهى التعبد قبل أن تفرض

* دراسة قدمت وألقيت فى مهرجان الإمام على عليه السلام، لندن، يولية ١٩٩٠ .

الصلاة ليلة الإسراء - خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبى طالب فيصليان، فإذا أمسيا، رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.(٣)

نشأ على بن أبى طالب إذن فى حجر النبى ﷺ ، ولم يفارقه حتى اختاره الله إلى جواره، وفى هذا يقول على لقومه :« تعلمون موضعى من رسول الله ﷺ ، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعنى فى حجره وأنا وليد يضمنى إلى صدره، ويكنفنى فى عرقه، وما وجد لى كذبة فى قول ولا خطأ فى فعل، وكنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لى فى كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرنى بهذا الاقتداء». (٤)

وقد بلغ من عمق تأثيرعلى بن أبى طالب على الناس أنه اشترى عبدا، فعلمه الإسلام وأعتقه ولكن العبد لزمه، حتى إذا مات النجاشى ملك الحبشة، واضطربت الأمور من بعده، اكتشف الملأ من الحبشه أن هذا العبد هو ابن للنجاشى قد خطفه تجار الرقيق وهو غلام وباعوه فى مكة، فجأ الملأ من الحبشة يعرضون عليه ملك الحبشة خلفا لأبيه النجاشى، لكنه رفض الملك وآثر البقاء على الإسلام فى صحبة على (٥).

وربما صح من أوصاف على فى طفولته أنه كان طفلا مبكر النماء، سابقا لأنداده فى الفهم والقدرة، لأنه أدرك فى السادسة أو السابعة من عمره شيئا من الدعوة النبوية التى يدق فهمها والتنبه لها على من كان فى هذه السن الباكرة، فكانت له مزايا التبكير فى النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التى تلازم أكثر المبْكرين، ولا سيما المولودين منهم فى شيخوخة الآباء.(٦) .

وتدل أخباره كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات، فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض

غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحدا إلا صرعه، ولم يبارز أحد إلا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه رجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأعداء، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان. (٧)

وكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التى يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب، ويزيدها تشريفا أنها ازدانت بأجمل الصفات التى تزين شجاعته الشجعان الأقوياء، فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التى طبع عليها على بغير تكلف ولا مجاهدة رأى، وهى التورع عن البغى، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال. (٨)

وتقترن بالشجاعة - ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم - صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها، وكأنها والشجاعة أشبه شئ بالنضح للماء أو بالإشعاع للنور، فلا تكون شجاعة الفروسية إلا كانت معها تلك الصفة التى نشير إليها، وهى صفة (الثقة) أو (الاعتزاز)، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل. (٩)

كان ملاك الأمر فى أخلاق على عليه السلام أنه كان لا يتكلف إظهار شئ ولا يتكلف إخفاء شئ ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة، وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء كأنه يعنى مايصنع وهو لا يعنيه، وإنما يجئ منه على البديهة كما تجئ الأشياء من معادنها. (١٠) بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى هى قرينة للشجاعة فى نفس الفارس النبيل وقلما تفارقها ونعنى بها خليقة الصدق

الصراح الذى يجترئ به الرجل على الضر والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والنعماء، فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف بها الحق الصراح فى سلمه وحربه وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف، فما عدا معهم قول الصدق فى شدة ولا رخاء حتى قال فيه أقرب الناس اليه أنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها. وكان أبدا عند قوله : «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون فى حديثك فضل على علمك، وأن تتقى الله فى حديث غيرك» (١١).

وكان زواج على من فاطمة ابنة رسول الله ﷺ علامة ما بعدها علامة تؤكد ميزة تاريخية تربوية اختص بها الإمام العظيم، وقد تعددت روايات الزواج، لكننا نستطيع رغم هذا أن نعمل العقل لنرجح أى الروايات أقرب إلى المعقول : فمن المعقول مثلا أن يؤثر النبى عليا بفاطمة وهما ربيبان فى بيئة واحدة، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من على على مشاركتهما فى بيت أبى بكر وعمر لزوجات الشيخين، ومن المعقول أن يتردد على لخطبتها لفقره، ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغى عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده مالا بد من عمله ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك إن يتأخر الزواج إلى ما بعد الهجرة، لأن حياة المسلمين فى مكة - قبل الهجرة إلى المدينة - لم تكن من حياة أمن ولا استقرار، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم إلى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له فى الزواج، ومن لم يكن فليس أخلق به من إرجاء الزواج إلى حين. (١٢)

ولما انتظمت الحياة فى السكن الجديد الذى أوى إلى ظل النبى على مثال من حياة النبى فى بيته، ما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية، وقد رزق الابوان الفقيران نصيبا صالحا من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن، وزينب وأم كلثوم. (١٣).

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام فى محتدم الدعوة والجهاد، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظا فى الصدور والأوراق. وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى، والنبى يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان، ولم يلبث أن حفظها المشرقان. وربما شوهد النبى ﷺ ساجدا وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه، فيتأنى فى صلاته ويطيل السجدة لكى لا يزحزحه عن مركبه، بل وربما كان على المنبر، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران فيسبقه حنانه إليهما وينزل من المنبر ليحملهما وهو يقول:« صدق الله العظيم، إنما أموالكم وأولادكم فتنة».

وإذا كانت المواجهة بين على عليه السلام ونسله وبين معاوية ونسله قد كان ما كان لها من أثر على حركة التاريخ الإسلامى، فلا بد أن يستتبع ذلك آثار عدة على التاريخ التربوى مما يدفعنا إلى الإشارة إلى بعض النظرات فى موازنة بين الإثنين كوسيطين تربويين، فالها شميون من أرومة واحدة مع الأمويين ترتفع إلى عبد مناف، ثم إلى قريش فى أصلها الأصيل، ولكن الأسرتين تختلفان فى الأخلاق والأمزجة وإن اتحدتا فى الأصول، فبنو هاشم فى الأغلب الأعم مثاليون أريحيون ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، و بنو أمية فى الأغلب عمليون نفعيون، ولا سيما الأصلاء منهم فى عبد شمس

من الآباء والأمهات.[١٥] ذلك أن بنى هاشم كانوا يعملون فى الرئاسة الدينية، وبنو عبد شمس يعملون فى التجارة أو الرئاسة السياسية، وهما ماهما فى الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن والتطفيف والتزييف، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة، وبين وسائل الإيمان ووسائل الحيلة على النجاح.[١٦]

وقد تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية، فخرج أمية ناقما إلى الشام، وبقى هاشم منفردا بزعامة بنى عبد مناف فى مكة، ثم علا نجم أبى سفيان بن حرب بن أمية فى الحجاز فأصبحت له زعامة مرموقة إلى جانب الزعامة الهاشمية، فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته، فكان فى طليعة المحاربين للدعوة الجديدة.[١٧]

وكان أمير المؤمنين على عليه السلام، كما يخبرنا هو، يوجه عناية فائقة إلى التاريخ، عناية جعلت من التاريخ عنصرا بارزا فيما وصل إلينا من كلامه فى مختلف الموضوعات التى كانت تثير اهتمامه، وعناية الإمام بالتاريخ ليست عناية القاص والباحث عن القصص، كما أنها ليست عناية السياسى الباحث عن الحيل السياسية وأساليب التمويه التى يعالج بها تذمر الشعب، وإنما هى عناية رجل الرسالة والعقيدة، والقائد الحضارى والمفكر المستقبلى.[١٨]

والإمام ليس مؤرخا، ولذا فليس من المتوقع أن نجد عنده نظرة المؤرخ وأسلوبه فى سرد الوقائع وتحليلها والحكم عليها، وإنما هو رجل دولة حاكم، ورجل عقيدة ورسالة وهبها كل حياته، فهو يتعامل مع التاريخ باعتباره حركة تكون شخصية الإنسان الحاضرة والمستقبلة، لذا فهى تشغل حيزا هاما وعلى درجة كبيرة من الخطورة فى عملية التربية والتحرك

السياسى، وهذا ما يجعل رجل رسالة وحاكما كالإمام على حريصا على أن يدخل فى وعى أمته التى يحمل مسؤلية قيادتها نظرة إلى التاريخ تجعله قوة بانية لا مخربة ولا محرفة (١٩).

كان رجل رسالة هى الإسلام، رسالة استوعبت الحياة كلها : تنظيما وتشريعا ومناهج. وهى رسالة ذات طابع عالمى ممتد فى الزمان إلى آخر الزمان، أراد الله تعالى لها أن تكون دينا للإنسان كل إنسان، تقوده نحو التكامل الذى يحقق له التوازن والتسامى.

وهى رسالة تقوم على العلم والمعرفة، وترفض الجهل لأنه يتيح لأعدائها أن يتسللوا فى ظلماته إلى قلوب أتباعها المؤمنين بها وعقولهم فيشوهون ويحرفون عقائدها وشرائعها ومناهجها، ويضللون بعد ذلك أتباعها المؤمنين بها وذلك حين يلبسون لهم الحق بالباطل والصواب بالخطأ. (٢٠)

ومن هنا كان من أكبر هموم رجل الرسالة الاستعداد الدائم فى هذا المجال لأجل أن يجعل المسلمين على معرفة كاملة بالإسلام، وفى حالة وعى متجدد ونام لحقيقة الإسلام وجوهره ومناهجه وغاياته ليكون المسلم المستنير بالمعرفة فى حصانة من الحيرة والتضليل، على بينة من أمره، وليكون الإسلام بمنجاة من التشويه والتحريف، ويكون كل مسلم مستنير ديدبانا على دينه الذى هو معنى وجوده وشرف وجوده. ومن هنا كان على عليه السلام فى حركة تعليمية دائمة لمجتمعه وخواص أصحابه الذين كانوا علماء ينشرون علمهم ووعيهم بين الناس بالحديث والخطابة وحلقات الدرس والتعليم. (٢١)

والإمام كمربى أمة، قد فكر فى المجتمعات التى حكمها وفكر فى

أفضل الطرق والوسائل التى تنمى حياتها الإجتماعية وترتفع بها إلى ذروة من الرفاهية والقوة والأمن، مع ملاحظة أنها تدين بالإسلام وأن شؤون اقتصادها، وحربها، وسلمها، وعلائقها الاجتماعية تخضع لقوانين الإسلام، وأنها يجب أن تأخذ سبيلها إلى النمو فى إطار إسلامى بحت. وقد هداه تفكيره إلى نتائج باهرة فى التنظيم الاجتماعى : فالحكم وضرورته، والنزعة القبلية وعقابيلها، وشغب الغوغاء ونتائجه، ودعامات المجتمع ومقوماته، والطبقات الاجتماعية وآليتها، كل ذلك خصه الإمام بمزيد من البحث والتفكير، وطبق النتائج التى اهتدى إليها على المجتمعات الإسلامية، ولولا أن أعداء شغلوه على أن يفرغ لمهام العمل السلمى لكسب التاريخ الحضارى للمسلمين مكاسب رائعة. (٢٢)

وإذا كان الإسلام قد جعل الفضيلة هى مصدر القيمة الاجتماعية وأراد أتباعه أن يحملوا أنفسهم على هذا المركب صونا للمجتمع من أخطار التفاوت الطبقى، فإنه لم يغفل أمر الواقع النفسى للإنسان، ولذلك لم يكل أمر تحقيق القيمة العليا إلى الإنسان وحده، وإنما جعل لها سندا من القانون، ليكون لها من القوة ما يحمل الأغنياء الأقوياء وغير الأغنياء على التمسك بها(٢٣) . فشرع الله تعالى أحكاما تحول دون تكون الثروات بطريق غير عادل وغير مشروع – وتحول بين أصحاب الثروات بعد أن تتكون لديهم الثروة بطريق مشروع وبين أن يستخدموها فى استغلال الآخرين.

ولقد وعى الإمام أن الإنسان الجائع، المستغل، المحروم، المقيد بالأغلال لا يستطيع أن يكن فاضلا، وأن من اللغو أن يوعظ بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وأن إنسانا كهذا ينقلب كافرا : كافرا بالقيم، والفضائل والإنسان. ووعى أن المجتمع القائم على سيادة فريق وعبودية فريق، وعلى استغلال الأسياد للعبيد، والأحرار للمقيدين بالأغلال، مجتمع لا يمكن أن

توجد فيه فضيلة ولا يمكن أن يوجد فيه فضلاء، إنه ليس إلا مجتمع لصوص ومجرمين وعبيد، تسير أفراده الأحقاد والمكُر والاستغلال.

على أساس من هذا الوعى جعل الإمام الإصلاح الاقتصادى أساسا للإصلاح الاجتماعى. (٢٤)

٢- التربية : أهمية ومفهوما ووظيفة ومجالا

أهمية العمل التربوى :

إذا كان الإيمان بالله يضع يدنا على معرفة المصدر الأول الذى صدر عنه الكون، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بمصير الوجود ويضع أيدينا على النهاية التى ينتهى إليها الكون، إلا أن الإيمان وحده لا يكفى لتحقيق الارتباط بالله سبحانه بصيغته الصالحة، لأن ذلك يرتبط فى الحقيقة بطريقة إشباع فطرة الإيمان وأسلوب الاستفادة منها كما هى الحال فى كل طاقات الإنسان وقواه واستعدادته الفطرية، فإن التصرف السليم فى إشباعها هو الذى يحقق المصلحة النهائية للإنسان، كما أن السلوك وفقا للفطرة وضدها هو الذى ينمى تلك الفطرة ويعمقها أو يُضمرها ويخنقها، فبذور الرحمة والشفقة تموت فى نفس الإنسان من خلال سلوك سلبى، وتنمو فى نفسه من خلال التعاطف العملى المستمر مع البائسين والمظلومين والفقراء، ومن هنا كان لا بد للإيمان بالله والشعور العميق بالتطلع نحو الغيب والانشداد إلى المطلق، من توجيه يحدد طريقة إشباع هذا الشعور، ومن سلوك عملى يرسخه ويعمقه على نحو يتناسب مع سائر المشاعر الأصلية فى الإنسان، وبدون توجيه قد ينقلب هذا الشعور ويمنى بألوان الانحراف كما وقع ذلك بالنسبة إلى الشعور ولا يعود الارتباط حقيقة فاعلة فى حياة الإنسان وقادرة على تفجير طاقاته وإمكاناته الصالحة، (٢٥) ومن

هنا تأتى أهمية العمل التربوى فى رسالة الإمام على.

وقد أثر عن الإمام أحاديث عدة فى فضل العلم وقيمته، منها على سبيل المثال قوله لتلميذه كُميل بن زياد : «يا كُميل، احفظ عنى ما أقول لك» : الناس ثلاثة : عالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، ورعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا نور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق. يا كُميل، محبة العالم دين يدان به تُكسَبه الطاعَة فِى حياتة وجميل الأحدوثة بعد وفاته، فمنفعة المال تزول بزواله، يا كُميل مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة.» (٢٦) وقال كذلك :"الجاهل صغير وإن كان شيخا والعالم كبير وإن كان حدثا" وقال : "لا كنز أنفع من العلم"، وأيضا : "لا علم كالتفكير ولا شرف كالعلم". (٢٧) وقوله : "كفى بالعلم شرفا أنه يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه من ليس من أهله، وكفى بالجهل خمولا أنه يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه". (٢٨)

ولم يقتصر حث الإمام على طلب العلم والتفقه فى الدين على فئة دون فئة، بل شمل جميع المسلمين، يقول الإمام : "أيها الناس، اعلموا أن كمال الدين طلبُ العلم والعملُ به، وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال. إن المال مقسوم بينكم مضمون لكم، قد قسمه عادل بينكم وضمنه. سيفى لكم به، والعلم مخزون عليكم عند أهله قد أمرتم بطلبه منهم فاطلبوه، واعلموا أن كثرة المال مفسدة للدين مقساة للقلوب، وإن كثرة العلم والعمل به مصلحة للدين سبب إلى الجنة، والنفقات تنقص المال، والعلم يزكو على إنفاقه". قال ابن عبد البر : إن قول على بن أبى طالب «قيمة كل امرئ ما يحسنه» لم يسبقه إليه أحد. قال : وقالوا : ليس كلمة أحض على طلب العلم منها، وقد

طار له الناس كل مطير، ونظمه جماعة من الشعراء إعجابا به وكلفا بحسنه.(٢٩)

وقد عبّر الإمام على عن أن العمل التربوى وطلب العلم إنما هو وسيلة لخير الإنسان نفسه ومن أجل صالح البشرية، مما ينحى جانبا القول بأن طلب العلم إنما يكون للعلم نفسه، يقول في ذلك عليه السلام : «فالله سبحانه قبل أن يخلق الإنسان خلق الكون ورتبه أحسن ترتيب ونظمه أجمل تنظيم، ومهد الأرض وأتم مرافقها على أكمل الوجوه، فخلق فيها الهواء الطلق، وأجرى فيها العيون والأنهار وأعد أنواع الأطعمة والأشربة، ومن كل الثمرات، وأنبت فيها النبات والزهر مختلفا ألوانه.. وبعد أن أتمها، وجمع فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين أخرج إليها الإنسان وأسكنه فيها على أن يكون خليفته فى أرضه يحيا فى كنفها ويعيش فى خيراتها ويمضى فى أقواله وأفعاله ونواياه ومقاصده وفق أحكام الله سبحانه وإرادته .. »(٣٠)

واستنادا إلى هذه الثقة بخير الوجود وعدله، وإلى عظمة الحياة والأحياء، يخاطب على بن أبى طالب الأجيال بما يوقظهم على أن الحياة حرة لا تطيق من القيود إلا ما كان سببا فى مجراها وواسطة لبقائها وقبسا من ضيائها وناموسا من نواميسها.

معنى التربية :

عندما نفتش فيما بين أيدينا من النصوص، فإنها قد لا تسعفنا بطريق مباشر فى أن نجد شرحا بالصورة التى نأمل فيها ونتوقعها، لكننا نستطيع بعمليات استدلال واستنباط أن نجد عددا غير هين من النصوص التى تتضمن بعض الدلالات والمعانى التى من شأنها فى المجموع العام أن تشير إلى مفهوم يقرب العملية التربوية من ذلك المعنى الذى يجعلها عملية

تنمية للشخصية الإنسانية فى جوانبها المختلفة، فمن ذلك قول الإمام: «فإنك أول ما خلقت جاهلا ثم علمت وما أكثر ما تجهل من الأمر، ويتحير فيه رأيك، ويضل فيه بصرك، ثم تبصره بعد ذلك».(٣١)

فخلو الإنسان من المعارف حال ولادته يفيد معنى الاكتساب بمرور الخبرات والأحداث عبر حياة الإنسان، وأن هذا الاكتساب لا يجئ سهلا هينا وإنما يقتضى عمليات مجاهدة وبحث، حيث أن الحقيقة لا تستبان لأول وهلة.

والتربية عملية انسانية بالدرجة الأولى حيث خلق الله الإنسان قادرا على التعلم قابلا له بحكم ما فى فطرته من مرونة وقدرة على التكيف، فقد جاء عن الإمام قوله :«إنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ماألقى فيها من شئ قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك» وقد تناول الإمام جعفر الصادق هذا المعنى بالشرح والتحليل فكان مما قاله :«.. فصار - أى الطفل - يخرج إلى الدنيا غبيا غافلا عما فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فى المعرفة قليلا قليلا وشيئا بعد شئ وحالا بعد حال حتى يألف الأشياء ويتمرن ويستمر عليها، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الأعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية ويعلل الإمام الصادق ذلك بقوله: «فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قُدر أن يكون للوالدين فى الاشتغال بالولد من المصلحة وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر والعطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم» (٣٢) .

وقد أبان الإمام على عليه السلام ركيزتين أساسيتين لا قيام للتربية

بدونهما، ألا وهما ما أسميناه بمرونة الفطرة الانسانية، وكذلك الميل الفطرى لدى الإنسان إلى التقليد، يقول: «يابنى، إنى لما رأيتنى قد بلغت سنا، ورأيتنى أزداد بما فى نفسى، وأن أنقص فى رأيى كلما نقصت فى جسمى، أو يسبقنى إليك بعض غلبات الهوى، وفتن الدنيا فتكون كالصعب النفور»، ومن هنا بدأ بتربيته التربية الصالحة ليوفر له أسس الشخصية السوية :"لتستقبل بجد رأيك ما قد كفاك أهـــل التجارب بغيـــبة وتجربة، فـــتكون قـــد كفـــيت مؤنة الطلب وعوفيت من علاج التجربة»، (٤) فقد أكد الإمام على أهمية الركيزتين بتعبيره البليغ عن (التقليد) قوله :«فتكون قد كفيت مؤنة الطلب»، ويعنى بذلك أنه سيسأله أو سيسأل غيره حتما فى هذه الأمور، فلذلك بادره هو قبل أن يبادر إليه غيره. وتعبيره عن مرونة الطفل اليافع، قوله «أو يسبقنى إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا فتكون كالصعب النفور، فان قلب الحدث كالأرض الخالية، ما ألقى فيها شئ قبلته»، مشيرا بذلك إلى فترة النضوج ومرحلة التكامل الانسانى. (٣٥)

والتربية لا بد لها من أساس عقيدى، ونبع تغترف منه ما يعين المربين على سلوك الطريق المستقيم، ومصدر تهتدى بما فيه لتحدد أهدافها وتعين وسائل الوصول إلى هذه الأهداف، ومختلف البدائل تخطط لها فى سبيل ذلك، وغنى عن البيان أن هذا الأساس العقيدى، وذلك النبع الفياض والمصدر الملهم، قائم فى كتاب الله عز وجل: «كتاب ربكم فيكم مبينا حلاله وحرامه وفرائضة وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه وخاصه وعامه، وعبره وأمثاله «ومرسله ومحدوده» ومحكمه ومتشابهه، مفسرا مجمله، ومبينا غوامضه بين مأخوذ ميثاق فى علمه، وموسع على العباد جهله وبين مثبت فى الكتاب، ومعلوم فى السنة نسخه وواجب فى السنة أخذه ومرخص فى الكتاب تركه، وبين واجب بوقته، وزائل فى

مستقبله، ومباين بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانه أو صغير أرصد له غفرانه وبين مقبول فى أدناه موسع فى أقصاه» (٣٦)

فليس كتاب الله فقط هو الأساس الذى تستند إليه عملية التربية فى الإسلام كما يرى الإمام، وإنما هناك كذلك سنة الرسول ﷺ .

وإذا كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يشكلان نبع التربية، فإن (خبرة الحياة) وحركة الدنيا مصدر هام لا بد من حسن التعامل معه لتكتمل العملية التربوية، فوفقا لسلوك المتعلم فيها وما يمر به من أحداث تكون حياته، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا :«إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ. بها مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحى الله، ومتجر أولياء الله.اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها وقد آذنت بنيها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها فمثلت لهم ببلائها، وشوقتهم بسرورها إلى السرور ، راحت بعافية وابتكرت بفجيعة، ترغيبا وترهيبا وتخويفا وتحذيرا، فذمها رجال غداة الندامة وحمدها آخرون يوم القيامة وذكرتهم الدنيا فتذكروا وحدثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا » .(٣٧)

وقد حرص الإمام على على أن يوثق الصلة بين التربية النظرية والتربية التطبيقية ببيان أهمية العمل بما نَعلم، ويظهر هذا فيما ورد نقلا عنه حيث قال : «الدنيا كلها جهل إلامواضع العلم، والعلم كله حجة إلا ما عمل به، والعمل كله رياء إلا ماكان مخلصا، والإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختم به» (٣٨). وتجئ كلماته أكثر صراحة فى قوله:«العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه»، وقوله لجابر بن عبد الله الأنصارى: «يا جابر قوام الدنيا بأربعة : عالم

مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم .. فإن ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم ..» (٣٩)

وتلعب الأسرة دورا أساسيا فى تشكيل البذور الأولى للشخصية مما يجعلها أول وأخطر وسيط تربوى بحيث يشكل الوعى بها وبأهميتها مقياسا هاما للحكم على الفكر التربوى فى مذهب من المذاهب أو عند علم من أعلام التربية، ومن هنا نلمس حرص الإسلام على ضمان القواعد الراسخة والأسس القويمة التى لا بد أن تقوم عليها الأسرة بحيث تكون بالفعل خير نموذج يحتذى به الأبناء وأروع قدوة ترسم المنهج المطلوب، قال عز وجل حكاية عن عباده الصالحين الذين يعون ذلك حق الوعى ويسعون بالفعل إلى تحقيقه : «والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما»، وفى مقدمة قواعد التربية كما رسمها الإسلام، توجِّه عملياتها التربوية القدوة الحسنة والمثل الأعلى للخير والصلاح. (٤٠)

ومن هنا يعتبر الأب هو المسؤول الأول عن تربية أبنائه تربية قويمة حتى يمكن أن يكونوا قرة أعين له فى مقبل الأيام، يقول الإمام على لولده الحسن : « ... وجدتك بعضى، بل وجدتك كلى، حتى كأن شيئا لو أصابك أصابنى، وكأن الموت لو أتاك أتانى فعنانى من أمرك ما يعنينى من أمر نفسى ..»، فالولد ليس بعضا من الأب، بل هو نفسه، يحكى وجوده وكيانه، فعليه أن يهتم بشؤونه التربوية، وأن يُعْنى فى تهذيبه وكماله ليكون فخرا له، وفى ذلك يقول الإمام كذلك :« ..ورأيت حيث عنانى من أمرك ما يعنى الوالد الشفيق، وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل بين ذى النقية والنية وأن أبدأك بتعليم كتاب الله .. » (٤١)

وظائف التربية :

وهذه الدلالات والمعانى التى تشكل فى مجملها مفهوم التربية كما تبدى فى أقوال الإمام على إنما تشكل (كلاً) يحتاج إلى تخصيص كما يحتاج إلى تفصيل، وهو ما اصطلح علماء التربية وباحثيها على تسميته بـ (وظائف التربية) وهو ما سنحاول أن نقوم به فيما يلى :

١- الوظيفة الإيمانية : فبحكم الموقع الذى احتله الإمام من المسيرة الإسلامية ومن رسول الإسلام، وبحكم طبيعة التربية الإسلامية نفسها، كان من الطبيعى أن تكون الوظيفة الأولى للتربية أن ترسخ إيمان المسلم وتعمقه وتقيمه على قاعدة من الفهم الصحيح والحب العميق الحماس الذى يشكل قوة دفع لا تلين أمام الخطوب، وتستعذب النضال والجهاد من أجل الرسالة الإسلامية تاركة وراء الظهور المنافع الخاصة ونزعات الهوى الشخصى. ومن هنا كانت واجبات الوالدين فى القيام بالمهمة التربوية تنمية المشاعر الإيمانية فى قلب الطفل، ومن هنا أيضا كان من أولى واجبات الآباء والأمهات أن يوقظوا فى أبنائهم فطرة عبادة الله بواسطة العبادات التمرينية فيشجعوهم على اتباع الأوامر الإلهية والارتباط بالخالق العظيم [٤٢].

والإيمان بالله الذى هو الركيزة الأولى لدين الله يحصل بسلوك على مرحلتين : الأولى عقلية وهى إثبات وجود الله، والثانية أسمى من الأولى وهى الإيمان بالله. فى المرحلة الأولى يستفيد القرآن الكريم من قوة العقل ويدعو الناس إلى التفكر فى خلق الله وفى النظام الدقيق الذى يسود الكون كى يصلوا من هذا الطريق إلى وجود الخالق الحكيم العالم، مستخدمين فى ذلك الأدلة والبراهين العقلية والعلمية. أما الإيمان بالله فإنه لا يحصل

بمجرد النظر فى قانون العلية بمنظار العقل فحسب، بل يجب أن يسمو هذا الحساب العملى إلى درجة أرقى وينفذ من العقل إلى الروح ويستقر فى القلب، عند ذاك تخرج هذه الحقيقة من صورة الاستدلال العقلى الجاف إلى حالة من الشوق والاندفـاع : إلى الحب الإلـهى الذى ينفـذ فى جميع ذرات وجود الإنسان(٤٣).

ولقد كانت تضحيات الإمام على تسير جنبا إلى جنب مع شجاعته وشهامته، وتبرهن على ثباته واستقامته حتى قال: ما ضعفت ولا جبنت. إن من ينشأ على الإيمان والاستقامة ويستند فى جميع أموره إلى القدرة الإلهية اللامتناهية لا يخاف أبدا ولا يجبن فى موقف مهما كان حرجاً.

لقد شهدت أيام خلافة الإمام فى الكوفة موجة من الاضطرابات والفتن، وفى بعض الأحيان كان يصمم الخوارج فى وضع خطة لاغتياله عليه السلام، ومع ذلك فقد كان يخرج فى أواخر الليل إلى نقطة هادئة من المدينة ويناجى ربه. وكان يخرج (قنبر) الخادم الوفى وراءه حاملا سيفه مختفيا عن أنظار الإمام، وفى إحدى الليالى نظر على عليه السلام إلى خلفه فرأى قنبر، فقال له : يا قنبر، مالك؟ قال : جئت لأمشى خلفك، فإن الناس كما تراهم يا أمير المؤمنين، فخفت عليك. قال له الإمام : إن أهل الأرض لا يستطيعون بى شيئا إلا بأذن الله عز وجل، فارجع، فرجع. (٤٤)

٢- الوظيفة الثقافية : فالتحليل العلمى الدقيق لحقيقة المجتمع البشرى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن قوام هذا المجتمع هو ما يحمله أفراده من مفردات وعناصر الثقافة والحضارة، من معارف ومعلومات وعادات وتقاليد ونظم وأنساق وعلوم وفنون. ومن ثم تحرص الجماعة البشرية لأجل استمرارها وتواصل أجيالها، على تواصل واستمرار ثقافتها،

ولا يتأتى هذا إلا بعملية نقل لها من الكبار إلى الصغار، وهذا هو نفسه الذى تقوم به العملية التربوية مما يجعل منها أساسا لوجود المجتمع واستمراره.

والقارئ لكلمات الإمام على يستطيع أن يلمس مدى الوعى بالدور الذى يجب أن يقوم به المربى من حيث نقل خبرات وتجارب وثقافة السابقين إلى الأجيال الجديدة لا لتستوعبها كما هى، وإنما لتنتقى وتختار منها ما يعينها على سلامة المسير وعمق الفهم وسعة الإحاطة : يقول لابنه الحسن :«أى بنى إنى وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلى، فقد نظرت فى أعمالهم وفكرت فى أخبارهم وسرت فى آثارهم حتى عدت كأحدهم، بل كأنى بما انتهى إلى من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله، ورأيت حيث عنانى من أمرك ما يعنى الوالد الشفيق، وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر، ومقتبل الدهر ذو نية سليمة ونفس صافية». (٤٥)

وللإمام نص هام يتعلق بطريقة وفلسفة النظر فى التراث الحضارى للأمة (٤٦)، نجده يركز على عاملين ثابتين فى طبيعة الحركة البشرية وطبيعة الحياة على هذه الأرض. (٤٧)

١- عامل التغير والتقلب فى الحياة: فالحياة بما هى حركة، وبما هى تفاعل، وبما هى طاقات وقوى تتفاعل فتتكامل أو تتقاتل فى داخل كل شئ ومن حول كل شئ فى الكون المادى كله، الحياة بما هى كل هذا متقلبة متغيرة باستمرار، هى فى حالة صيرورة دائمة لا تستقر على حال ولا تثبت على وتيرة واحدة.

٢- عامل الزمن : فأثر الزمن فى الأشياء والأعمار ظاهر لكل ذى بصيرة، فالزمن يفتت الحياة باستمرار، فما أن يبدأ وجود الحياة فى شئ، بل ما أن يبدأ وجود شئ حيا كان أو غير حى حتى يبدأ الوجود بالذوبان والتفتت والضياع. إن الحياة تولد فى الزمن، ولكن الزمن يغتالها باستمرار.

وهذان العاملان - التغير والزمن - لا يختصان بعالم الإنسان وحده، إنهما يعملان فى كل شئ، ويحولان دون ثبات كل شئ : الجماد، والنبات والحيوان والإنسان، ويتميز الإنسان - بالنسبة إليهما - عن العوالم الأخرى بأنه - لما أوتى من عقل وإدراك - يستطيع أن يعى الوجه المأساوى لعمل هذين العاملين، وأثرهما فى حياته وفى الوجود من حوله. ووعى الإنسان لهذين العاملين وأثرهما فى الحياة والأشياء يجعله قادرا على مواجهة الحياة ومباهجها المؤقتة.(٤٨)

٣- الوظيفة الأخلاقية : فاذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء، لذلك اهتم الدين الإسلامى بتقويم الأخلاق اهتماما بالغا فوق حدود التصور والخيال، وجاء بدستور متين لا يضاهيه أى دستور بشرى بأى حال من الأحوال، فقد قال رسول الله ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» و (إنما) هذه، (٤٩) هى أداة حصر، أى أن علة بعث الرسل وإرسال نبينا العظيم إنما هى تكميل مكارم الاخلاق وإبلاغ الإنسان إلى آخر حد ممكن من الكمالات الأخلاقية لكى يخرج من هذه الدنيا زكيا نقيا طاهرا حريا ليحشر (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا).

وكما يسعى الإنسان فى سبيل إحياء مواهبه الفكرية، وإدراك الحقائق العلمية، ويحرز تقدما جديدا فى كل يوم، كذلك عليه أن يسعى فى سبيل

تزكية نفسه وتطهيرها بالفضائل الخلقية، قال الإمام العظيم : «لو كنا لا نرجو جنة ولا نخشى نارا ولا ثوابا ولا عقابا، لكان ينبغى لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق، فإنها تدل على سبيل النجاح». ولهذا فإن شطرا مهما من سعادة المجتمع مرتبط بالفضائل الأخلاقية، كما أن شطرا مهما من شقاء المجتمع وفساده له ارتباط وثيق بالانحطاط الأخلاقى، يقول الإمام :«رب عزيز أذله خلقه وذليل أعزه خلقه» (٥٠).

ومن هنا كان اهتمام أتباع الإمام على بالتربية الأخلاقية اهتماما كبيرا حتى أوصوا المتعلمين بأن يكون المعلم الذى يقوم بمهمة العملية التعليمية متصفا بالكمالات الأخلاقية، يقول العيناثى: «ومن أسعد السعادات أن يتفق لك يا أخى معلم رشيد عارف بحقائق الأمور مؤمن بيوم الحساب، عالم بأحكام الدين، بصير بأمور الآخرة، خبير بأحوال المعاد، مرشد لك إليها، ومن أنحس المناحى أن يكون ضد ذلك، وأعلم أن المعلم والأستاذ أب لنفسك وسبب لنشوئها وعلة لحياتها، كما أن والدك أعطاك صورة جسدانية فمعلمك أعطاك صورة روحانية، وذلك أن المعلم يغذى نفسك بالعلوم، ويزينها بالمعارف ويهديها طريق الآخرة التى هى دار البقاء والدوام والخلود فى النعيم، واللذة والسرور الأبدى والراحة السرمدية ... واعلم يا أخى أن من سعادتك أيضا أن يتفق لك معلم ذكى، جيد الطبع حسن الخلق، صافى الذهن، محب للعلم، مبغض للرئاسة، قنوع متوكل غير شره، ولا مداهن ولا متعصب، وقد أخذ علمه من العلماء الأخيار عن الأئمة الأطهار عليهم السلام (٥١).

٤- الوظيفة العقلية: فقد بعث الله محمد ﷺ فى وقت كان الدين فيه مجموعة تقاليد لا يدعمها برهان ولا يسندها دليل وقد انعزل العقل عن التفكير والتعمق والتدبر والسؤال والاعتراض، فى وقت كان شعار الآخرين

في مشارق الأرض ومغاربها :(اطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى) (٥٢)

جاء الإسلام وهو ينادى بصوت رفيع :(الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له)، وقد نهى عن التقليد الأعمى وعن قبول شئ دونما برهان ودليل، فقال: (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وقال أيضا: ﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلىٰ مَا أنزلَ اللَّهُ وإلى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (٥٤).

والهدف الذى يرمى إليه الإسلام من ذلك، تكوين العقل الاستدلالى أو البرهانى عند الإنسان، فلا بد فى رأى الإسلام لإنشاء الفكر الحر أن ينشئ فى الإنسان العقل الاستدلالى الذى لا يقبل فكرة دون بحث ولا يؤمن بعقيدة ما لم تحصل على برهان ليكون هذا العقل الواعى ضمانا للحرية الفكرية وعاصما للإنسان من التفريط فيها بدافع من التقليد أو التعصب أو الركون إلى الخرافة. وفى الواقع أن هذا جزء من معركة الإسلام لتحرير المحتوى الداخلى للإنسان، فهو كما حرر الإرادة الانسانية من عبودية الشهوات، كذلك حرر الوعى الإنسانى من عبودية التقليد، وبهذا وذاك أصبح الإنسان حرا فى تفكيره وحرا فى إرادته. (٥٥)

إن العقل ينمو على أثر التوجيهات الصحية، ويظهر كماله بصورة تدريجية، ولهذا فالإسلام يعتبر التفكير واستخدام العقل والتدبر فى عوالم الطبيعة أعظم العبادات، وقد ورد بهذا المعنى روايات وأقوال، من ذلك قول الإمام على يوصى ولده الحسن: «.. يابنى ، لا فقر أشد من الجهل ، ولاعدم أشد من عدم العقل .. ولا عبادة كالتفكر فى صنعة الله عز وجل .: يابنى ، الفعل خليل المرأ.. إنه لابد للعاقل من أن ينظر في شأنه ، وقال أيضا : لا

غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالأداب ، وقوله : « لا علم كالتفكر » ولا شرف كالعلم» (٥٦).

وإذا كان التفكير يلعب الدور الأكبر فى الحياة الاجتماعية، وإذا كان نوعه يتحدد بنوع هذه الحياة، وبالإطار الفلسفى الذى يوجهها فى هذه الناحية، فإنه يوفر للتربية مناخا صحيحا ملائما للنمو السليم. (٥٧). ومن هنا نجد الإمام على يقول : «العقل ولادة، والعلم إفادة، ومجالسة العلماء زيادة»، ويقول أيضا :«من صحب جاهلا نقص عقله»، وجاء عن الإمام الصادق قوله : «كثرة النظر فى العلم يفتح العقل» (٥٨).

مجالات التربية :

ولعلنا نستطيع من خلال التعرف على مفهوم ومعنى التربية وكذلك من خلال استقراء وظائف التربية كما تبدت لنا من قراءة أقوال الإمام على عليه السلام أن نقف على الآفاق والمجالات التى يجب أن يقتحمها المربى والباحث فى التربية والعامل بها، وعلى سبيل المثال، إذا كانت الوظيفة الإيمانية لها مالها من الأهمية والاعتبار فى التربية الإسلامية عند الإمام على يصبح من الطبيعى أن يكون القرآن وتكون السنة النبوية من المجالات الأساسية الأولى لكل عامل فى حقل التربية الإسلامية، وما يرتبط بهما من دراسات وبحوث. ونفس الشئ يمكن الإشارة إليه بالنسبة للوظيفة الثقافية من حيث ما تقتضيه من دراسات تاريخية وحضارية واجتماعية وأنثروبولوجية وجغرافية وفنية وأدبية، وكذلك الأمر بالنسبة للوظيفة الأخلاقية من حيث ما تقتضيه من دراسات اجتماعية وفلسفية ودينية وتدريب عملى وسلوك فعلى ودراسة للعبادات الدينية. أما الوظيفة العقلية، فهى إذ يمكن أن تتخلل - كمنهج - مختلف المجالات والآفاق السابقة، إلا أنها يمكن

أيضا أن تتحقق من خلال دراسة الفلسفة وعلوم النفس والمنطق ومناهج البحث والرياضيات.

الارتباط وثيق إذا بين (الوظائف) و (المجالات)، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نضع أيدينا على عدد آخر من الآفاق والمجالات يكمل ويفصل ويحدد ما قد أوضحناه.

١- الدراسات الفلسفية : فمن خلال اهتمام الإمام على ببعض موضوعاتها ومباحثها نستطيع الاستدلال على ضرورة العناية بها، ويذكر أبو زهرة أن الكلام فى القدر كثر فى عهد الإمام، وكان هــو الذى يرد الشبهات ويكشف الغمة عن إدراك كل ما يلتبس عليه الأمر ويتحير (٥٩). ولم يكن أبو زهرة هو الوحيد الذى أشار إلى ذلك، فقد شاركه الرأى محمود حب الله إذ أكد أن المشكلة لم تأخذ شكلا واضحا إلا فى زمن (على) الخليفة الرابع، وكان الجواب عنها - أى مشكلة حرية إرادة الإنسان - وخاصة عند مريديه ومن قبلهم عنده هو نفسه، تأكيدا لاختيار الانسان (٦٠) أما السيد أمير على ، فقد ذكر كذلك : « وأول من تكلم في حرية الإنسان فى أفعاله رسول الله ﷺ ثم على بن أبى طالب ...» يهدينا إلى الرأى الإسلامى الصحيح فى موضوع الحرية الانسانية ... (٦١). ولفت عمارة النظر إلى أن القائلين بالعدل والتوحيد سواء منهم المعتزلة أو الذين وقفوا فى الإمامة والسياسة مع فرق الشيعة يذكرون الكثير من الأقوال والمواقف التى تثبت اشتراكه - أى الإمام على - فى هذا الصراع الفكرى حول الجبر والاختيار، ووقوفه إلى جانب القول بحرية الانسان . (٦٢)

ومن المسائل الفلسفية كذلك التى تكشف عن الاهتمامات الفكرية للإمام على مسألة الصفات المتعلقة بذات الله ووحدانيته، فقد كان ينكر كل

معنى من معانى التشبيه فى عبارات قوية (٦٣).

٢- الدراسات اللغوية : ويأتى فى مقدمتها علم النحو الذى ترجح روايات عديدة أن يكون أبو الأسود الدؤلى هو مؤسسه ومنشئه. وبالإضافة إلى هذا فإن هناك روايات أخرى تشير إلى أن أبا الأسود نفسه قد تلقى الإرهاصات والبذور الاولى من الإمام على، فهذا ابن الأنبارى يكتب :«إعلم .. أن أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحدده حدوده، أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وأخذ عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلى ». وعلى نفس النهج سار القفطى الذى أشار إلى أن الجمهور من أهل الرواية على أن أول من وضع النحو أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله وجهه. وروى عن الدؤلى قوله أنه دخل على الإمام فرآه مطرقا مفكرا، فلما سأله عما يفكر فيه، أجاب عليه السلام أنه سمع لحنا فأراد أن يضع كتابا فى أصول العربية، فكان رد الدؤلى أنه لو فعل هذا أبقى فى المسلمين هذه اللغة العربية، ثم أتاه بعد أيام فألقى إلى الدؤلى صحيفة فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف..»(٦٤)

٣- الدراسات القرآنية : وفى مقدمتها علم التفسير، حيث تذكر روايات اهتمام الإمام به ضمن عدد آخر من صحابة رسول الله ﷺ مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، حتى ليعدهم البعض مؤسسى مدرسة التفسير فى الإسلام (٦٥). وقد ورى عن الإمام على قوله للمسلمين : سلونى فوالله لا تسألونى عن شئ يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، سلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أو بنهار أم فى سهل نزلت أم في جبل...» (٦٦)

٤- الدراسات التاريخية : ولقد سبق لنا أن بينا اهتمام الإمام الواضح بدراسة التاريخ دراسة تقوم على الاستيعاب والوعى. ومن المؤكد إن الإنسان العربى الجاهلى - قبل الإسلام- كان يعوزه الوعى التاريخى بالمعنى الذى عرفته الشعوب المتحضرة ذات الثقافة المدونة، وذات المؤسسات السياسية والإدارية الراسخة العريقة، هذا فضلا عن أن يكون الوعى التاريخى بالمعنى الذى عرفه إنسان العصور الحديثة قد وجد لدى الانسان العربى الجاهلى قبل الأسلام[٦٧]. ولكن الحال تغير بعد ظهور الإسلام، إن القرآن الكريم والسنة الشريفة النبوية قد كشفا للعربى تدريجيا عن عمقه فى الزمان باعتباره مسلما، وغدا القرآن والسنة يغذيان على مهل وعى المسلم بعمقه التاريخى من خلال القصص الذى يؤرخ للأمم الماضية وأنبيائها ومواقفها منهم باعتبارهم أنبياء وحالات ازدهارها وانحطاطها وفنائها.

وللتاريخ وظيفة تتعدى شعورنا بالاستمرار والديمومة، وهذه الوظيفة تربوية أخلاقية، ولا يعنى هذا أن التاريخ يتحول إلى مادة وعظية فقط، فإن البحث والنقد غرضان من أغراض التاريخ بلا شك، ولكن الوظيفة النهائية بعدهما هى، كما نؤكد كثيرا : تربوية أخلاقية [٦٨]. وهذه الوظيفة تستمد معالمها وطبيعتها من طبيعة النهج الذى تسلكه الأمة فى بناء نفسها للقيام به فى محيطها الإقليمى أو على المستوى العالمى، ولذا نرى أن كل أمة ذات نهج فكرى مميز لشخصيتها تجعل التاريخ مادة بانية لهذا النهج الذى ارتضته.

ومن هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس، كان الإمام على عليه السلام يتعامل فى توجيهه الفكرى، وفى وعظه، وفى تعليمه وتوجيهه السياسى مع التاريخ، وكان يوجه المسلمين إلى أن يعوا التاريخ على هذا الأساس، وأن

يتعاملوا مع التاريخ من هذا المنطلق الذى يخدم الأخلاقية والرسالة.

٥- الرياضيات والعلوم : فقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قوله :« علمنى رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لى من كل باب ألف باب». إن هذا النوع من التعليم لا يتوصل اليه إلا من زوال التزكية، تزكية النفس وتطهيرها، ولا يعلم كيفية انفتاح ألف باب من العلم من كل باب إلا من أيقن أن العلم نور يقذفه الله فى قلب من يشاء، وذلك بتطهير نفسه من الدنس والرجس، وما أصعب ذلك ولا يقوى عليه إلا الأقلون (٦٩). وقد قال الله عز وجل :(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور). وقد أورد بعض الباحثين عددا من الأمثلة التى رووا فيها كيف أن الإمام قد استطاع أن يحل ما عرض عليه من مسائل رياضية بطريقة فريدة قد لا تتماثل مع الطرق القائمة لدى علماء الرياضيات المتخصصين، لكنها على أية حال تصل إلى الحل من باب آخر هو صحيح. ولا يتسع المقام لذكر العديد من هذه الأمثلة، فليرجع إليها من يريد الاستزادة، وسوف نكتفى بمثال واحد.(٧٠)

رجلان : ا، ب، كان لأحدهما (أ) خمسة أقراص من الخبز وللآخر (ب) ٣ أقراص، فجاءهم رجل ثالث وأخذ يأكل معهم، فلم يبق شئ، ودفع إليهم بعد الانتهاء ٨ دراهم، فقال (أ) لـ (ب) : خذ أنت ٣ دراهم واعطنى ٥، فأجابه (ب) : لا، أبيت إلا العدل ومر الحق، خذ ٤ واعطنى ٤ دراهم، فأجابه (أ) قائلا: كان لى ٥ أقراص وكان لك ٣، فكيف تأخذ نصف المبلغ، فأجابه (ب) : لنتحاكم عند على عليه السلام.

فجاءا عليا (ع) وعرضا عليه القضية، فخاطب الإمام الرجل (ب) وهو الذى كان معه ثلاثة أقراص قائلا: اقنع بما منحك صاحبك (أ). واقبل منه ٣

دراهم، فقال (ب) : لا والله، لا رضيت منه إلا بمر الحق، فقال على : وليس لك فى مر الحق إلا درهم واحد وله سبعة. فقال (ب) : سبحان الله يا أمير المؤمنين، هو (أى ا) يعرض على ٣ دراهم فلم أرض، وأشرت على بأخذها فلم أرض وتقول لى الآن : لا يجب لى فى مر الحق إلا درهم واحد؟إن عليا عليه السلام لم يفكر كما يفكر الرياضيون فى حل المسألة وإنما ارتجل ارتجالا بنهج غير مألوف، يمكن التحقق من نتيجته بالنهج الرياضى المعتاد.(٧١)

وروى البعض عن الإمام قوله : (فى التجارب علم مستأنف)، فهو بهذا القول يوجه الأنظار إلى قيمة الطريقة التجريبية فى البحث والنظر. كما روى عنه أنه سئل عن وزن فيل فطبق عليه المعنى المستفاد من قانون الطفو فى الفيزياء، وسئل عن ثقل قيد فى رجل أحدهم فعين ثقله دون إخراج القيد من رجل الرجل ... إلى غير ذلك من أمثلة لا يستطيع الباحث أن يؤكدها مكتفيا بنسبتها إلى راويها. (٧٢)

٦- الدراسات الأدبية : فيرى العقاد أنه رضي الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب. ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئل : من أشعر الشعراء ؟ قال : «إن القوم لم يجروا فى حلقة تعرف الغاية عند قصبتها، فإذا كان ولا بد فالملك الضليل». وهذا فيما يؤكد العقاد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب (المدارس) والأغراض الشعرية بين العرب، فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب.(٧٢)

والكلم الجوامع أو فرائد الحكمة فهى تسجل للإمام فى ثقافة الامم

عامة كما تسجل له فى ثقافة الأمة الإسلامية على مر العصور، فالكلم الجوامع التى رويت له طراز لا يفوقه طراز فى حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة، وقد قال الرسول -ﷺ- : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائل» ، فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام على فى حكمته التى تقارن بحكم أولئك الأنبياء فهى من طراز الحكم المأثور عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود. يزيد عليها أنها أبدع فى التعبير وأوفر نصيبا من ذوق الجمال كقوله مثلا: (من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة)، أو قوله (نفس المرء خطاه إلى أجله) أو قوله (المرء مخبوء تحت لسانه) أو قوله : (الحلم عشيرة) (٧٣).

٧-الدراسات التربوية والنفسية: فمعظم، إن لم يكن كل، ما أثر عن الإمام فى مختلف المواقف إنما له دلالاته التربوية والنفسية مما يشكل فى جملته قدوة رائعة تؤكد لنا جميعا أهمية وضرورة الدراسة التربوية والنفسية، ويطول بنا المقام لو حاولنا أن نوفى هذا الجانب حقه من البحث والدراسة، ويكفينا هنا أن نشير إلى موقفه المتوازن بين الدنيا وأن نغل غرائزنا وشهواتنا عن الإنطلاق. إن التحرر عن طريق الحرمان شئ عظيم ونبيل، ولكن أكثر الناس لا يستطيعونه، ولا يقوون علي احتماله. فهاهو عليه السلام يقرر فى إحدى كلماته المضيئة الهادية عقم كل محاولة ترمى إلى اقتطاع الانسان من واقعه : واقع جسمه وغرائزه ورغباته كإنسان، وواقع حياته ذات المطالب والحاجات، وواقع كينونته الاجتماعية. (٧٤)

يقرر عليه السلام عقم كل محاولة ترمى إلى اقتطاعه من هذا الواقع بالتنكر لغرائزه ورغباته وحاجات حياته، ولكن لماذا؟ لأن أسر هذه الغرائز والرغبات مودع فى طبيعة الإنسان، ولا يسعه التفلت من أسرها إلا بالاستحالة إلى ذات أخرى. قال عليه السلام : (الناس أبناء الدنيا ولا يلام

الرجل على حب أمه). كنى بذلك عن أن دوافع الانسان إلى إجابة حاجات نفسه وشهواتها مودعة فيه، وإذا كنت مودعة فيه فهى جزء من كيانه، وهى تسهم فى حبك جزء من نسيج وجوده الإنسانى، ولذلك فهو يحبها ويقبل عليها، ويأخذ بحظ منها، ولكن لا لوم عليه فى ذلك، فهو حينما يقبل عليها إنما يلبى بإقباله هاتفا ملحا لا قبل له بكتم صوته. (٧٥)

وكما قلنا فى مستهل الحديث فى هذا الجزء، أن تلك أمثلة ونماذج لآفاق نستدل من خلالها على أهمية اقتحام مثل تلك المجالات دراسة وبحثا، تعليما وتعلما.

٣ - الآثار التربوية للإمام على في الحضارة الإسلامية

نحن نعترف بداية أن العنوان الذى يحمله هذا الجزء من الدراسة هو (أكبر) من مضمونه (مضمون الدراسة) ، ذلك أن استقصاءه. مهمة عسيرة شاقة تحتاج إلى نفر من الباحثين يستغرقون زمنا طويلا ، ويستغرق ما يصلون إليه من نتائج ربما أضعاف صفحات هذه الدراسة في مجملها ، لكننا كما نشير في أكثر من موضع ، لا نستهدف دائما (استيفاء) ما نطرق من موضوعات استيفاء كاملا وإنما نحن (نثير) من القضايا أكثر مما نسوق الرأي الفاصل والنتيجة القاطعة ، وحسبنا من مهمتنا هذا الهدف، آملين أن يخطو باحثون آخرون خطوات تفصل وتشرح وتتعمق مثل هذه القضايا المثارة من خلال دراستنا .

أولا : التشيع والشيعة فى أصل معناها اللغوى إتباع الرجل وأنصاره ، وقد غلب هنا الإسم على من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار اسما خاصا لهم ، فإذا قيل فلان من الشيعة عرف أنه من شيعة (على) عليه السلام ، وفي القرآن الكريم في سورة الصافات ، آية ٨٣ : (وإن من شيعته

لإبراهيم) ، وقال تعالى فيما اقتضته من خبر موسى بن عمران عليه السلام في سورة القصص ، آية ١٥ (هذا من شيعته وهذا من عدوه). ويقول الشيخ محمد أبو الحسن بن موسى النوبختى في كتاب الفرق والمقالات (أصول الفرق أربع ومنها الشيعة ، فالشيعة هم فرقة على بن أبي طالب المسمون بشيعة على (ع) في زمن النبى (ص) منهم المقداد بن الأسود الكندى وسلمان الفارسى وأبو ذر جنادة وعمار بن ياسر ومن وافق مودته مودة على (ع) وهم أول من سمى باسم التشيع في هذه الأمة لأن اسم التشيع قديما كان لشيعة إبراهيم) . وذكر محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في ملله ونحله (والشيعه هم الذين شايعوا عليا (ع) وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصاية إما جليا وأما خفيا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بقية من عنده). [٧٤]

والشيعة كما هو معروف يعتقدون أن ما يقوم عليه الإسلام أصول ثلاثة : توحيد الله – نبوة خاتم الأنبياء (ص) – المعاد في يوم الجزاء ، وأن الإسلام هو الإقرار بالشهادتين وهى كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله (ص) وأن من قالها كان مسلما فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم وأن قوام مذهبهم بإضافة أصلين إلى الأصول الثلاثة وهما : عدل الله – إمامة الأئمة من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم .[٧٥]

وغنى عن البيان ما احتله الشيعة من مساحة معتبرة في التاريخ الحضارى للأمة الإسلامية، فمن عدد كبير من العلماء إلى عدد آخر من الفلاسفة والفقهاء والمربين ، صالوا وجالوا في آفاق البحث في مختلف العلوم والفنون ، وتركوا من الآثار الفكرية والعلمية ما لا يستطيع أحد أن ينكره حتى من قبل من ناصبوهم العداء. وهم بحكم (المذهبية) كان لابد أن يتوسلوا بالتربية والتعليم لنشر مذهبهم والدعوة له حيث أن أمرا مثل هذا

لا يتأتى بالعنف والقوة، وإنما هو بالإقناع والاقتناع والتمثل ، مما مكنهم من أن يتركوا بصمات واضحة على حركة التربية الإسلامية .

ثانيا : المدارس العلمية فقد مربنا كيف أرسى الإمام على عددا هاما من البذور التى أنبتت فيما بعد مدارس علمية في فروع شتى من المعرفة . وإذا كانت عنايتنا في الجزء السابق قد اتجهت إلى الكشف عن بعض جهود وأقوال الإمام العظيم ، يصبح من المهم في الجزء الحالى أن نشير إلى أمثلة من الرواد الأوائل الذين تتلمذوا على يديه وقبسوا من نور علمه. وليس من الضروري أن يكون تتلمذ هؤلاء قد جاء مباشرا في كل الأحوال ، إذ أن المبادئ التى وضعها الإمام على ، والطاقة التى فجرها والنهج الذى دل عليه ، قد حفز كثيرين إلى أن يشقوا طريقهم على طريق المعرفة والعلم والتربية .

وأبرز من يحسن التنويه به في هذا المقام هو الإمام جعفر الصادق ، فقد انصرف إلى العلم انصرافا كليا ، فلم يشغل نفسه بدعوة للخلافة ، ولا قيادة لأتباعه ليقضوا على سلطان الأمويين ، ولا سلطان العباسيين كما فعل أولاد عمومته محمد بن عبد الله وإبراهيم بن عبدالله ، بل انصرف للعلم بكليته ولم يذكر اسمه في الأحداث التى وقعت في عصره إلا إذا كانت ألما أو أسفا أو حزنا على الذين يقتلون من أئمة الهدى من ذوى قرباه. (٧٦)

وسواء كان انصرافه عن الإمرة وشدائدها تقية كما يقول الإمامية ، أم كان رغبة في العلم كسائر الأئمة كما يقول الجمهور ، فقد عكف على العلم عكوفه على العبادة ، وتلازم علمه مع عبادته ، حتى ما كان يرى إلا عابدا أو دارسا أو قارئا للقرآن ، أو راويا للحديث ، أو ناطقا بالحكمة التى أشرق بها قلبه واستنارت بها نفسه .

وقد كان مخلصا في طلب العلم ، لا يطلبه ليستطيل به على الناس ، ولا ليمارى ويجادل، بل ليبين الحقائق سائغة ، وقد كان يحدث تلاميذه واللائذين به والطائفين حول رحابه على الإخلاص في طلب العلم فكان يقول : "لا تطلب العلم لثلاث : لترائي به ، ولا لتباهي به ، ولا لتمارى به . ولا تدعه لثلاث : رغبة في الجهل ، وزهادة في العلم ، واستحياء من الناس ".(٧٧)

وتد خاض في عدة علوم ، وبلغ في أكثرها الذروة ، فهو نجم بين علماء الحديث ، وساد علماء عصره في الفقه حتى أنه كان يعلم اختلاف الفقهاء ، وكان العلماء يتلقون عنه التخريجات الفقهية وتفسير الآيات القرآنية المتعلقة بالأحكام الفقهية ، وكان يحث أصحابه ومريديه على طلب الفقه لأنه علم الدين .(٧٨) ولقد اشتهرت مناظرات الإمام الصادق حتى صار مصدرا للعرفان بين العلماء وكان مرجعا للعلماء في كل ما تعضل عليهم الإجابة عنه من أسئلة الزنادقة وتوجيهاتهم ، وقد كانوا يثيرون الشك في كل شئ ، ويستمسكون بأوهي العبارات ليثيروا غبارا حول الحقائق الإسلامية والوحدانية التى هي خاصة الإسلام . (٧٩)

وقد كان رضى الله عنه مهتما بدراسة الكون وما اشتمل عليه ، ويذكر الباحثون أن جابر ابن حيان نشر خمسمائة رسالة ذكر فيها أنه تلقاها عن أستاذه الصادق ، وقد أكد هذا المؤرخ المعروف ابن خلكان . (٨٠)

ثالثاً : الأراء التربوية : فهناك عدد من العلماء والمفكرين الذين ساروا على درب الإمام فاجتهدوا في مجال الرأى التربوى وأثمر اجتهادهم عن آراء لها قيمتها بالنسبة للعمل التربوى فمن ذلك الكتيب المنسوب إلى نصير الدين الطوسى بعنوان (آداب المتعلمين).

ومما ورد فيه تأكيد (وجوب) العلم على المسلم ، فالعلم الذى يفترض

على المكلف بعينه يجب تحصيله وجبره عليه إن لم يحصل ، والذي يكون الاحتياج به في الأحيان فرض على سبيل الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وإن لم يكن في البلد من يقوم به اشتركوا جميعا بتحصيله بالوجوب "، فينبغى لطالب العلم أن لا يغفل عن نفسه وما ينفعها وما يضرها في أولها وآخرها ، فيستجلب مما ينفعها ويجتنب ما يضرها لئلا يكون عقله وعمله حجة عليه فتزداد عقوبته " .(٨١)

وأوجب الطوسى على طالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه وما يحتاج إليه في أمور دينه في الحال ، ثم ما يحتاج إليه في المآل ، ويقدم علم التوحيد ، ويعرف الله تعالى بالدليل ، ويختار العتيق دون المحدثات ، ويختار المتون لا الحواشى ، وأما اختيار الأستاذ فينبغى أن يختار الأعلم والأورع والأسن، وينبغى أن يشاور في طلب أى علم يراد في المشى إلى تحصيله ، وإذا دخل المتعلم إلى بلد يطلب العلم فيها ألا يتعجل في الاختلاط بالعلماء قبل أن يستوثق من حسن الاختيار . (٨٢)

ونصح الطوسى طالب العلم بالجد والمواظبة والملازمة ، قيل : من طلب شيئا وجدّ وجد ، ومن قرع بابا ولجّ ولج ، وقيل : بقدر ما سعى ينال ، وقيل : يحتاج في التعليم إلى جد الثلاثة : المتعلم ، والأستاذ ، والأب إن كان في الحياة . ولابد لطالب العلم من المواظبة على الدرس ، والتكرار في أول الليل وآخره ، فإن بين العشائين ووقت السحر وقت مبارك .(٨٣)

ولابد لطالب العلم من المطارحة والمناظرة ، فينبغى أن يكون بالإنصاف والتأنى والتأمل ، فيحترز عن الشغب والغضب ، فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة ، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب ، وذلك إنما يحصل بالتأمل والإنصاف ، ولا يحصل ذلك بالغضب والشغب والمشقة،

وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار لأن فيه تكرارا مع زيادة ، قيل : مطارحة ساعة خير من تكرار شهر ، لكن إذا كان مع منصف سليم الطبع. وحذر الطوسى من المذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع " فإن الطبيعة مسترقة والأخلاق متعدية ، والمجاورة مؤثرة ".(٨٤)

وينبغى أن يكون صاحب العلم مشفقا ناصحا وغير حاسد ، فالحسد يضر ولا ينفع ، بل يسعى بنية التحصيل ، وينبغى على المعلم أن يحفز تلاميذه على أن يتفوقوا على غيرهم من طلبة العلم . وينبغى لطالب العلم أن لا ينازع أحدا ولا يخاصمه لأنه يضيع أوقاته ، فالمحسن سيجزى بإحسانه والمسئ ستكفيه مساءته. (٨٥)

وأوجب مفكرنا على طالب العلم أن يكون مستفيدا في كل وقت حتى يحصل له الفضل . وينبغى لطالب العلم أن يغتنم الشيوخ ويستفيد منهم ، ولا يتحسر لكل مافات ، بل يغتنم ما حصل له في الحال والاستقبال . (٨٦)

رابعاً : مراكز التعليم : وأول هذه المراكز ، الكتاتيب ، لكننا لا نستطيع أن نجزم بوجود كتاتيب اختص بها الشيعة دون غيرهم من سائر المسلمين ، ولعل السبب الرئيسى لذلك أن المادة الأساسية للتعليم على هذا المستوى كانت تدور حول القرآن الكريم وهو القاعدة المشتركة بين مختلف الملل والنحل والمذاهب الإسلامية . كذلك فإن التعليم بهذه المرحلة كان يتركز أيضا حول اللغة العربية قراءة ونحوا ، وهذا الجانب أيضا لا خلاف عليه بين المذاهب الدينية لكن ذلك لا يمنع وجود تعليم على هذا المستوى بصورة فردية خاصة في بعض بيوت الشيعة ، فالإمام الصادق أو كل تعليم أولاده لمؤدب ، وكان أبو داود سهل بن محمد الشاعر مؤدب سيف الدولة ابن حمدان ، وكان محمد بن الحسين الذى عرف فيما بعد بالشريف

الرضى قد أحضر إلى ابن السيرافي النحوى وهو طفل جدا لم يبلغ عمره عشر سنين فلقنه النحو وقعد يوما معه في الحلقة فذاكره بشئ من الإعراب على " عادة التعليم ." .(٨٧)

ودأب الأئمة وعلماء الشيعة على تعليم أتباعهم في المساجد ، ومن شيوخ الشيعة الذين تولوا التعليم في المسجد أبان بن تغلب الجريرى ، قال الباقر (ع) لابان "اجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإني أحب أن يرى في شيعتى مثلك ". وكان عبد الله العبدى " قارئا يقرئ في مسجد الكوفة ، له كتاب يرويه عدة من أصحابنا ". روى الصدوق أن على بن العباس قال " حدثنا القاسم بن الربيع الصحاف عن محمد بن سنان وحدثنا على ابن أحمد بن عبد الله البرقي وعلى بن عيسى المجاور في مسجد الكوفة .. " . وذات مرة قال الفضل بن شاذان " كنت في قطيعة الربيع في مسجد الربيع أقرأ على مقرئ " .(٨٨)

ويعتبر مسجد الكوفة في مقدمة المراكز التعليمية التى تمثل طاقة إشعاع لنهج الإمام على حتى أصبح مجمع أهل العلم من الشيعة باعتباره من أهم المواقع ، فالكوفة حاضرة خلافة الإمام ومهد شيعته وشيعة أبنائه من بعده ، فلا غرو إذن أن تكون موطنا لعلماء الشيعة ، وأن يكون المسجد هو المكان الذى يقومون فيه بتعليم وتدريس علوم آل البيت ، ولهذا يقول الحسن بن على الوشاء : "إنى أدركت في هذا المسجد - يعنى مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كل يقول : حدثنى جعفر بن محمد عليه السلام "، ولهذا شهد هذا المسجد الكثير من مظاهر النهضة العلمية والأدبية ونشطت فيه المجالس العلمية وحلقات الدرس ، وكان الكميت الشاعر من أبرز معلمى العراق ، فكان يجلس في مسجد الكوفة لتعليم الصبيان . (٨٩)

وقد اتخذ أئمة الشيعة وشيوخهم منازلهم مكانا للدرس والتعليم فكان منزل الإمام على بن الحسين يزدحم فيه طلاب العلم والوافدون عليه من كل مكان حيث يلتف حوله طلاب العلم والمعرفة . وكذلك كانت دار الإمام محمد الباقر ، فكان مقصد العلماء من كل بلاد العالم الإسلامى ، وما زار أحد المدينة إلا عرج على بيت محمد الباقر يأخذ عنه .(٩٠) وكانت دار السيد المرتضى دار علم ومناظرة " فكان منزله دارا للضيافة ومدرسة للتعلم والمدارسة ، ينقطع فيه التلاميذ والطلاب والمريدون ، ويستروح في رحاله الوافدون من شتى الجهات .. بل إنه جعل للكثير من تلامذته مرتبات منظمة وحبوسا موقوفة عليهم .. " وما كتابه الأمالى إلا مجالس أملاها على طلابه في داره ، ولما فصل الفصيحى من النظامية فإن أفواجا من المتعلمين راحوا يقصدونه في داره ليواصلوا القراءة عليه (٩١).

وظهرت طائفة أخرى من المراكز العلمية سميت بدور العلم وكانت معاهد علمية ذات صلة بالتعليم مستقلة عن المسجد أسسها أفراد من الشيعة كما أسس أفراد من السنة عددا منها كذلك، وقد أصبحت المؤسسات المذكورة تسهم بعملية التعليم بجانب الأمكنة التقليدية أمثال المساجد ، فدور العلم أنسب لوجود الكتب ووسائل المطالعة الأخرى وربما السكنى والعيش فيها من المساجد، ولأن الشيعة لم يكونوا في الغالب أحرارا في تعليم قواعد مذهبم فى المساجد العامة من جهة أخرى . وحتى بعد توفر الحرية النسبية لهم في العهد البويهى أصبحت المساجد غير مناسبة في القرن الرابع الهجرى لأن التعليم أصبح معقدا وقد يكون مصحوبا بجدل ومناقشات تكون سببا في تكدير راحة المصلين في المسجد الذى لم ينشأ في الأصل لغرض تعليمى(٩٢).

خامساً : انتشار العلماء : والعلماء إذا كان من الممكن أن نستخدم بعض التشبيهات البيانية (مصابيح) تشع نور العلم أينما حلت ، وتكاثرهم في مكان ، شاهد هام يمكن من خلاله أن نستدل على مدى حرية الحركة العلمية في الموقع الذى شهد هذا التكاثر ، والبذور الأولى التى ألقاها الإمام كان لابد أن يتواصل نماؤها عبر القرون والأعوام تعطى تقوى وتبث علما وهدى وتربى تلاميذ ينمون بدورهم ليصيروا فيما بعد معلمين وأساتذة يربون تلاميذ آخرين .. وهكذا ولقد كانت النجف الأشرف غنية بالعلماء و المفكرين الذين ربواً اجيالا عديدة كان لها أكبر الأثر في حركة التربية الإسلامية .

ويأتى العلامة الحلى في مقدمة العلماء الذين شكلوا قوى تربوية موجهة ، وخاصة فيما تميز به من قوة الحجة ومتانة المنطق ومنهجية التفكير مما ينعكس واضحا على مؤلفاته ، فله على سبيل المثال (منهاج اليقين في أصول الدين) ، و(الأبحاث المفيدة في تحصيل العقيدة) و(نهج الحق وكشف الصدق) .. (٩٣) إلى غير ذلك من المؤلفات التى بثت العديد من الأصول المنهجية والقواعد الفكرية مما يساعده على تصحيح التفكير وبنائه على أسس عقلية .

والسر في نجاح آثاره واستمرارها عقودا عدة دون أن تفقد أصالتها وحيوتها ، بل وتستمر إلى ما هو أبعد زمنا ، أن مدرسته الفكرية ترتكز على الاستقلال في الرأي ، وإعمال العقل والنظر ، قال نفر من أتباع المذاهب : إن العلامة حصر نشاطه العلمى بتأييد مذهب التشيع وصرف كل همه واهتمامه إلى انتصاره على بقية المذاهب ، ووصفه بعضهم بالمتعصب ، وآخر بالمتحامل وثالث بطاغية الشيعة ، وقد جانب هؤلاء الصواب ، فقد

كان الرجل عالما كبيرا لا يميل إلى التعصب، يعشق البحث عن الحقيقة [٩٤]

ومن العلماء أيضا : الشيخ مرتضى الأنصارى . ويستطيع العارف الخبير أن يدرك من النظرة الأولى إلى كتبه أنه لم يكن عظيما تميز بالحفظ وقوة الذاكرة فقط، بل كان عظيما أيضا لشخصيته المستقلة التى لا تعتمد على غيرها ويعتمد عليها الغير ، ولفكره الناقد الذى كان يتصدى بجرأة للقدماء والمحدثين ، متفرقين ومجتمعين ، وقد تخرج عليه أكثر الفحول مثل الميرزا الشيرازى ، والميرزا حبيب الله الرشتى ، والسيد حسين الترك ، والشربيانى ، والمقمقانى ، والميرزا أبو القاسم صاحب الهداية ، وانتشر تلاميذه ، وذاعت آثاره في الآفاق ، وعاش مع ذلك عيشة الفقراء المعدمين ، وقد توفي عام ١٢٨١هـ . [٩٥]

سادساً : النزعة العقلية: ولسنا في حاجة إلى أن نفيض القول في أهمية وضرورة النهج العقلي في عملية بناء الإنسان ، وإنما يكفي هنا أن نشير إلي أهمية هذه القضية في موضوعنا الحالى بصفة خاصة لما يتوهمه كثيرون بكل أسف من تضاد بين الدين والعقل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن تربية الإنسان إنما تفضل بمقدار الجهد المبذول لتربية هذا الجانب الذى يجعل من الإنسان إنسانا، ألا وهو العقل .

ولقد وصل الأمر بالثقة بالعقل إلى الحد الذى جعل الشيعة الإمامية يقولون بالملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع ، على أساس أن كل ما استقل العقل بدركه ، وحكم بمدح فاعله أو ذمه فلابد أن يكون حكم الشارع على طبقه ، ولا يمكن أن يخالفه بأى حال من الأحوال سواء كان المدرك من الأصول أو الفروع ، فالعقل على هذا الوجه دليل مقرر للأحكام الشرعية

كالكتاب والسنة على حد سواء ، ويستحق من أطاعه المنح والثواب أو الذم والعقاب من الله تعالى لأنه رسوله الباطن إلى الناس كافة ، والحجة بينه وبين عباده ، ولا يخفى أن هذا الوجه يتمشى مع كل القائلين بالملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع من مسلمين وغيرهم . (٩٦)

ومما ذكره القاسم الرسى (المتوفي عام ٢٤٦هـ) أن الله خلق عباده المكلفين لعبادته ، والعبادة على ثلاثة وجوه / أولها : معرفة الله . والثانى : معرفة مايرضيه وما يسخطه ، والوجه الثالث : اتباع ما يرضيه واجتناب ما يسخطه . وقد احتج المعبود على العباد بثلاث حجج : العقل والكتاب والرسول، بحجة العقل يعرف به المعبود، وبحجة الكتاب تتم معرفة التعبد ، وجاءت حجة الرسول بمعرفة العبادة ، والعقل أمل الحجتين الأخيرتين لأنهما عرفا به ولم يعرف بهما ، ثم يأتي الإجماع حجة رابعة مشتملة على جميع الحجج الثلاث وعائدة إليها. (٩٧)

وأكد يحيى بن الحسين ، الملقب بالهادى إلى الحق (٢٤٥ - ٢٩٨هـ) على حرية إرادة الإنسان بأدلة عقلية ، بالإضافة إلى الأدلة النقلية ، ومن أدلته العقلية أن الأعمال جميعا لو كانت بقضائه وقدره وأنه سبحانه شاءها وأرادها ، لما كان بين الطاعة والمعصية فرق ، ولكان من عمل شيئا من الفعلين فهو لله مطيع ولإرادته منفذ ولمشيئته مؤد. ولو أن الله قضى على قوم بالمعصية لا يقدرون عمل غيرها ، وقضى على آخرين بالطاعة له وبالعمل بما يرضيه . فإلى من أرسل الأنبياء وإلى من دعوا ومن خاطبوا وعلى من احتجوا ، وما وجه حاجة العباد إليهم وقد أرسلهم الله إلى قوم قد منعهم من طاعته. (٩٨)

والثقة بالعقل تعطى العمل التربوى مددا بغير حدود إذ أنها تلقى

مسؤولية كبرى على عمل الإنسان وسلوكه ومما يقتضى إعدادا وتكوينا وتنشئة سليمة .

وماذا بعد ؟

إن الناظر إلى الواقع المعاصر لمجمل الشعوب الإسلامية لابد أن تفزعه الصورة التى أصبحت عليها ، وليس من المعقول بأى حال من الأحوال أن تتجمع بين أيدينا تلك الثروة الفكرية الهائلة من كتاب وسنة وأعمال فكرية وجهود عملية لمسنا أمثلة لها لدى الإمام العظيم على بن أبى طالب ومن سار على دربه على طريق الحق ، دون أن يستنفرنا هذا لمعاودة النهوض وتجاوز الواقع بكل ما يحمله من مرارة ، واستيعاب خبرة الماضى بكل ما تحمله من سلبيات أو إيجابيات .

والمتأمل في قوله عز وجل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) يجد أنها تقول له : لابد لك ، لكى تغير الواقع ، من أن تغير نفسك من الداخل ، من خلال تغيير تصوراتك وأفكارك ومشاعرك تجاه القضايا التى تواجهك ، أو الأشياء التى تحيط بك ، أو الأشخاص الذين يعيشون معك ، وقد حاول الإسلام أن يضع للإنسان منهجا تربويا تغييريا ، يخطط فيه للإنسان المنهج الذى يواجه فيه الكون بدقة وتأمل ، ليواجه - من خلاله - الله ، بوعى ومعرفة ، ليلتقى - على أساس ذلك - بالمسؤولية العامة عن الحياة والإنسان من خلال المفاهيم الكبيرة ، والشريعة الواسعة الممتدة في كل مجال من مجالاته العلمية ، ليلتقى التغيير الفكرى بالتغيير العملى ويحقق الصياغة الإسلامية الجديدة للإنسان على صورة الحق[٩٩].

ولكن .. إذا كانت الحياة تبدأ من الداخل ، في عملية انطلاق وامتداد ، فقد يحدث أن يخضع الداخل لتأثيرات الضغوط الخارجية للبيئة وغيرها ،

كنتيجة طبيعية لتأثر الإنسان نفسيا وفكريا بما يحدث حوله، ولذلك حاول الإسلام أن يحيط الواقع الحياتى للإنسان المسلم بالعناصر الرادعة التى تحارب الانحراف من جهة ، وتخفف الضغط على الداخل من جهة أخرى وبذلك كان الاتجاه الإسلامى منطلقا نحو الداخل ليبنى القاعدة النفسية للإنسان، كما كان الردع الخارجى، طريقة من طرق حماية القاعدة وتقويتها. (١٠٠)

إن هذا المنطق هو الذى يجعلنا نستجيب استجابة تقوم على الإيمان والاقتناع بتلك الدعوة التى أطلقها بعض العلماء والمفكرين بالعودة إلى الذات، حيث يعنى بها العودة إلى الثقافة الإسلامية والايديولوجية الإسلامية، وإلى الإسلام لا كتقليد أو وراثة أو نظام عقيدة موجود بالفعل فى المجتمع، بل إلى الإسلام كايديولوجية وإيمان بعث الوعى وأحدث المعجزة بالفعل فى هذه المجتمعات، ليس الأمر فى الحقيقة استنادا إلى دين موروث أو إحساس روحانى جاف، على أساس شعار المفكرين الذى طرح على المستوى العالمى، وعلى أساس تلك القضية التى تناولها مؤلف كتاب (المسيح يصلب من جديد)، وكما رفع نفس الشعار إيما سيزار فى أمريكا اللاتينية، وفرانز فانون مواطن جزر الأنتيل. (١٠١)

والمسألة بهذه الصورة إنما هى على درجة كبيرة من العموم تحتاج معه إلى تضافر الجهود لقدر من التحديد الذى يشير إلى مسارات العمل والتنفيذ، فهل هذه الذات هى ذات دينية، هل هى ذات إسلامية، أى إسلام؟ وأى مذهب؟ نحن نعلم أن هذه الذات الثقافية عندنا ذات تجلت فى العالم كذات عظيمة عن طريق جامعاتنا الموجودة فى الألف سنة الأخيرة وفى آدابنا طوال الألف سنة الأخيرة وعن طريق مفاخرنا وتاريخنا وحضارتنا ومواهبنا واستعدادتنا المتنوعة من عسكرية ورياضية وعلمية وفلكية وأدبية وعرفانية فى هذه الألف ومائة سنة الأخيرة، بحيث أستطيع أمام أى أوربى

ينتسب إلى عصر النهضة أن أقول له : إننى فرد منتسب إلى ثقافة إسلامية عظيمة وهؤلاء البشر، وهذه الشخصيات، وهذه الحضارة والشخصية وهذا الاستعداد للتوالد والخصب والمواصلة فى وفى حضارتى، لكن المهم هو : أى إسلام؟ وأي مذهب؟ هل هو ما هو موجود الآن؟ هل هو ما هو موجود الآن فى صميم المجتمع بصورة تكرارية وعفوية ؟ إن العودة إليه من قبيل تحصيل الحاصل. (١٠٢)

فلا بد إذن من معين آخر - غير المفاهيم المادية عن الكون - يستقى منه النظام التربوى، ولا بد من وعى تربوى صحيح ينبثق عن مفاهيم حقيقية للحياة، ويتبنى القضية الإنسانية الكبرى، ويسعى إلى تحقيقها على قاعدة تلك المفاهيم، ويدرس مسائل العالم من هذه الزاوية وعند اكتمال هذا الوعى التربوى فى العالم واكتساحه لكل وعى تربوى آخر، وغزوه لكل مفهوم للحياة لا يندمج بقاعدته الرئيسية، يمكن أن يدخل العالم فى حياة جديدة، مشرقة بالنور عامرة بالسعادة .(١٠٣)

إن هذا الوعى التربوى العميق هو رسالة السلام الحقيقى فى العالم، إن هذه الرسالة المنقذة لهى رسالة الإسلام الخالدة التى استمدت نظامها التربوى - المختلف، عن كل ما نعرفه من أنظمة - من قاعدة فكرية جديدة للحياة والكون.

وقد أوجد الإسلام بتلك القاعدة الفكرية النظرة الصحيحة للإنسان إلى حياته، فجعله يؤمن بأن حياته منبثقة عن مبدأ مطلق الكمال، وأنها إعداد للإنسان إلى عالم لا عناء فيه ولا شقاء، ونصب له مقياسا خلقيا جديدا فى كل خطواته وأدواره، وهو : رضا الله تعالى، فليس كل ما تفرضه المصلحة الشخصية جائز، وكل ما يؤدى إلى خسارة شخصية فهو محرم غير مستساغ، بل الهدف الذى رسمه الإسلام للإنسان فى حياته هو الرضا

الهـــوامش

١- عبد الرحمن الشرقاوى : على أمام المتقين ، القاهرة ، مكتبة غريب ، د. ت، ص١٢

٢- المرجع السابق، ص١٣.

٣- المرجع السابق ، ص١٤.

٤- المرجع السابق ، ص١٥.

٥- المرجع السابق، ص١٧.

٦- عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام ، القاهرة ، دار المعارف (العدد ١١٣) ، ص٦.

٧- المرجع السابق ، ص٧ .

٨- المرجع السابق ، ص٨.

٩- المرجع السابق، ص١٢.

١٠- المرجع السابق، ص١٥.

١١- المرجع السابق ، ص١٦.

١٢- عباس محمود العقاد: فاطمة الزهراء والفاطميون ، القاهرة ، كتاب الهلال (العدد٢٧) . دار الهلال ، ، يونية ١٩٥٣ ،ص٣١ .

١٣- المرجع السابق، ص٤١.

١٤- المرجع السابق ، ص٢٤ .

١٥- عباس محمود العقاد : أبو الشهداء ، الحسين بن على . القاهرة، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال (٤) ، يولية ١٩٥١، ص٣٩ .

١٦- المرجع السابق، ص٤١ .

١٧- المرجع السابق، ص٢٤ .

١٨- محمد مهدى شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام على ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥، ص٢٥ .

١٩- المرجع السابق ، ص٢٦ .

٢٠- المرجع السابق ، ص٤٩ .

٢١- المرجع السابق، ص٥٠ .

٢٢- محمد مهدى شمس الدين : دراسات في نهج البلاغة ، بيروت ، الدار الإسلامية ، ١٩٨١، ص٣٢.

٢٣- المرجع السابق، ص٤٤ .

٢٤- المرجع السابق ، ص٤٦.

٢٥- محمد باقر الصدر : موجز في أصول الدين ، مطابع صوت الخليج ، د.ت، ص٨٨ .

٢٦- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ، د.ت ، جـ٦، ص٣٧٩ .

٢٧- علاء الدين السيد أمير محمد القزوينى : الفكر التربوى عند الشريعة الأمامية ، الكويت، مكتبة الفقيه ، ١٩٨٦، ص١٥٦.

٢٨- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، مطبعة المأمون ، د. ت ، جـ١، ص٦٥

٢٩- الفكر التربوى عند الشيعة الأمامية ، ص١٥٩ .

٣٠- على محمد الحسين الأديب : منهج التربية عند الإمام على ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، ١٩٧٩، ص٣٣ .

٣١- المرجع السابق ، ص٣٤ .

٣٢- الفكر التربوى عند الشيعة الإمامية ، ص١٤٩ ،

٣٣- المرجع السابق ، ص١٥٠ .

٢٤- منهج التربية عند الإمامية ، ص٣٦ .

٣٥- المرجع السابق ، ص٣٧ .

٣٦- المرجع السابق ، ص٤٣ .

٣٧- المرجع السابق، ص٤٨ .

٣٨- الفكر التربوى عند الشيعة الأمامية ، ص١٦٢ .

٣٩- المرجع السابق، ص ١٦٣ .

٤٠- باقر شريف القرشى : النظام التربوى في الإسلام ، بيروت ، دار التعارف للمطبوعات . ١٩٧٩، ص٨٣ .

٤١- الفكر التربوى عند الشيعة الإمامية ، ص١٨٩ .

٤٢- الشيخ محمد تقى فلسفى ، الطفل بين الوراثة والتربية ، بيروت ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ١٩٦٩، جـ٢، ص١٥٤ .

٤٣- المرجع السابق، ص١٦٣ .

٤٤- المرجع السابق ، ص١٨٢ .

٤٥- دراسات في نهج البلاغة ، ص٥٢.

٤٦- حركة التاريخ عند الإمام على ، ص٤٠، ٤٢ .

٤٧- المرجع السابق، ص٤٣ .

٤٨- المرجع السابق، ص٤٤.

٤٩- أحمد أمين : التكامل في الإسلام ، بيروت ، دار المعرفة ، د. ت ، جـ١، ص١٣٥ .

٥٠- الفكر التربوى عند الشيعة الإمامية ، ص ١٨٢ .

٥١- المرجع السابق، ص١٨٥ .

٥٢- التكامل في الأسلام ، جـ١ ، ص٤٣.

٥٣- البقرة / ١٧٠ . ٥٤- المائدة / ١٠٤ .

٥٥- محمد باقر الصدر : المدرسة الإسلامية ، بيروت ، دار الزهراء ، ١٩٨٥ ، ص١٢٦.

٥٦- الفكر التربوى عند الشيعة الإمامية ، ص١٧٦ .

٥٧- سعيد إسماعيل على : العقلاقة بين التربية والفلسفة من منظور الأعتزال، في: دراسات فلسفية ، تصدير ابراهيم مدكور ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٦، ص١١٤.

٥٨- الفكر التربوى عند الشيعة الأمامية ، ص١٧٧.

٥٩- محمد أبو زهرة : الأمام الصادق ، القاهرة ، دار الفكر العربى، د. ت، ص١٤١

٦٠- محمود حب الله : موقف الإسلام من المعرفة ، في : محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢، ص ٣٦ .

٦١- السيد أمير على : روح الإسلام ، ترجمة محمود أمين الشريف القاهرة ، المطبعة النموذجية ، ص٦٣.

٦٢- محمد عمارة : المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ، بيروت ، المؤسسة العربية ، ١٩٧٢، ص٢٠ .

٦٣- علاء الدين سيد أمير محمد القزوينى : الشيعة الأمامية ونشأة العلوم الإسلامية ، القاهرة، دار النهضة العربية ، ١٩٨٦، ص٣٥.

٦٤- المرجع السابق ، ص٦٦ .

٦٥- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٤٨، ص٥١٤ .

٦٦- الشيعة الإمامية ونشأة العلوم الأسلامية ، ص٩٥ .

٦٧- حركة التاريخ عند الإمام علي ، ص٨٢ .

٦٨- المرجع السابق ، ص٨٦.

٦٩- أحمد أمين : التكامل في الإسلام ، جـ٢، ص٤١٢ .

٧٠- المرجع السابق ، ص٤١٧ .

٧١- المرجع السابق، ص٤١٨ .

٧٢- عباس محمود العقاد : عبقرية الأمام على ، ص ١٤٠ ،

٧٣- المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

٧٤- السيد أمير محمد الكاظمى القزوينى : الشيعة في عقائدهم وأحكامهم ، بيروت ، دار الزهراء ، ١٩٧٧ ، ص١٧ .

٧٥- المرجع السابق ، ص٢٣ .

٧٦- محمد أبو زهرة : الإمام الصادق ، ص٩٣ .

٧٧- المرجع السابق، ص٩٤ .

٧٨- المرجع السابق، ص٩٥ .

٧٩- المرجع السابق ، ص٩٩ .

٨٠- المرجع السابق ، ص١٠٠.

٨١- أحمد عبد الغفور عطار : آداب المتعلمين ، ورسائل أخرى في التربية الإسلامية ، بيروت د. ن ، ص١٤٤ .

٨٢- المرجع السابق ، ص١٤٥

٨٣- المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

٨٤- المرجع السابق ،ص ١٤٨ .

٨٥- المرجع السابق ، ص١٥١ .

٨٦- المرجع السابق ، ص١٥٢ .

٨٧- عبد الله فياض : تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم من الشيعة بين عهدى الصادق والطوسى ، بغداد ، مطبعة أسعد ، ١٩٧٢ ، ص٦٣.

٨٨- المرجع السابق ، ص٦٧ .

٨٩- الفكر التربوى عند الشيعة الأمامية ، ص٣٣٣ .

٩٠- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، القاهرة دار الفكر العربى ، د.ت ، ص٦٨٨

٩١- الفكر التربوى عند الشيعة الإمامية ، ص٣٤٣ .

٩٢- عبد الله فياض : تاريخ التربية عند الأمامية ، ص٩٥ .

٩٣- محمد جواد مغنية : مع علماء النجف الأشراف ، بيروت ، دار الجواد ١٩٨٤، ص٣٩ .

٩٤ - المرجع السابق ، ص٤٠ .

٩٥- المرجع السابق ، ص٨٩ .

٩٦- رشدى محمد عرسان : العقل عند الشيعة الإمامية ، بغداد ، مطبعة دار السلام، ١٩٧٣، ص١٨٦ .

٩٨- المرجع السابق ، ص١٦٥ .

٩٩- محمد حسين فضل الله : الإسلام ومنطق القوة ، بيروت ، الدار الإسلامية ، ١٩٧٩، ص٢٣٠ .

١٠٠- المرجع السابق ، ص٢٣١ .

١٠١- على شريعتى : العودة إلى الذات ، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا ، القاهرة ، الزهراء للإعلام العربى ، ١٩٨٦ ، ص٣٦.

١٠٢- المرجع السابق، ص٥١ .

١٠٣- محمد باقر الصدر : المدرسة الإسلامية ، ص٨٨ .

١٠٤- المرجع السابق ، ص٨٩.

التوجيه الإسلامى لمجال لأصول التربية *

١- مقدمــات أساسيـة

علم أصول التربية بين العلوم التربوية :

لا نود في هذه الدراسة محددة الغرض ، أن نستغرق في بيان قيمة التربية ووظيفتها بالنسبة للإنسان والمجتمع وقتا طويلا ، وإنما يكفينا هنا الإشارة السريعة إلى أن العملية التربوية هى التى تكسب الإنسان إنسانيته بمقدار ما تستثمر ما وهبه الله له من إمكانات تربوية تتمثل في قدرته الهائلة على التعلم واكتساب كم هائل من المعارف والمعلومات والحقائق والاتجاهات والميول والقيم العادات والمهارات.

وبفضل هذه (الإنسانية) يستطيع الإنسان أن يتواصل مع غيره من أبناء البشر ، أفقيا عبر المكان ، ورأسيا عبر الزمان ، فتتراكم الخبرة وينمو العلم وتتقدم البشرية وتتلاقح المجتمعات الإنسانية فكريا وتطبيقيا.

ونتيجة لهذه الأهمية وتلك القيمة للعملية التربوية للإنسان ، كان طبيعيا أن يخضعها هي نفسها لتأملاته لينتهى نتيجة هذه التأملات بكم من المعرفة التربوية تتناول تصوره للأسس التى ينبغى أن تقوم عليها التربية والطريقة المثلى للتعليم ، والعلوم التى يصح للإنسان أن يتعلمها ، وأولويات التعليم بالنسبة لهذه العلوم من حيث مرحلة النمو ومن حيث الحاجة الاجتماعية ، والتصور الخاص بطبيعة التلميذ المتعلم ، إلى غير ذلك من نقاط اجتهد في التفكير فيها عدد كبير من المفكرين الكبار الذين شهدناهم على مسرح الفكر البشرى مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فضلا عن مفكرى العالم الإسلامى.

---

* مؤتمر التوجيه الإسلامى للعلوم ، إتحاد الجامعات الإسلامية، مع جامعة الأزهر، أكتوبر عام١٩٩٢م

وكانت المعارف التى يصل اليها المفكرون ، إنما هى محصلة (تأملات) ، جعلت من التربية أسيرة (الخبرة) وحدها دون أن تتمكن المعرفة التربوية من أن تغزو العمل التربوى لتفيده بنتائجها إلا فيما ندر.

ثم استطاع المنهج العلمى والمعرفة المضبوطة والمنطق العقلى الدقيق ، أن يخطو بالمعرفة التربوية خطوات هائلة إلى أمام لتكتسب صفتها (العلمية) حتى بدأ التربويون يتصورون أنهم قد اقتربوا من أن يحققوا حلمهم بأن تكون التربية (علما) ، لكنهم ، مع ذلك ، لم يصلوا إلى تحقيق هذا الطموح ، لا لعجز فيهم ولا لتأخر وانتكاس في تطور المعرفة التربوية، وإنما بسبب (المثال) و (النموذج) الذى قاسوا خطواتهم نحوه عليه.

فمنذ وقت طويل كان يتم مطابقة العلم مع الفيزياء ، وخاصة مع الميكانيكا ، وكانت الطريقة العلمية تطابق الأساليب التجريبية التى تجرى فيها الملاحظة تحت شروط منضبطة في العمل ، وقد أفسح ذلك مكانا لفكرة أن العلم هو أسلوب دقيق وتجريبى يؤدى الى اكتشاف " القوانين الطبيعية " ، وعندما تم اكتشاف فروع أخرى من المعرفة مثل علم طبقات الأرض ، وعلم النبات ، وعلم الأحياء ، وعلم الأجواء ، وعلم المحيطات ، وعلم الحياة، وفيما بعد الاقتصاد ، وعلم النفس والطب ، وحتى علم الاجتماع والعلوم السياسية ، وانضواؤها جميعا تحت تعريف العلم المتزايد في الاتساع ، لم يعد من الممكن النظر إليه كشئ دقيق ، ولم يعد من الممكن أيضا اكتشاف " القوانين الطبيعية" في المجالات المختلفة . إن عالم الأحياء ، أو عالم الأجواء ،أو العالم الاقتصادى سوف يجد نفسه في مواجهة موقف يتضمن مئات الملايين من العوامل. غير المنضبطة. وفي مثل تلك الظروف ، فإنه يكون من الممكن فقط الاستدلال على علاقات تجريبية أو إحصائية ، أو بالنسبة لبعض العلوم الأخرى ، فإنه يكون من الممكن تصنيفها على أساس الارتباطات أو مجرد الوصف.(١)

كذلك كان لابد للتربية أن تتأثر بما لها من علاقات عضوية بفروع المعرفة الأخرى المختلفة ، وبجوانب الحياة المتعددة - الثقافية والاقتصادية والسياسية ، وأصبحت بذلك مجالا أقرب إلى التكنولوجيا منها إلى علم مستقل بذاته ، له قوانينه الخاصة وحدوده الضيقة ، مثل الكيمياء والطبيعة ، فهى مجال تطبق فيه نتائج العلوم المختلفة تطبيقا فنيا ، مثلها في ذلك مثل مجال الزراعة ومجال الطب ، فالزراعة لا تعتبر علما بذاته ، إذ تفيد من علوم مختلفة في معالجة العناصر المكونة لها ، حيث أنها تتصل بالتربة وبنوع المحاصيل ، وبالمناخ ، والسوق وغير ذلك ، ولهذا تلجأ إلى علوم الحشرات ، وعلم الاقتصاد وغيرها مما يتصل بها، وهكذا بالنسبة لمجال الطب وموضوعه جسم الإنسان ، فهو ليس علما مستقلا وإنما يقوم على نتائج علوم مختلفة مثل علم التشريح ، وعلم الأمراض ، وعلم الأدوية ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، فيطبق نتائج هذه العلوم في تشخيص جسم الإنسان ودراسته ، وما يتعرض له من أمراض ويحللها ويصف لها العلاج.(٢)

ومن هنا نستطيع القول بأن التربية تستند إلى أصول مستمدة من العلوم والدراسات التى تفيد في فهم جوانبها المختلفة ، مثل علوم الدين والنفس والإجتماع ، والتاريخ والسياسة والاقتصاد والفلسفة والحياة وغيرها .

فلها أصولها الدينية التى تجعل - بالنسبة للمسلمين - من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أصلين تستمد منهما المقومات الأساسية (للمذهبية) أو (الإيديولوجية) التى تقيم عليها نظمها وتصوراتها المختلفة ، ولهذا نشأت علوم أخرى مثل : تاريخ التربية الإسلامية وفلسفة التربية الإسلامية وأصول التربية الإسلامية ، ونظم التعليم في العالم الإسلامى .

ولها أصولها الإجتماعية والثقافية ، تلك الأصول التى جعلت العملية

التربوية لا تدور حول الفرد وحده وإنما كذلك حول المجتمع ، فنشأ ما يسمى بعلم اجتماع التربية ، وأنثروبولوجيا التربية . ولها أصولها النفسية، على أساس أن (المتعلم) هو الوعاء الذى تصب فيه العملية التربوية نتائجها مما يوجب الوعى بقدرات هذا المتعلم واستعداداته وميوله وخصائص سلوكه وصحته النفسية وعلاقاته بغيره من الأفراد والجماعات ، مما تعنى به علوم النفس المختلفة ، فنشأ علم النفس التربوى الذى يعد جذعا رئيسيا تتفرع منه علوم أخرى .

وللتربية أصولها الفلسفية من حيث أن العملية التربوية إنما هي (تنفيذ) و (تشخيص) لإطار فكرى كلى عام يرسمه هذا المفكر أو ذاك لهذا المجتمع أو ذاك ومن ثم يكون له أثره وتشكيله لمسار العمل التربوى ، كما رأينا على سبيل المثال بالنسبة للمجتمعات التى انتهجت النهج الماركسى فترة من الزمان وصل إلى ما يزيد عن السبعين عاما في الاتحاد السوفيتى ، ومثلما حدث قبل ذلك في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشيستية.

.. وهكذا يمكن القول بالنسبة للأصول التاريخية والأصول الاقتصادية والأصول السياسية .

وربما نستنتج من هذا أن للتربية خصوصيتها ، لا استقلاليتها ، والخصوصية هى خصوصية الموضوع ، أو بعبارة أخرى خصوصية حدس التربوى الذى يدله على أن موضوعا ما يستحق الدراسة ، لأنه لا توجد طريقة بحث تصنع الموضوع ، كما لا تصنع الكلمات قصيدة شعر ، أما تصور الاستقلالية عن التخصصات الأخرى من أجل التخلص من (التبعية) للنظم المعرفية ، ومن أجل إلغاء التداخل بينها ، فهذا أمر لا جدوى منه . ونحن نعرف أن مؤرخا كبيراً مثل (توينبى) كان متفردا لأنه لحم بين التاريخ وبين بعض نظريات علم النفس الاجتماعى ، ومعظم آراء جون ديوى ، المربى الأمريكى الشهير تستند إلى علوم نفسية ونظريات فلسفية ومنطقية.(٣)

وعلم ، أو بمعنى أصح (مجال) أصول التربية ، بكشفه عن العلاقات والروابط بين النظم الاجتماعية المختلفة والعلوم المتصلة بها ، يعين (علوم) التربية الأخرى على حسن الوعى بحقيقة (المجتمع) الذى تعمل من أجله وفي ظله ، إن الدراسات الأصولية تحاول أن تجيب عن السؤال الهام والرئيسى الذى يواجه المربى ، وهو : لماذا نربى ؟ بينما نجد علما مثل المناهج يحاول الإجابة عن السؤال الأول : لماذا نعلم ؟

لماذا التوجيه الإسلامي لأصول التربية ؟

الأصل ، أن واجب كل مسلم أن يصدر فيما يفكر وفيما يعمل ، وبالتالى فيما يتعلم وفيما يعلم، من العقيدة التى يؤمن بها حتى يستكمل مقومات إيمانه بالإسلام ، لكننا جريا على سنة الإسلام نفسه من حيث أن القول لابد أن يرتبط (بالدليل) ، كان من الضرورى أن نسوق هنا بعضا مما يجعل من إعادة النظر في (أصول التربية) بوضعها الحالى أمرا ضروريا من خلال المنظور الإسلامى . ونقول (بعضا) لأن موضوع الدراسة كلها يحمل في كل سطورها هذه الأدلة والشواهد ، وما نسوقه هنا إنما على سبيل التمثيل والتكثيف.

إذا نظرنا إلى المجتمع الإسلامى المكون من عشرات الدول ، من خلال (مفهوم النظام المتكامل) ، فإن كل دولة فيه تكون نظاما فرعيا ، وكل نظام منها يتكون من عدة نظم فرعية ، كالنظام السياسى والنظام الاقتصادى ، والنظام الاجتماعى والنظام العسكرى ، وغير ذلك . وإذا كانت هذه الأنظمة الفرعية الصغرى والأنظمة الفرعية الأوسع ، والأنظمة السياسية القطرية تسير وفق أهداف موحدة ، قلت التناقضات بين سائر هذه الأنظمة ، وعزز بعضها بعضا ، أما إذا كانت التناقضات هى الغالبة ، والأهداف الكبرى غير متفق عليها ، فإن الأمة و المجتمع يعانيان تآكلا

داخليا ، وتصبح محصلة المجاهدة في الحياة والعمل والإنتاج من حيث الصورة الكلية للأمة ضئيلة ، إن لم يكن لا تأثير لها في الأحداث بالنسبة للأمم الأخرى خارج نطاق العالم الإسلامى. (٤) .

وإننا نخشى أن نقول إننا نعيش اليوم في مرحلة من أردأ المراحل في تاريخنا العربى والإسلامى ، حيث تعيش الأمة كلها فى أزمة ، أزمة داخلية ، وأزمة خارجية ، تعددت أسبابها وعواملها ، كان لها أثر كبير على المثقفين والمفكرين المسلمين المعاصرين الذين ولدوا في الأزمة ، وربما كانوا نتاج عملية التأزم ، بعضهم ثقافته أجنبية لا تمت إلى ثقافة الأمة بصلة ، فكيف يستطيع حل أزمة الأمة ؟ وبعضهم ثقافته قاصرة ، غير متكاملة ، تقصر عن معايشة العصر ، فتنعدم القدرة على الإسهام في مشكلات المجتمع ، أو تشكيله نحو نموذج مرغوب.(٥)

وأزمة الفكر الإسلامى المعاصرة هى اليوم أعمق ما تكون ليس بسبب العزلة الطويلة التى أورثت هذا الفكر عجزا وضمورا ، ولكن التفكير في سبل إصلاح هذا الفكر لم يتبين التغير الذى طرأ على ميدان المعرفة والثقافة في العالم المعاصر ولم يدرك نقاط القوة في أصول المعرفة الإسلامية ولم يتبين الدروس من تجارب الماضى ، ولذلك كثر التأكيد على الحاجة إلى فتح باب الاجتهاد أو التأكيد على أنه لم يغلق قط . ومع ذلك يظل الفكر عاجزا والاجتهاد مفقودا وإن بدت قبسات تظل استثناءات تلتصق بمصادفات التكوينات الخاصة بأصحابها دون أن تتحول إلى مدارس ومناهج في المعرفة والثقافة والفكر .(٦) .

إن الأزمة تكمن في انفصام العقل والنقل في أصل المعرفة لدى الأمة الإسلامية ، إن الأزمة تكمن في طبيعة منهاج الدراسة الإسلامية التى تتركز في علوم النصوص واللغة والمتون الفقهية الموروثة . الأزمة تكمن في أن

العقلية الإسلامية تتجه نحو الفقه بمفهومه التاريخى لكى يحل أزمة المعرفة والثقافة الإسلامية ويقدم الاجتهادات والحلول والبدائل الإسلامية الحضارية للأمة .(٧)

وقد يبدو من المفارقات أن نطالب بتوجيه التربية توجيها إسلاميا في ديار العرب والمسلمين ، ولكن سرعان ما تزول الدهشة ، حين نعلم أن معظم بلدان العالم الإسلامى في القرن الأخير ، قد ابتعدت عن تطبيق شرع الله ، لسبب أو لأخر ، فأصابها الضعف والهوان ، وأصاب نظام التربية والتعليم فيها ما أصاب الأمة الإسلامية نفسها من تمزق وضياع (٨) ، من عوامله :

– أن جميع الأقطار الإسلامية عانت لفترة طويلة من التخلف ، منذ بدء توقف الحضارة الإسلامية عن دورها القيادى بعد الغزوين المغولى والصليبى .

– أن الفترة التى سبقت عصر الاستعمار الحديث ، كانت فترة خمول حضارى وثقافى في العالم الإسلامى ، وإن النشاط الثقافى والعلمى كان قاصرا على الشروح والتقليد والتكرار

– أن أقطار العالم الإسلامى بدأت تقع منذ أواخر القرن الثامن عشر تحت سيطرة ونفوذ الدول الأوربية المستعمرة .(٩).

– لقد قامت محاولات إسلامية للتحرر من الاستعمار ، وإعادة الأمة الإسلامية أمة واحدة متحررة ، وإن القوى الإستعمارية حرصت كل الحرص على التصدى لهذه الحركات وإفشالها بكل الوسائل والإمكانات.

– أن الحركات الاستقلالية في جميع الأقطار الإسلامية قامت على آسس قومية أو إقليمية ضيقة محدودة . وظهرت في كل قطر قيادات تؤمن

بالواقع الانفصالى عن الأمة الإسلامية ، وبرزت إلى الوجود كيانات سياسية حددت لها معالم جغرافية تطورت مع بداية عهود الاستقلال ، ليصبح كل منها دولة ذات كيان اجتماعى واقتصادى مستقل .(١٠)

ويتفق علماء التربية على أنه لابد للمعلم من فلسفة في الحياة تمكنه من القيام بمهمته التربوية على الوجه الأمثل ، كما أنه لابد للتعليم من فلسفة واضحة تنبعث من تراث الإنسانية وقيمها وفي مناهجها وأساليبها ومختلف طرائقها ومعاييرها ، وفي كل أمر من أمورها . وعلى الرغم من ذلك فإن المتتبع لأمور التربية في بلداننا الإسلامية يجدها ، بصفة غالبة ، قد أصبحت علمانية ، خالية من الارتباط الصحيح بالعقيدة ، وأن معلمى اليوم في أغلبهم لا يملكون فلسفة تربوية محددة ، والقلة النادرة التى لها فلسفة منهم قد تبنت فلسفات مادية تناقض المقولات الأساسية للعقيدة الدينية.(١١)

وتفتقر النظم التعليمية السائدة – في أغلبها – إلى النظرة الإنسانية الشاملة ، وذلك لأنها (في أفضل صورها) تهدف إلى تخريج " المواطن الصالح " وليس " الإنسان الصالح " ، ومن هنا فهى تقصر أهدافها في أطر قومية أو عنصرية أو إيدويولوجية ضيقة ، وتنسى التأكيد على معنى الأخوة الإنسانية ، والمصير الواحد للبشرية ، وأننا نحيا هذه الحياة الدنيا على كوكب واحد ، ما يصيبه في أصغر أجزائه ، يتردد صداه في مختلف أرجائه ، خاصة ونحن أصبحنا نعيش على أرض تتهددها أخطار بيئية عديدة ، وقصر أهداف العملية التربوية في مثل تلك الأطر القومية أو العنصرية أو الأيديولوجية ، يطبع المتعلمين بطابع التعصب وضيق الأفق فتتملكهم النعرات القومية والجاهلية وينعكس ذلك على تصرفات الساسة والقادة والإداريين.(١٢)

واننا لنخرج من كل هذا ، أنه لن تقوم للمسلمين حضارة ولن يلتئم لهم شمل ، بل لن يستطيعوا أن يتميزوا في الخلق كجماعة لها رسالتها مالم تتوحد لديهم فكرة " إسلاميتهم " وتتضح معالمها بحيث تصبح دستور العالم وعقيدته ، ويعيش من أجل تحقيقها ويحس في قرارة نفسه حرارة الإيمان بها والسعادة القصوى في الجهاد في سبيلها وحتى تصبح تلك الإسلامية المعين الثرى الصافى الذى يستقى منه العلماء والمصلحون والمشرعون حين يعالجون جوانب الحياة المختلفة ، ويرسمون للمجتمع الجديد نظم حياته المعاشية ، واعين مشاكل العصر ، ومجيبين علي ما تطرحه من أسئلة وقضايا مستحدثة . (١٣).

٢- التوجيه العلمانى للدراسات التربوية عامة ولأصول التربية خاصة

تهيئة المسرح الاجتماعى والثقافى :

نحن نعيش في عهد تغلب عليه الصبغة الغربية العلمانية في التربية والحضارة وفي المظهر الخارجى للتفكير والتدريب الثقافى ، هذه الحقبة يمكن أن تدعى بحق حقبة الاستعباد الفكرى مسبقة بالخضوع السياسى والعسكرى .

هذا الاستعباد الفكرى كان في الغالب أثرا من آثار الحكم الإمبريالى الغربى الطويل الذى خضع له العالم الإسلامى . ولكن السبب الحقيقى لبقائه هو الطريقة الأكاديمية والثقافية الحالية التى ترتكز على التصور الغربى للثقافة وتنمو وفقا للنموذ ج العلمانى ويديره رجال تثقفوا وفقا للتقاليد الغربية المدونة وتزخر بها كتبهم التاريخية والعلمية ذات المظهر والمضمون الغربى . (١٤)

فمن السهل تغيير مظهر التاريخ . ولقد تعددت الجهود في العالم

الإسلامى خلال المائة سنة الماضية لتعديل التاريخ بصورة ثقافية مقبولة .صحيح أن بعض هذه الجهود قد صادفها النجاح الجزئى ولكن الإشكال الحقيقى ينحصر في المؤلفات الإنسانية والعلمية التى كانت تدرس والتى ظهرت صعوبتها الشديدة وعدم جدواها ، فالمؤلفات في العديد من الموضوعات لا يمكن إتمامها إلا إذا كانت المواد التى تعالجها قد تطهرت وأعيد تدوينها وتنسيقها.

إن جميع العلوم سواء الاجتماعية أو الإنسانية وحتى الطبيعية أو الكيميائية إنما تحوى مجموعة من الأفكار والمعلومات المنظمة والمنسقة وفقا للأفكار والمعتقدات والمظهر والظروف الاجتماعية والوسط الفنى والأدبى لواضعيها وخبرائها .(١٥)

فهم ينظمون وينسقون علومهم وفقا لاحتياجاتهم الفكرية والأكاديمية والإيديولوجية ، وهكذا ، فالعلوم التى توضع وتتطور وتنمو بمعرفة شعب أو، أمة معينة إنما يتم هذا بواسطة المفاهيم الأساسية المشكلة وفقا لتصوراتها ومظاهرها وهى أيضا تغذى بتقدمها التاريخى .

والعلوم التربوية ، مثلها مثل مختلف العلوم الاجتماعية ، التى ورثناها عن الغرب تعتبر مثالا واضحا لهذه الحقيقة ، فقد نشأت في الغرب ونمت وفقا لخلفية تاريخية غربية خاصة بها ، كما أن مضمونها وروحها لها طابع أوربى واضح ومحدد تماما(١٦) . فكيف وصل بنا الحال إلى هذا الوضع ؟

في مختتم القرن الثامن عشر ومع مطلع القرن التاسع عشر الميلادى ، كان عصر النهضة في أوربا قد أتى ثماره في كل قطاعات الحياة العلمية والتطبيقية والاقتصادية . وكان من أثر ذلك تعاظم نفوذ كثير من الدول الغربية وانتشارها في الآفاق ، وتطلعها إلى بسط نفوذها عن طريق الغزو الحربى والتوسع الاستعمارى . وبمقدار ما كانت الدول الغربية آخذة في

التقدم والصعود ، كانت الدول الإسلامية ، وفى مقدمتها الدولة العثمانية آخذة في التدهور والانحلال ، وكان اكتشاف قوى البخار والكهرباء واللاسلكى في القرن ١٩ ذا أثر كبير في توسيع المسافة بين قوة الغرب ، وضعف البلاد الإسلامية . (١٧).

وأمام هذا الشعور بالخطر ، بدأ الإحساس بضرورة تعزيز الجيوش في البلاد الإسلامية ، خاصة وقد كثر تساقط الكثير منها تحت السيطرة الاستعمارية ، وتطلع المسلمون إلى الأخذ بالأساليب الغربية في تنظيم الجيوش وتسليحها ، ولكنهم حين تطلعوا إلى ذلك وجدوا أن هذا الهدف الحربى لابد أن تصاحبه نهضة علمية . أدركوا أن الغرب سبقهم بأماد بعيدة ، وأن الأمر ليس بالسهولة التى يتصورونها ، فقد كانت الجيوش الغربية الحديثة تعتمد على خبرات علمية في الهندسة ، وفي العلوم الطبيعية والكيميائية ، وكانت ترعاها خبرات طبية وبيطرية ، وكانت هذه الخبرات جميعا تحتاج إلى إعداد طويل في نماذج من مدارس تختلف عن النماذج التى انتهى إليها التعليم في البلاد الإسلامية ، حين أصبح مقصوراً على العلوم الشرعية وما تحتاج إليه مما كان معروفا بعلوم الوسائل ، أى : أن العلوم الأخرى لم تكن تدرس إلا لكى تكون وسيلة لمعرفة وفهم العلوم الشرعية وتطبيقها ، عند ذلك تطلع المسلمون إلى نقل العلوم الغربية – أو التى تفوق فيها الغرب – لتحقيق هذا الهدف الحربى ، وهم تحت وطأة الشعور بخطر وضعهم الحربى الضعيف . واتخذ هذا النقل طريقين : أرسلت بعثات إلى البلاد الأوربية في بعض الأحيان ، واستقدم أساتذة وخبراء غربيون في أحيان أخرى للتدريس في المعاهد العلمية على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، وللتخطيط للنهضة الحربية المأمولة. (١٨)

إلى هذا المدى ، وفي هذه الحدود، ولهذا الهدف السليم ، لم يكن هناك مجال لتعارض بين الإصلاح وبين الإسلام ، لأن الأمر كان بعيدا عن

أن يمس نظمه وقيمه . ولكن الأمور لم تسر على ما أريد لها أن تكون . فمع النظم الحربية الجديدة ، تسربت نظريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية وثقافية غربية . فقد استلزمت ترجمة كثير من الكتب الأوربية في مختلف العلوم والفنون، واستلزمت استقدام خبراء ومدرسين من الأجانب ، كما استلزمت إرسال بعوث علمية إلى مختلف المعاهد الأوربية . ونتيجة لهذا ، ولجهود غربية عديدة ، أخذ النموذج الحضارى يلفح بنار سلبياته في أغلب الأحوال المجتمعات الإسلامية ، ونادرا ما يلقحها بايجابياته.

ولدى تعلم مثقفينا من الغرب ، وجدوا أن حضارته الحديثة تتكون من ثلاثة عناصر أساسية :

أ- في مجال الطبيعة تقوم على العلم التجريبى والبحث المستمر لأجل تكييف الطبيعة والتغلب على مصاعبها . وقد أدى اتباع المنهج التجريبى في التعامل مع الطبيعة إلى إنجازات عظمى يسرت الحياة للإنسان ، وكشفت له كنوز الطبيعة وعلمته أساليب الانتفاع منها وأفضل الوسائل لاستغلالها.(٢٠)

ب- وفي مجال المجتمع تقوم الحضارة الحديثة على التنظيم الدقيق الصارم للنشاطات، والإنتاج ، والزمن - العمل ، وذلك لأن نمو حياة المدن ونشوء المدن الكبرى ، وكثرة المواصلات ، وانتشار الصناعة .. كل ذلك وغيره من إنجازات وآثار العلم التجريبى في مجال الطبيعة جعل التنظيم ضرورة حياتية يومية (٢١)

جـ- وفي مجال العلاقات الإنسانية بين الأفراد بوجه عام ، وبين الذكر والأنثى بوجه خاص ، كذلك في العمل السياسى ، كذلك في العلاقات الدولية - وباختصار : في جميع مجالات العلاقات الإنسانية التى لا تدخل في دورة العمل والإنتاج والإستهلاك في داخل المجتمع - في هذه المجالات من

العلاقات الإنسانية تقوم الحضارة الحديثة على مبدأ المنفعة من جهة وعلى مبدأ ذاتية القيم من جهة ثالثة . (٢٢)

لقد صحح العلم الغربى الحديث وضعه حين تخلص من صيغ التفسير المقدسة ذات المنشأ الدينى التى كانت تغل قوى وإمكانات الانطلاق فيه . لقد غدا العلم صادقا حين غدا ماديا وتخلص من أغلاله . ولكنه في بداية الأمر ، غلا في ماديته حين تجاوز في دعواه حدود مجال عمله وهو الطبيعة المادية في العالم ، هذه الطبيعة القابلة للتجربة والقياس ، تجاوزها إلى مجالات خارج نطاق الطبيعة المادية للعالم فجعل الإنسان – بما هو معتقد وعاطفة ومعنى – مجالا لنشاطه ، وقد مرت على العلم ، بعد عصر النهضة عهود طوح فيها بالعلماء غرور أجوف خيل إليهم أنهم قادرون على تفسير كل شئ ومعرفة كل شئ ورتبوا على ذلك مادية الإنسان وحيوانيته ، وجهدت فلسفة العلم في أن توجد الأساس النظرى لهذه الدعوى المتطرفة. (٢٣)

ولم تنفك هذه الفلسفة عن إعلاء شأن الإدراك الحسى والمنهج التجريبى في جميع حقول المعرفة في الطبيعة ، كذلك في الإنسان من حيث هو معنى ، والمجتمع الإنسانى من حيث هو ظاهرة متحركة لجملة من المعانى . فغدا ما يسمى علم النفس ، بجميع فروعه ، وعلم التربية ، وكذلك علم الاجتماع بجميع فروعه ، متأثرين بمنهج في المعرفة يقوم على الإدراك الحسى المباشر أو غير المباشر، وعمليات الإحصاء والتجربة الميدانية والمعملية (٢٤)

وقد أدت هذه النزعة المادية في الفلسفة وفي العلوم الإنسانية عامة والتربوية خاصة إلى أوخم العواقب بالنسبة للإنسان والحضارة . ولنسمع عن هذه العواقب من واحد من أبناء هذه الحضارة ، جارودى ، قبل أن يسلم :

- استندت على الإرادة الفردية الغازية المريدة للربح والسيطرة ، والتى لا تتردد لحظة واحدة في تدمير القارات والحضارات ، من خلال توجيه العلوم والتقنيات.

- اعتمدت النظرة العلمانية الصرفة التى تؤكد أن العقل يحل كل المشاكل ، وأن كل المشاكل الأخرى ، هى مشاكل لاهوتية مزيفة .

- إن هذه الحضارة ، لم تستطع إلى الآن أن تحدد غايات الإنسان الحقيقية ، ولا أن تسيطر على الوسائل التى توصله إلى تلك الغايات .

- إذن فهذه الحضارة تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك ، وتحيل الفكر إلى ذكاء آلى ، فيتجرد من الإيمان والحب والشعور الفنى ، وتحيل اللانهائي إلى الكم ، ولذلك فإن هذه الحضارة في رأي جارودى مؤهلة للانتحار.

- إن تقدم الغرب ، لم يكن نتيجة عظمة مبادئه ، وإنما كان بالضرورة وليد نهب قارات ثلاث ، ونقلها إلى أوربا وأمريكا الشمالية ، وبالمقابل فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفا .. ويثبت جارودى ذلك من خلال عرض تاريخى قائم على أساس إحصاءات دقيقة .

- إن هذه الحضارة أدخلت الرق طرازا إنتاجيا لأول مرة في تاريخ إفريقيا.

- وهى أبادت الهنود الحمر في أمريكا ، وأدخلت الأمراض الجنسية كالزهرى لأول مرة بين الباقين.

- ولما قضوا على الهنود الحمر احتاجوا إلى الأيدى العاملة ، فبدأ خطف السكان الأصليين في إفريقيا طوال ثلاثة قرون ، واسترقاقهم ودفنهم في العمل بالمناجم الأمريكية في مأساة إنسانية تاريخية كبرى قضى فيها

تسعون مليون من المختطفين الإفريقيين نحبهم ووصل عشرة ملايين تحت ظروف قاسية إلى مواقع العمل في أمريكا .

- يقول جارودى أيضا ، (بل إننا لا نستطيع أن نقارنها بالمذابح التى أتاحت لجنكيزخان بناء أهرام من بضعة آلاف من الجماجم البشرية ، إن عمله عمل صانع يدوى إذا قسناه بالجريمة التاريخية الأعظم التى اقترفها الغرب).

- يثبت جارودى أن الحضارة الغربية لم تلغ الرق لأسباب إنسانية وإنما لأسباب اقتصادية ، يثبت ذلك من خلال استقراء كامل لطبيعة تطور المشروع الرأسمالى .

- ظهرت النظرة العرقية بأبشع ما تكون في ظل الحضارة ، بحيث تعالى الإنسان الأبيض ونظر إلى الشعوب المستعمرة نظرة فوقية استغلالية من خلال مقولات عنصرية بحتة.

- وبالنسبة للعالم الإسلامى ، ينتهى جارودى إلى أن الاستعمار الإنجليزي والأسباني والفرنسي نتيجة للدور الذى قاموا به في أرض الإسلام خلال أكثر من قرن زيفوا الحقائق ، وافتروا منهجا من أجل إساءة سمعة إسهام الحضارة العربية في الحضارة الإنسانية .

- وبجانب هذا لقد ارتكب الغرب مجازر تاريخية رهيبة في البلاد الإسلامية ، ويعرض جارودى وثائق وإحصاءات تاريخية تثبت فظاعة ووحشية وبربرية الغرب في العالم الإسلامى ، لاسيما في شمالى إفرقيا.

- وينتهى جارودى إلى أن نمط التطور الذى تمارسه المجتمعات الصناعية يقود البشرية إلى درب مسدود . (٢٥)

إن قضية اللحاق بالغرب أمل يداعب رجال السياسة والعلوم

الإجتماعية في بلادنا، ومن خلال هؤلاء وأولئك ، يتسرب الأمل وينتشر في أرجاء المجتمع كلها ، وكثيرا ما يكون الترويج لهذا الأمل مشفوعا بالنية الحسنة ، ولكن ينبغى أن نفحص بعناية هذا الأمل ، لأن قضية اللحاق بالغرب (بمفهومها السائد) ليست إلا سرابا محضا. فقضية اللحاق بالغرب تختزل أحيانا إلى المستوى الاقتصادى مقيسا بمتوسط الدخل وما أشبه من مؤشرات ، ويعبر عن هذا أحيانا بسد الفجوة بين متوسط الدخل في الدول الصناعية المتقدمة وبين المتوسط المقابل في الدول (النامية) . وسد الفجوة هذا هو (الجزرة) التى سيجرى الحمار طول عمره دون أن يلحقها أبدا . بعض الاقتصاديين في الدول (النامية) يقول ذلك ، وفي الدراسات المستقبلية الغربية المختلفة يستبعدون تحقق هذا الهدف في أى أفق زمنى منظور ، وهم يصلون إلى هذه النتيجة وفق حساب معدلات النمو في هاتين المجموعتين من الدول ، وهذا حساب صحيح ، ولكن أهم من ذلك في تفسير عدم اللحاق أن نظريات التنمية المصدرة إلينا مصممة في إطار المسلمات التى تحكم النظريات الأم ، وضمن ذلك استمرار السيطرة الغربية علينا ، أى أنها مصممة عمدا على نحو لا يمكننا من إحداث تغيير جذرى في بنية النظام الدولى ، وبالتالى على نحو لا يمكننا من اللحاق بالغرب أبدا . وأهم من ذلك أيضا وأعمق أن نتساءل هل لهدف اللحاق بالغرب (بالمفهوم السائد) أي معنى أصلا ؟ نحن متخلفون عن الغرب من حيث القدرة الاقتصادية بلا جدال ، ولكن هذا التخلف لا يقاس في المقام الأول بمعايير الإنتاجية أو معدلات استخدام الطاقة . إلخ وانعكاس ذلك في متوسط الاستهلاك ، فكل هذه مؤشرات شكلية أو خارجية .(٢٦)

إن قتل ملكة الإبداع ، وتربية بعض فئاتنا على استخدام المنتج النهائى الجاهز ، وعلى هيئة سلع استهلاكية أو نظريات اجتماعية ، يؤدى

إلى خلق (قطاعات حديثة) تشبه أهل الغرب في نمط استهلاكهم وأسلوب حياتهم وقيمهم ، وأبناء هذه القطاعات يتبعون الغرب من حيث ارتباطهم بكل ما يستحدثه في هذه المجالات ، وهذه التبعية تحقق لهم امتيازات مادية أعلى ، وتدعم مواقعهم في السلطة . ولكن ، هل يمكن أن تتحول هذه القطاعات - مع بقاء كل شئ على حاله - إلى بؤر تقود تقدما أصيلا قابلا للانتشار المنتظم (كما حدث في التجارب الغبرية مثلا) ؟ الإجابة لا عريضة ، ولأسباب عديدة ، نكتفى منها (خاصة ونحن بصد التركيز على المستوى النظرى) بحقيقة أن هذا القطاع الحديث مصمم بحيث يكون عقيما (لا ينجب) مصمم بحيث يشبه أهل الغرب في كل شئ إلا في الجوهر ، أى في القدرة على الإبداع(٢٧)

تغريب التعليم الإسلامى :

وكان من الطبيعى لهذا التوجه الغربى العام لسلب الهوية الإسلامية للعالم الإسلامى وعلمنة فكره وثقافته بعد تهيئة المسرح الإجتماعى والسياسى عن طريق الاحتلال والسيطرة والهيمنة ، أن يكون التعليم كذلك ساحة رئيسية لمسخ الشخصية الإسلامية ، وبدلا من ذلك إعادة تشكيل العقل المسلم كى يفكر ويتعلم بالطريقة الغربية لا من موقف الند المشارك ، ولكن من موقف (المستهلك) التابع .

وإذا كنا قد بينا أن (أصول التربية) إنما تعنى بالدرجة الأولى بانعكاسات النظم المجتمعية على التعليم ، فإن هذا الذى أظهرناه في الصفحات الماضية ، إنما هو بيان في الآن نفسه لعملية علمنة (أصول) التربية وتغريبها . وما سنبينه فيما يأتي إنما هو شواهد وبراهين للنتائج العملية في قطاع التربية والتعليم .

فلا يخفى على المطلع الخبير أن لنظام التعليم روحا وضميرا كالكائن الحى ، وروح نظام التعليم وضميره هو ظل لعقائد واضعيه وغايتهم من دراسة العلم ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة وروحا وضميرا بذاتهما ، إن هذه الروح هى التى تسرى في هيكله تماما ، إنها تسرى في جميع العلوم ، في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية ، حتى في علمى الاقتصاد والسياسة ، ومن باب أولى في أصول التربية ، بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح . وليس في وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها وإنما يتيسر ذلك لرجل أوتى من قوة الاجتهاد ومهارة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز النافع والضار ، فيكون عاملا بمبدأ " خذ ما صفا ودع ما كدر "، ويفرق بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها. (٢٨)

وهذا العمل سهل في العلوم الطبيعية والتطبيقية ، بينما هو صعب ودقيق في نفس الوقت في العلوم الإنسانية والاجتماعية وأصول التربية ، ولا سيما إذا كانت أمة تؤمن بعقائد معينة وتتبنى فلسفة مستقلة وأسلوبا خاصا للحياة ، وتاريخا مستقلا . إذا كانت أمة هذه صفتها تتبنى نظام تعليم لأمة وفلسفة تربيتها ، تختلف في الأساس والقيمة والمعيار ، يحدث هناك صراع مستمر لا يفارق هذه الأمة في أى مرحلة من مراحل حياتها ، يجر إلى بناء واحد وهدم آخر ، إلى تصديق واحد وتكذيب آخر ، إلى إجلال واحد وازدراء آخر ، وفي مثل هذه الحال يحدث نزاع عقلى وتزعزع في العقيدة وانحراف عن الدين ، وأخيرا قبول القيم والأفكار الحديثة مكان القيم والأفكار السابقة ، وذلك أمر طبيعى يجب أن يحدث كأمور طبيعية، لا يحول دون حدوثه حسن النية أو القلق ، ورغبة الآباء والجدود والاحتياطات .

الفرعية والخارجية ، وإنما يمكن تأجيل موعده أو إبطاء سيره على أكثر تقدير ، دون تعويقه أو القضاء عليه (٢٩)

ولعل من أوفي ما كتب في هذا الشأن ، ما كتبه كاتب من أهل الغرب أنفسهم ، إذ يقول:لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأى القائل بأن الإسلام والمدنية الغربية – وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماما – لايمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها، خالصة من شوائب النفوذ المعادى للإسلام ؟

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك، وإننا إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التى يتاح فيها لعقل نير للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستقضى حتما إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم هم ممثلوا الحضارة الإلهية الخاصة التى جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين " المتنورين " الذين نشأوا على أسس غربية (٣٠)

واستطاع النفوذ الإنجليزى في مصر أن يساعد ويدعم حدوث صدع في ثقافة الأمة صدعا متفاقما أخبث وأعتى من الصدع الذى أحدثه الفرنسيون بحملتهم ومشورتهم لمحمد على . ووضع (دنلوب) أسس " التفريغ " الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطا بالعربية والأسلام ، ومهد لملئه بماض آخر بائد في القدم والغموض ، لم يبق من ثقافته شئ البتة ، ليزاحم هذا الماضى الفارغ بقايا الماضى المتدفق الحى الذى يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس في حيرة مدمرة بين انتماءين ،

بين الإنتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم ، وبين الانتماء إلى الفرعونية التى بادت وبادت ثقافتها ولم يبق منهاإلا أطلال من الحجارة ، مهما بلغت في العظمة والجلال ، فهى فارغة من ثقافة حية تتدفق في القلوب والعقول والألسنة(٣١)

وأيضا فإن هذا " التفريغ" سوف ينشئ أجيالا من " تلاميذ المدارس" تتهتك علاقتها التى تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعيا وثقافيا ولغويا ، حتى يتم تفريغها تفريغا كاملا من ماضيهم كله ، ثم يملأ هذا الفرا غ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم ، وإنما هى علوم الغزاة ، وفنون الغزاة ، وآداب الغزاة ، وتاريخ الغزاة ، ولغات الغزاة . ومع كل ذلك ، فإن هذا القدر من العلوم والفنون والآداب إنما هى قشور ومقتطفات ، توهم النفوس الظامئة المفرغة بأنها نالت شيئا يذكر ، والحقيقة أنها نالت غذاء تعيش به موتى في صورة أحياء لا غير (٣٢).

فماذا عن الأزهر وهو يحكم وظيفته ومحتوى التعليم فيه يقدم الزاد الثقافى العربى الإسلامى ؟

إن الموقف الذى استخذته القوى الإستعمارية في مصر من هذه القضية تلخصه تلك الكلمات التى نقرأها للورد لويد المندوب السامى في مصر في كتابه الصادر عام ١٩٣٣: إن التعليم الوطنى عندما قدم الإنجليز إلى مصر ، كان في قضية الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتى كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزا في طريق أي إصلاح تعليمى ، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الدينى ، ولا يصيبون إلا قدرا ضئيلا جدا من مرونة التفكير والتقدير . فلو أمكن تطوير الأزهر- عن طريق حركة تنبعث من داخله هو - لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير أن

نتصور أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكا بأساليبه الجامدة (٣٣) ولكن إذا بد أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصورا في إصلاح التعليم اللاديني الذى ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح

وعند ذلك فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين ، فإما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفي. على أن الخطة الأولى - والتى تقوم على إصلاح الأزهر من داخله - لها نتيجة عظمية الغائدة والأهمية ، وإن تكن نتيجة غير مباشرة ، وهى أنها تؤدى بالتدريج الى اختفاء التعصب الدينى الذى أخر تقدم مصر - بحسب زعمه - زمنا طويلا . أما الخطة الثانية - وهى إصلاح التعليم اللادينى - فإن تأثيرها المباشر أقوى ، فى إيجاد ما نحن في أشد الحاجة إليه من إقامة العلائق الإنجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل (٣٤)

ولقد زرع الاستعمار في كل بلد مئات المدارس التبشرية التى تأخذ الطفل منذ نعومة أظفاره ، عجينة لينة طيعة فتصوغه كما تريد وتنشئه كما تهوى ، وتبعده عن الإسلام بقدرما تقربه من النصرانية ، وتحببه في حضارة الغرب بقدر ما تبغضه في حضارة الشرق ، وقد صرحت المبشرة (آنا ميلجان) عن هدف هذه المدارس ومهمتها في بلاد العرب والمسلمين فقالت :" إن المدارس أقوى قوة لتجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة أوطانهم " وتقول أيضا عن كلية البنات الخاصة بالقاهرة :" في كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن " باشوات وبكوات " وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق الى دحض الإسلام أقصر من هذه المدرسة.(٣٥)

ولم تقف جهود التبشير عند المدارس الثانوية والإبتدائية ورياض الأطفال ، بل خطوا خطوة أخرى نحو إنشاء الكليات والجامعات والمعاهد العالية لتوجيه قادة المستقبل كما يشتهون ويحبون . وقد عرف الشرق الإسلامى عدة مؤسسات من هذا النوع ، ومن أشهر المؤسسات التعليمية جامعة القديس يوسف في لبنان ، وهى جامعة باباوية كاثوليكية ، وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية ، والجامعة الأمريكية ببيروت التى كانت تسمى من قبل (الكلية السورية الإنجلية) ، ثم كلية بيروت التى أنشئت عام ١٩٦٥م ، وهي جامعة بروتستانتية ، والكلية الأمريكية بالقاهرة التى أصبحت فيما بعد (الجامعة الأمريكية) ، وكلية روبرت في استانبول التى أصبحت تسمى الجامعة الأمريكية، والكلية الفرنيسة في لاهور ، باعتبار إن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامى الخالص في تكوينه في شبه القارة الهندية (٣٦).

وشكلت مدرسة المعلمين العليا في بلد مثل مصر (مشتلا) للأفكار التربوية الوافدة من الدولة المحتلة لمصر وهى بريطانيا ، محاولة منافسة الثقافية الفرنسية التى كانت قد مكنت لنفسها من خلال أول مدرسة لاعداد المعلمين حيث أنشئت عام ١٨٨٠ .

لكن ظهور معهد التربية العالى للمعلمين عام ١٩٢٩م نتيجة رأى خبير إنجليزى في التعليم هو (المستر مان) كان إيذانا بإشراق مؤثر جديد لا يجئ من القارة الأوربية وما وراء البحر المتوسط ، وإنما من أمريكا الشمالية ، عبر المحيط الأطلسى ، صحيح أن نشأة المعهد كما نرى (إنجليزية) ، لكن قوة الولايات المتحدة التى بدأت تتنامى بعد الحرب العالمية الثانية ، حاصرت التأثير الإنجليزى ، وانفتح الباب على مصراعيه للتربية الأمريكية .

وحظى جون ديوى ، فيلسوف التربية الأمريكية الأول بنصيب الأسد في الكتب التى ترجمت له والتى شكلت غذاء تغذى عليه الفكر التربوى العربى الحديث ، إذ ترجمت كتبه : (الديموقراطية والتربية) ، و(الخبرة والتربية) و (المدرسة والمجتمع) و (الطبيعة الإنسانية والسوك الإنسانى) ،(البحث عن اليقين) و(تجديد في الفلسفة) و(المنطق نظرية البحث) و(الفن خبرة) و(الحرية والثقافة) و (التربية في العالم الحديث)، فضلا عن ترجمات لبعض تلاميذه مثل (كلباتريك) في (المدنية المتغيرة والتبرية) و كارلتون واشبورن في (التربية التقدمية)، ثم المؤسس الثانى للفلسفة البراجماتية بعد مؤسسها الأول (بيرس) ، عالم النفس الإمركى وليم جيمس الذى ترجم له (أحاديث إلى المعلمين) ، (إرادة الإعتقاد) ، (البراجماتية).(٣٧)

ومن هنا بدأنا نلمس في كتب أصول التربية الصادرة في الخمسينات والستينات على وجه التقريب إغفالا واضحا للفكر التربوى الإسلامى ، ففى مثل هذه الكتب نجد ، على سبيل المثال موضوعا مثل (الطبيعة الإنسانية) ، تعالج فيه ومن خلاله آراء لأفلاطون وأرسطو وتوماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو وجون ديوى ، وتفتش عن رأي مفكر عربى مسلم بين هؤلاء فلا تجد ، فما تأثير هذا على طلاب ودارسى وقارئى التربية في بلداننا ؟ وخاصة من نعدهم ليربوا لنا أجيالنا الناشئة ؟ إنهم من غير شك سيعتقدون أن هناك فقرا فكريا وجدبا فلسفيا إلى الدرجة التى لا يجدون فيها رأيا لأحد في مثل هذه الموضوعات (٣٨)

لقد ذهب لوك إلى القول بأن العقل صفحة بيضاء تنقش عليه المعارف والعلوم بعد ذلك ، لماذا لا نعرض بجانب هذا الرأي ما ذهب إليه إخوان الصفا من كلام يكاد يتطابق مع هذا الرأى ؟ والكندى وابن سينا والفارابى

وغيرهم من فلاسفة الإسلام ، كانوا يشايعون تلك القسمة الثنائية للطبيعة الإنسانية للطبيعة الإنسانية من حيث تكوينها من جسم وروح أو جسد وعقل ، فلماذا الاكتفاء بذكر آراء أفلاطون وأرسطو في هذا الشأن ولا تشير هذه الكتب إلى مفكرينا وفلاسفتنا ؟

وهل يجوز إغفال ما جاء بالقرآن الكريم خاصا بقضية التفكير وفيه ثروة تكفى لتجعل من هذه القضية موضوعا لكتاب بمفرده وهو ما فعله عباس محمود العقاد ، (٣٩)، هذا فضلا عن قضية (الطبيعة الإنسانية) ؟

ولم يقتصر الأمر على الاغتراب عن (أصول) الأمة الفكرية وانما يمتد ليشمل اغتراب فكرنا التربوى عن (واقع) أمتنا ، وهى نتيجة طبيعية لموقف (الذيلية) و (التبعية) ، حيث تحتل بؤرة الاهتمام لذى الباحثين والكتاب ، بؤر الاهتمام والتفكير لدى منتجى الفكر التربوى في العالم الغربى ما دام ينظر إليهم على أنهم هم وحدهم نماذج التقدم والرقى .

وككل فلسفة وككل تربية تنقل من تربتها الثقافية ومنبتها الاجتماعي إلى تربة أخرى مغايرة دون تكييف وتحوير وتغيير ، تعرضت التربية في بلداننا لكثير من أوجه الخطأ والانحراف في التطبيق أصابا التربية والتعليم بأضرار ما زلنا حتى الآن نعانى منها ، أما أوجه الإنحراف والخطأ فيمكن الإشارة اليها من خلال عدد من الأمثلة : (٤٠)

- فغرض التلميذ وميله أخذا على أنهما غرضه وميله الحاليان ، يقف الأمر عندهما وينتهى إلى إشباعهما دون محاولة استخدامهما في خلق ميول جديدة وأغراض حيوية ، تتسع وتعمق حتى تصل إلى الأغراض الاجتماعية والميول المتعلقة بمصالح الجماعة .

- ونشاط التلميذ أخذ على أنه النشاط الحركى فقط وأخذ على أنه

غاية في ذاته لا وسيلة لاكتساب معارف وميول ومهارات جديدة ، وأصبح معيار الطريقة التربوية ، أن ترى التلاميذ ينشطون ويجرون ويتحركون ، وقل التوجيه لهذا النشاط ، فيكفى ، مثلا ، أن يرى المعلم تلاميذه سعداء يجرون وراء الفراشات يصطادونها دون توجيه لهذا النشاط وتفسيره تفسيرا اجتماعيا

- وانتاج التلاميذ أخذ على أنه غاية في حد ذاته ، تقام له المعارض ، فتوخوا فيه الإتقان ونسوا أن المهم هو العملية التى يجتازها التلميذ وهو يقوم بهذا الإنتاج ، وعلى هذا أهملت المهارات الاجتماعية في سبيل الإسراع بالإنتاج وعرضه .

- وأخذت العناية بالتلميذ ونموه واحترام شخصيته علي أنهما تدليل له وترك الحبل على الغارب لنزواته وعدم التعرض لها برد أو زجر أو تنظيم ، وبذلك أهملت قيم الجماعة ومقتضيات المعيشة فيها ، فأهمل التوجيه الاجتماعى لعملية التربية .

ولأن فلسفة التربية التى هى العمود الفقرى في دراسات أصول التربية أصبحت بهذه الصورة المتغربة المعلمنة ، كان لابد أن ينعكس وضعها علي مناهج التعليم من حيث أن هذه المناهج (الصورة التنفيذية) لفلسفة التربية القائمة وأصولها .

لقد ترسمت مناهج تعليمنا خطى المنهج الأوربى الذى به مخالفات جوهرية مع مناهج التعليم الإسلامى في فلسفتها وأصولها .

وأول هذه المخالفات أنه - أى الأوربى - منهج انفصالى ، أي يقوم على مبدأ الفصل التام بين الدين والحياة ، حيث يقرر أن التعليم أمر مستقل عن الدين تمام الاستقلال ، وأن تعليم أمور الحياة لا علاقة له بالدين

لأن الدين بحسب نظرته إلى الدين ، هو الذى يعتمد على الأمور الغيبية والقضايا الروحية وأن مسائله كلها تناقض مسائل العلم ولا تعترف بها، وبناء على ذلك تقرر هذا الانفصال ، وتقرر بالتالى أن الدين ليس له دور ولا مكانة في التأثير في الحياة أو تحريك الحياة أو توجيهها . القيادة اليوم بزعمهم للعلم فهو المحرك ، وهو الموجه (٤١).

وعزز هذا الواقع الانفصالى ، ثنائية أخرى بين تعليم (مدنى) يختص بالأمور التى تقوم بها الحياة الدنيوية وتعليم (دينى) يختص بتعليم الأمور التى تقوم عليها الحياة الأخروية ، والمعارف الموصلة اليها من علوم شرعية

وهكذا أصبح تغيير الوضع القائم بالنسبة لدراسات أصول التربية واجبا على كل المشتغلين بها ممن يؤمنون بالمنهج الإسلامى منهجا شاملا للحياة ، حتى تستلهم أصول الإسلام في رسم أهداف العملية التربوية ، وفي إرساء دعائم فلسفة التربية .

٣ - مقومات التوجيه الإسلامى لأصول التربية

مسئولية علماء التربية الأصوليين :

إن الوضع الراهن الذى تواجهه الأمة الإسلامية وضع جد خطير وإن لم يكن بجديد عليها ، فلقد واجهته الأمة من قبل ، فليست هى المرة الأولى التى تقف فيها أمام التحدى وجها لوجه، ذلك التحدى الذى بلغ من العمر أكثر من ألف عام ، فمنذ بزوغ فجر الإسلام خرج المسلمون الأوائل من الجزيرة العربية لا يحملون معهم من مقومات الحضارة شيئا اللهم إلا الإسلام ، لقد كانوا عزلا حتى من الحد الأدنى من العلوم الطبيعية ، ومن الفنون والحرف ، وكذلك من الصناعة ، وكانت الأمم من حولهم في قمة ازدهارها وحضارتها(٤٢) .

واجه أجدادنا عملاقين عظيمين ، الأمبراطورية الرومانية : التى قامت على ما ورثته من آثار العصور القديمة بثقافتها وحضارتها ، والفرس في الشرق وقد ورثوا بدورهم حضارة عظيمة أساسها علوم الهند وحكمتها . كلا الإمبراطوريتين قد حققتا ازدهارا ورخاء اقتصاديا وثقافيا عبر آلاف السنين ، وما ان بدأ المسلمون الأوائل سيرتهم وظهروا على مسرح التاريخ حتي تصدى لهم هذان العملاقان الفارسى في الشرق والرومانى في الشمال والغرب .

لقد كان عند هؤلاء المسلمين الأوائل من الأسباب ما يجعلهم يثبتون في هذه المواجهة ولا يصابون بالهلع والذعر فقد كان إيمانهم مطلقا وثابتا بأنهم وحدهم الذين يجب أن يؤول الأمر في نهاية المطاف إليهم ، وأنهم جديرون بأن يسودوا العالم بأسره بهذا الدين الجديد . لقد كان هذا الإيمان فيهم هو الفرق بيننا وبينهم . (٤٣)

ونحن نكاد نواجه اليوم موقفا مشابها ونحن نواجه اليوم خطرا حضاريا لم يعد منقسما إلى عالم ماركسى وعالم رأسمالى ، فقد تقاربت الكتلتان* ، مع تعاون وثيق مع الخطر الصهيونى ، ولن يتأتى لنا حسن المواجهة إلا بالتسلح بما تسلح به أوائل المسلمون : إيمان يقر في القلب ويصدقه العمل ، ينعكس في دراساتنا التربوية عامة والأصولية خاصة باعتبار علاقتها الوثيقة (بالإيديولوجية) و (العقيدة) الحاكمة الموجهة .

إن العلماء التربويين الأصوليين المسلمين المهتمين بتربية الأمة المسلمة تقع على عاتقهم مسؤلية كبيرة ، على كل من المستوى النظرى والعملى ، وعندما ندرس تاريخ حياة العلماء الإسلاميين التربويين المبكرين مثل الفارابى والغزالى وابن سحنون والزرنوجى وابن جماعة وابن خلدون

* تمت الدراسة قبل انهيار الاتحاد السوفيتى .

وغيرهم نجد أنهم كانوا أشخاصا ذوى همة عالية للغاية ، فقد كان يتملكهم حب الاستطلاع الحماسى ، وكانت لديهم طاقة وافرة وحماس للحصول على المعرفة التربوية ، سواء من الحقيقة الموحى بها ، أو الحقيقة المتمثلة في الخليقة (العالم المرئى) . إن النقطة الهامة التى يجب أن نلاحظها هى أن همتهم العالية تنبع من إيمانهم ، فقد كانوا يؤمنون يقينا بالنصيحة القرآنية، وهى التفكر في آيات الله المتمثلة في العالم الخارجى وفي الإنسان ، والمنهج الإسلامى الذى يتمثل في مقولة (اطلبوا العلم ولو في الصين) . وهم لم ترهق أذهانهم بألغاز ما وراء الطبيعة والعبارات السكولاستية لأنهم كانوا يحوزون على المعرفة الضرورية والكافية بالنسبة للغيب ، وقد مكنتهم العقيدة والممارسة الإسلامية بطريقها الواضح البسيط من التحرر من الأوهام والكهانة ، والخرافات واللاشعور بالذنب. (٤٤)

ولأن علماء التربية المسلمين كانوا ينظرون إلى الكون كتجل لقدرة الله الإبداعية ، سلطانه وعنايته الإلهية ، فقد كرس العلماء المسلمون أنفسهم للسعى وراء المعرفة بنشاط فكرى ، لأنهم كانوا يعلمون أن ذلك يعد واحدا من أسمى أشكال العبادة :" إنما يخشى الله من عباده العلماء. (فاطر/٢٨) . لقد كان العلم التربوى الذى قدموه منسجما مع معتقداتهم ، وقد كان تطبيق ذلك العلم بأكمله يجرى لصالح الإنسانية .

إن مما يجعل حالة التردى التى عليها المسلمون اليوم أمرا يعسر احتماله ، أن تعداد هذه الأمة الإسلامية قد تجاوز الألف مليون نسمة ، وأنها تملك أوسع الأراضى وأغناها، وأن مواردها الكامنة سواد كانت بشرية أو مادية أو استراتيجية تفوق سواها ، وأن عقيدتها (الإسلام) دين متكامل صالح ، إيجابى ، واقعى (٤٥) .. وليس هناك شك في أن الداء هو في المسلمين أنفسهم وأن العلاج ينبغى أن يأتى من داخل الأمة الإسلامية،

ولذا فان كل إجراء شكلى ظاهرى لا يتعدى الترقيع الذي لا يصل إلى لب القضية .

ولما كان البلاء قد عم المسلمين قادة وجندا ، فإن الإصلاح الحقيقى ينبغى أن يكون إصلاحا جذريا وشاملا ، يجلى حقيقة الإسلام للجميع ويثير فيهم إرادة التغيير ، وهنا تكمن المهمة المقدسة لعلماء أصول التربية ، فليس هناك إلا طريق واحد لإنقاذ الأمة الإسلامية إنقاذا حقيقيا وذلك بتربية الأمة من جديد وعلى أصول الإسلام .

إن الغربيين يتفوقون اليوم علينا بأشياء كثيرة وممارسات كثيرة ، ولا ريب أن من أبرز هذه الأشياء والممارسات، قدرتهم على الركض إلى الأهداف ، وتجاوز المشى أو الهرولة إليها. على اختزال حيثيات الزمان والمكان .. علي الحفظ على شدهم وتوترهم المعطاء حتى خط النهاية .. على المسارعة في الإنجاز والسبق إلي كل ما هو أكبر وأكثر غناء .. ولن يكون في مقدورنا أن نلاحقهم ونصل إلي مواقعهم ، بله أن نسبقهم ، ما لم نتحقق بالشرط نفسه .. إننا هنا لا نستعير تقليدا حضاريا من الغرباء ، ولكننا نرتد إلى أصولنا ، نرجع إلى كتابنا وسنتنا وتقاليد أجدادنا الرواد لكي نعرف كيف يكون السبق الحضارى .. والتحقق .. والإبداع . (٤٦)

ان الإنتماء إلى الإسلام يعنى – في نهاية التحليل – الموافقة المبدئية على الدخول في عمل مبرمج مرسوم .. والإيمان بالله يعنى التحقق بالقناعات الكافية بجدوى هذا العمل ، أما التقوى فهى تلك الطاقة الفذة التى تشعل مصباح الضمير فيظل متألقا متوهجا حتى يغيب الإنسان في التراب ما دام يشعر في كل عصب وجارحة وخلية إن الله يرقبه وهو يمارس هذا العمل أو ذاك ، ويجئ الإحسان لكى يضع الإنسان المسلم المؤمن المتقى في القمة ، في المصاف الأعلى حيث الإحسان .. الإبداع الكامل في كل مايقدمه الإنسان ، إنه ها هنا يقف أمام الله سبحانه ، وإن نداء كريما

من نبيه صلى الله عليه وسلم ينفخ فيه اللحظة تلو اللحظة أن الله يحب منه إذا عمل عملا أن يتقنه .

ومن خلال هذا المدرج المرسوم بعناية .. عبر هذا السلم ذى الدرجات العريضة يصعد المسلم راكضا إلى القمة ، ويتمكن بالعمل الجماعي المبرمج والاقتناع بحيثياته ، وبيقظة الضمير المتوهج ، والرغبة العميقة في الإتقان والإبداع ، من الوصول إلي الهدف المنشود : التحقق بالقيم الكبرى التي جاء بها هذا الدين والوفاق مع معطياتها ، رغم صعوبة هذا التحقق وغلاء ثمنه المبهظ ، ورغم البعد الشاسع الذى كان يفصل ولا يزال ، بين آفاق هذا الدين وبين المنتمين إليه. (٤٧)

حجية العقيدة الإسلامية كموجه لأصول التربية :

إن الباحث الذى يدرس طبيعة الإنسان والمجتمع لابد أن يدرك أن ليس بالضرورة أن تكون جميع الحقائق المتعلقة بالسلوك الإنسانى قابلة للملاحظة عن طريق الحواس ، ومن ثم خاضعة للقياس ، فإن الظاهرة الإنسانية لا تتكون من عناصر (طبيعية) على وجه القصد ، بل تتدخل فيها عناصر أخرى تنتمى إلى نظام مختلف ، أى النظام الأخلاقى الروحى ، وتقررها إلى درجة فائقة ، وتلك العناصر لا تعد بالضرورة بمثابة نتائج لازمة لعناصر الطبيعة أو قابلة للإنتاج من تلك العناصر ، وهى لا تتسم بالتماثل العالمى في الجماعات الإنسانية ، بل إنها تعتمد على التقليد والثقافة ، والدين، والأولويات الشخصية والجماعية التى ليس من الممكن أبدا اخضاعها للقياس ، الأسلوب الوحيد الذى يعرفه العلم ، وهو أسلوب كمى ، ولقد نظر إليها العلم باعتبارها أشياء غير موجودة أو غير وثيقة الصلة ، ولقد فرض العلم تحليله للعناصر الطبيعية القابلة للملاحظة التى تتمثل في سلوك الإنسان ، وبإصراره على تفسير السلوك الإنساني ، فإنه قدم إلينا نظريات غير متقنة وتفسيرات مشوهة . ومن أجل أن يتسم ذلك

التحليل بالصفة العلمية ، فإن العالم الإجتماعى قد خفض العنصر الأخلاقى والروحى للحقيقة الإجتاعية إلى تأثيره أو أصله المادى . وإن المنهجية التى وضعها لا تزال إلى يومنا هذا خالية من الأدوات التى نستطيع بمقتضاها التعرف على الناحية الروحية والتعامل معها (٤٨).

لكن ماذا لو أن العلم الغربى نفسه قد بدأ يصل في سنواته الأخيرة إلى أن هذا العالم المرئي المادى القابل وحده للقياس ، ليس هو (كل) العالم ، فالعالم مثله مثل جبل الثلج لا يظهر لنا منه إلا جزء أقل بكثير من الجزء الآخر غير المرئى ؟

فإزاء النظرة العلمية مادية النزعة ، برزت إلى الوجود في مطلع القرن العشرين نظرة علمية منافسة كان من ألمع روادها آباء الفيزياء الحديثة كأينشتين وها يزنبرغ ، وبور وكثيرون غيرهم ممن استحدثوا مفاهيم جديدة كل الجدة أطاحت بالمفاهيم والنظريات الفيزيائية السابقة التي كانت رائجة منذ عصر أرسطو وحتي أواخر القرن التاسع عشر ، فقد أثبت أينشتاين ، مثلا ، نسبية الزمان والمكان ، بل الحركة. وبين الفيزيائي الدانمركى نيلز بور أن الذرة ليست أصغر جسيم يمكن تصوره ، كما كان نيوتن يظن ، بل إنها هى الأخري مكونة من نواة يحيط بها عدد لا حصر له من الالكترونات أو أجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية و الكوزمولوجيا على أن الكون بمايحويه من ملايين المجرات ومليارات النجوم والكواكب قد بدأ في لحظة محددة من الزمن يرجع تاريخها إلى ما بين ١٠و ٢٠ مليار سنة ، فثبت بما لا يدع مجالا للشك أن المادة ليست أزلية ، وأن للنجوم آجالا محددة تولد وتموت كالآدميين ، وأن الكون المادى نفسه في تطور وتمدد مستمرين ، بل إن بين الفيزيائيين الفلكيين المعاصرين من قادته نتائج أبحاثه إلى القول أن الكون كان مهيئا منذ الانفجار العظيم لتطور مخلوقات عاقلة فيه ، وأن الإنسان في مركز الغاية من ابداعه ، فرأوا في ذلك كله في الجمال المنتشر

في الطبيعة على جميع المستويات هدفا وخطة مرسومة ، فآمنوا بعقل أزلى الوجود منتصب وراء هذا الكون واسع الأرجاء يدبره ويرعى شوونه (٤٩)

ثم أعقب هذا الجيل من الفيزيائيين جيل آخر من العلماء المتخصصين في مبحث الأعصاب وجراحة الدماغ من أمثال شرنغتون وأكلس وسبرى وينفيلد وقفوا حياتهم كلها على دراسة جسم الإنسان فانتهت بهم أبحاثهم إلى الإقرار بأن الإدراك الحسى ، وإن كان يتوقف على عمليات فيزيائية وكيميائية ، ليس شيئا ماديا بحد ذاته ، وخلصوا كذلك إلى ما يفيد بأن العقل والدماغ شيئان مختلفان تمام الاختلاف ، وأن الإرادة والأفكار ليستا من صنع المادة ولا من إفرازاتها ، بل هي على العكس من ذلك ، تؤثر تأثيرا مباشرا في العمليات الفسيولوجية ذاتها ، وكانت النتيجة المنطقية لكل هذا ، الإقرار بأن الإنسان مكون من عنصرين جوهربين جسد فان وروح لا يعتريها الفناء (٥٠) .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية شعر كثير من علماء النفس إن اخضاع العقل للغريزة في طريقة التحليل النفسى وإلغاءه في المذهب السلوكى قد أفضيا إلى تجريد الإنسان من انسانيته ، فالتحمت في الخمسينات من هذا القرن قوة ثالثة عرفت فيما بعد باسم (علم النفس الإنسانى) . ومن أبرز رواد هذه المدرسة فرانكل وماسلو وماى الذين يعترفون بأولية العقل ، وبعدم قابلية حصره في الخواص الكيميائية والفيزيائية للمادة ، ويكون الإنسان قوة واعية تملك حرية التصرف والاختيار ، ويرفضون من ثم تفسير السلوك البشرى كله بلغة الدوافع والغرائز والضرورات البيولوجية وردود الفعل الألية ، ويؤمنون عوضا عن ذلك بما يسمى القيم الأخلاقية والجوانب الروحية والنفسية والفكرية (٥١).

وهكذا تجئ نتائج العلم نفسه كدليل إضافى يعزز يقيننا بضرورة أن

تتوجه علومنا التربوية بصفة عامة وأصول التربية بصفة خاصة بالعقيدة الإسلامية ، وعندما نقول بذلك ، فإنما نقول بالضرورة بأن يكون القرآن الكريم هو الأصل الأول والأساس عندما نضع للتربية أصولا ، فهو ، بالإضافة إلى أنه كتاب الله الذى يلتزم بالاهتداء به كل مسلم ، هو معين لا ينضب للتعليم والتوجيهات التربوية .

وقد حوى القرآن من منهج العلم ومن محتوى الثقافة والفكر وما يتصل بهما من أساليب النظر العقلى ما اضطر معه العرب إلى التبحر في كل صنوف المعرفة لفهمه وإدراك معانيه، فدرسوا اللغة والأدب وتبحروا في دراسة التاريخ والجغرافية ودرسوا كتب أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب النحل والمذاهب ، واستعانوا بها في التفسير ودرسوا علوم الطبيعة لإدراك معنى الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم فتبحروا في الفلك والكيمياء والرياضيات والهندسة والطب وما اليها، ودرسوا الفلسفة والأخلاقيات للاقتراب مما ورد في القرآن من إشارات للظاهرة الإنسانية والظاهرة الاجتماعية وتفاعلهما مع مظاهر الكون المحيطة بهما ، وفي سنوات معدودة تغير مناخ جزيرة العرب الثقافى فأصبحت مهدا لحضارة بلغت في مدى قرن من الزمان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قمة من قمم الإنجاز العقلى في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية ، والذى لا جدال فيه أن القرآن كله دعوة للتعلم والتعليم وإعمال الفكر في مختلف المجالات (٥٢)

إننا حين نعلن ضرورة اعتبار الانبثاق الأصولى التربوى من القرآن مفسرا بالسنة ، نوجه الأنظار على الفور إلى الضمانات الحقيقية الموضوعية لتحقيق الأصالة وتثبيتها ، عن طريق استيعاب وسائل التربية الحضارية التى تضمنها هذا المصدر الجليل ، الذى يعد بحق خير مطلق للطاقات الإبداعية في الإنسان ، ومن التأملات السريعة في هذا

الشأن:(٥٣)

- يربى القرآن فينا مهارة (النقد النزيه الموضوعى) لما يلقى إلينا من آراء وأفكار، مع الدقة والأمانة في نقل أو رواية أقوال الغير ، وضرورة التفرقة الحاسمة بين العلم والظن.

ولن يعجز القارئ تلمس الأمثلة الكثيرة لهذه الظاهرة في القرآن ، وعلى سبيل المثال : موقفه من عرض آراء المخالفين للعقيدة الإسلامية ، ثم التعقيب عليها في وفاء تام بالخلق العلمى الأصيل : تأمل مثلا هذه الآية التى تحكى رأى " الدهرية " ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾"، كيف يعقب القرآن علي ذلك بقوله " مالهم بذلك من علم إن هم الإيظنون " الجاثية /٢٤ ، قارن الأنعام /٢٩.

- يربط القرآن دائما بين المعرفة أو الثقافة والنتائج العلمية المترتبة عليها من حيث النفع أو الثقافة ، وتختلف مستويات النفع والضرر باختلاف الزوايا التى تتعلق بها هذه المعرفة أو الثقافة وبعبارة أخرى يرى الإسلام - ممتلا في القرآن والسنة - تكامل العلم والعمل ، وتبادلهما النمو والازدهار وإذا أدينا ذلك بأسلوب العصر ، قلنا إن المعرفة والممارسة تشكلان حصيلة الخبرة الضرورية لنموالحضارة والثقافة . (٥٤)

- يربى القرآن العقل والبصيرة على الكفاءة في رؤية الوحدة من خلال الكثرة ، وتلمس الرباط الموحد الذى ينظم ما يبدو متنافرا متباينا ، ونتيجة هذه التربية هى الأناة في الحكم على الأشياء من مظاهرها ، وعدم الاغترار بظواهر التدابر والانفصال ، بل عدم الاغترار بالظواهر عموما ، وضرورة الغوص لسبر الأغوار والبلوغ بالاستقصاء إلى المبلغ الذى تقف عنده الطاقة البشرية (٥٥).

وحسبنا أن نشير في هذه الملاحظة الثالثة إلى أن الروح الإسلامية المستوحاة من القرآن والسنة علمت الخلص من المتصدرين الثقافة وبناء البشر في العالم الإسلامى ، حقيقتين هامتين ، هما موضع اعتزاز كل مثقف وكل مرب نزيه :

أولاهما : التمييز بين ضربين من الاتجاه الثقافى : الاتجاه الاستيعابى الأفقى المستعرض بغير الإحاطة والإلمام بخلاصة الحصيلة الثقافية والفكرية لجوانب الحضارة ، والاتجاه التخصصى المتعمق ، بغية الإجادة والإتقان لفرع أو آخر من فروع الثقافة .

والأخرى : التطور الفكرى المستمر حقيقة يجب أن يعيها المسلم بصورة تليق بكرامته العقلية ، لا بالصورة التى تفتعلها بعض المذاهب السطحية . وتمثل الأديان في حد ذاتها حلقات متتابعة في هذا التطور حتى بلوغ الإنسانية رشدها بفضل الصيغة النهائية الخاتمة لهذه الأديان ، ممثلة في الإسلام (٥٦) .

ومن مفاخر المسلمين أنهم أدركوا أن العلم وحده لا يكفى ليكون سلاح المعلم وعرفوا أنه لابد من أن يضاف إلى العلم (فن التربية) ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل ، والنزول إلى مستواه ، والاتصال العاطفى به ليكون ذلك جسرا يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ ، قال ابن عبدون : " والتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف ، فإنه كالرياضة للمهرة الصعب، الذى يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم " (٥٧)

ولعل ما كتبه ابن خلدون في مقدمته من أمتع وأفصح ما كتب عن أهمية دراسة التربية و ذلك في فصل مخصوص عنوانه (فصل في أن

التعليم للعلم من جملة الصناعات)، جاء فيه : "ومما يدل على أن تعليم العلم صناعة ، اختلاف الاصطلاحات فيه ، فلكل إمام من الأئمة اصطلاح يختص به شأن الصناعات كلها ، فدل على أن الاصطلاح ليس من العلم وإلا ما كان واحدا عند جميعهم " ثم يقول " ومن أهم ما يلزم ف المعلم فتق اللسان بالمحاورة أو المناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التى هى صناعة التعليم» (٥٨)

تصور إسلامى لتأصيل التربية :

إن الديانات العالمية والرأسمالية ، وحتى وقت قريب ، الشيوعية ، لم تنشأ وتتطور وتحقق انجازاتها دون أن يكون وراء ذلك فكرة وقضية تنفخ الروح في المؤمنين بها وتدفعهم إلى العمل، فأقل ما يجب أن يقال هنا إن على المسلمين أيضا أن تكون لهم قضية يؤمنون بها تكون حافزا لهم إذا أرادوا أن يتحولوا من متأثرين بالتاريخ إلى مؤثرين فيه . غير أن الإسلام ليس مجرد مذهب أو مبدأ يتساوى مع هذه المذاهب التى نتحدث عنها ، فهو لا يتقدم بدعواه على أساس أن ما لديه هو اعتقاد خاص به وتجربة شخصية تخص صاحبها يمكن أن يؤمن بها الإنسان أو يرفضها على نحو اعتباطى. إن الإسلام دعوى منطقية ضرورية ذات خطورة وأهمية، كما أن له فعاليته على نطاق عالمى .. إنه دعوى ملزمة للبشرية ، من حقه أن تعترف به البشرية وتذعن له ، أما اعتباره دعوى منطقية ، فالسبيل الوحيد لمواجهته يجب أن تكون بمنطق مقابل وهو أمر ينبغى علي الملتزمين بالإسلام أن يرحبوا به ثم يواجهوا الحجة بالحجة . (٥٩)

إن الإسلام هو – قبل كل شئ – " نظام" للحياة البشرية ، ذو خصائص مميزة ، نظام يقوم على أساس تحكيم شريعة الله وحدها – كما

هي مبينة فى كتابه وسنة رسول الله ، بل هو المدلول الأول لهذه الشهادة ، المدلول الذى لا يتحقق لهذه الشهادة بدونه وجود في الضمير الإنسانى ، ولا في حياته سواء ، إن الناس في جميع الأنظمة الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، حين يتحاكمون إلى غير شريعة الله . يقع هذا في أرقى الديموقراطيات ، كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء " (٦٠)

إن أولى خصائص الألوهية هي حق تعبيد الناس وتطويعهم للشرائع والأوامر . حق إقامة النظم والأوضاع والمناهج والشرائع ، والقيم والموازين ، وحمل الناس على اتباعها .. وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس – في صورة من الصور – ويرجع الأمر فيه إلى مجموع من الناس – على وضع من الأوضاع ـ وهذه المجموعة من الناس التى تخضع الآخرين لأنظمتها وأوضاعها ومناهجا وشرائعها ، وقيمها وموازينها ، هى الأرباب الأرضية التى يتخذها الناس في جميع أنظمة الأرض أربابا من دون الله ، ويسمحون لها بادعاء الحاكمية ومزاولتها ومزاولة ابتداع الأنظمة والأوضاع ، والمناهج والشرائع ، والقيم و الموازين – كما يسمحون لها برفض ألوهية الله سبحانه وربوبيته في الأرض – وذلك عن طريق السماح لها بتنحية شريعة الله عن الهيمنة وحدها على حياة الناس كلها . فالإقرار بألوهية الله – سبحانه – وربوبيته لايقوم إلا حين تقر النفس بألوهيته ، وربوبيته في السماء وفى الأرض ، في الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، في ضمائر الناس وشعائرهم وفي حياتهم وواقعهم سواء(٦١) بحيث لا تخرج جزئية واحدة من جزئيات الحياة البشرية – في الدنيا أو الآخرة – عن سلطان الله إلى سلطان سواه ، وهذا هو مدلول قول الله سبحانه : " وهو الذى في السماء إله وفي الأرض إله " (الزخرف/ ٨٤) .

ومن هنا تأتى الدعوة إلى (التوجيه الإسلامى) أو (التأصيل

الإسلامي) ، أو (الأسلمة).. إلى غير ذلك من مصطلحات تختلف في البني اللفظية وتتحد في الهدف .

إن اعادة صياغة أصول التربية في ضوء الإسلام هو ما نعنيه بأى مصطلح من هذه المصطلحات ، وبالتالى نقصد إعادة صياغة المعلومات وتنسيقها وإعادة التفكير في المقدمات والنتائج المتحصلة منها وتقييم الاستنتاجات التى انتهى إليه هذا المجال من مجالات المعرفة التربوية ، وإعادة تحديد الأهداف، على أن يكون كل ذلك بطريقة تجعل فروع المعرفة التربوية تثرى التصور الإسلامى وتخدم أهداف الإسلام .

وللوصول إلى ذلك الهدف ، لابد لقضايا الإسلام الأساسية – ونعني بها وحدة الحقيقة ووحدة المعرفة ووحدة البشرية ووحدة الحياة ، والإيمان بوجود هدف من وراء خلق الكون للإنسان ، وعبودية الإنسان لله – لابد لهذه القضايا كلها أن تحل محل التصورات الغربية وأن يتحدد علي أساسها كيفية إدراك الحقيقة وتبويبها . ولابد لقيم الإسلام أيضا – ونعنى بها استخدام التربية لسعادة الإنسان ، وتفتح قدرات الإنسان دون عوائق ، وإعادة النظر في العلاقات القائمة بين أنواع المخلوقات بما يجسد الحكمة الإلهية في خلقها ، وبناء الثقافة والحضارة ، وبناء منارات إنسانية بارزة في العلم والحكمة والبطولة والفضيلة والتقوى والطهر – على قيم الإسلام هذه أن تحل محل القيم الغربية فتقوم هي بتوجيه النشاط العلمى في كل مجال.(٦٢) .

وليس في مقدور مثل هذه الدراسة المحدودة مكانا وزمانا أن تضع الأسس والمنطلقات التى يمكن أن تقوم عليها اصول التربية لتتسم بالفعل بالصيغة الإسلامية، فمثل هذا العمل يحتاج إلى جهد الجماعة ويحتاج إلى مئات الصفحات وإلى زمن طويل ، ومن هنا فاننا نسوق عددا من المؤشرات

التى تدور حول منطلقات ومقومات تعد اساسا جوهريا في التصور الإسلامى يستحيل اعتبار أصول التربية (إسلامية) الا إذا توفرت في إطارها الفكرى ومعينها الذى تتغذى منه.

للدكتور زغلول النجار تصور النجار تصور نتبنى هنا معظم خطوطه العريضة ونكمله ببعض الأفكار التى تخص مجال أصول التربية:

١ - التأكيد علي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والعمل على تطهير الكتابات التربوية من أية إشارة يمكن أن تشكك في ذلك من قريب أو بعيد ، بغير مساس بالمنهج العلمى ذاته أو حجر على العقل البشرى في انطلاقه للتعرف على هذا الكون وسننه .

٢ - التأكيد على قيمة العلم في الإسلام والدعوة إليه ، والإقرار بأنه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فالإسلام يطالب العقل البشرى بالنظر في هذا الكون والتأمل في بديع صنعه لأنه بذلك يتعرف على خالقه ويستخلص شيئا من السنن الكونية التى تمكنه من عمران الأرض والآيات القرآنية التى جاءت في هذه المعاني قد جاوزت السبعمائة آية .

٣ - ولما كان الإسلام دين دعوة، فإن المسلم مطالب بأن يعلم المسلمين الآخرين ما توصل إليه من نتائج خلال عملية بحثه ووعيه وإدراكه ، وهو لكى يحسن هذا لابد له من معرفة أسس عملية التعلم والتعلم وطرقها ونظمها وغير ذلك مما تتناوله علوم التربية .

٤ - إبراز عظمة الكون وكل مافيه من مخلوقات (جمادا ونباتا وحيوانا وطاقات وظواهر) ، والتأكيد علي أن هذا الكون الشاسع ، المحكم البناء لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه ، وإنما لابد له من موجد قد أوجده وهو الذى يرعاه ، فالاحتمالات الرياضية للصدفة في نشأة الكون

معدومة فعلا مما يجزم بأن الكون لا يمكن أن يكون قد تواجد إلا بتدبير مسبق وحكمة بالغة ولا أن يستمر في وجوده هذا إلا برعاية خالقه.

٥ - وإيمان الإنسان بوجود خالق لهذا الكون يستتبع التزامه بتعاليم هذا الخالق وأوامره ونواهيه في تربية المخلوق الإنسانى على اعتبار القاعدة المنطقية التى تؤكد بأن خالق الشئ هو الأعلم بكيفية تنشئته وتكوينه ، وبالتالى فإن عالم أصول التربية المسلم يجد من المحتم عليه أن تكون العقيدة الإسلامية هى الهادية له وهي المكونة للبذور التى يبذرها في شخصية المتعلم كى ينشأ على هدى .

٦ - التأكيد على أن هذا الكون المتناهى في الاتساع مبنى على نفس النظام من الذرة إلى الخلية الحية ، إلى المجموعة الشمسية . ثم إن مكوناته على تباينها يمكن ردها إلى لبنات أربع هى : المادة والطاقة والزمان والمكان . وقد توصل العلم إلى أن المادة علي اختلاف صورها ترد في أصلها إلى غاز الهيدروجين (أخف العناصر المعروفة) ، وأن الطاقة بمختلف أنواعها والجاذبية لابد أن يلتقيا في شكل واحد للطاقة ، وبأن الطاقة والمادة شئ سواء ، وبأن الزمان والمكان شئ متواصل ، وبذلك تتحلل مركبات الكون المعلومة لنا إلى شئ واحد لا نعرف كنهه ، ولكه يمثل الوحدة العظمى التى تجرى في هذا الكون كله ، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على وحدة الخالق سبحانه وتعالى .

٧- إن هذا الكون ليس أزليا فقد كانت له في الأصل بداية ، وأنه لا يمكن أن يكون أبديا لأنه لابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية ، والعلم بمختلف تخصصاته يؤكد على ذلك ، ولابد من الإشارة إلى ذلك المعني في معرض المناقشات كلما لزم الأمر بلا افتعال .

٨ - التأكيد علي أن العلم في جوهره هو محاولة جادة للوصول إلى الحقيقة ، وعلي ذلك فلابد لكل مشتغل به من التذرع بصفات الأمانه والدقة والرغبة الصادقة في التوصل إلى المعرفة ، وعلى أن البحث العلمى المتميز بالإخلاص هو نوع من الجهاد الذى يؤجر عليه الإنسان ، وكذلك التأكيد على أن المنهج العلمى أسلوب في التفكير والعمل ، كل من يتبعه بصدق يصل إلى قدر من المعرفة، وهو مجال يتنافس فيه المتنافسون.

٩ - إن إبراز العلم الإنسانى لا يتعدى كونه محاولة بشرية لتفسير الظواهر الكونية المحيطة بالإنسان والاستفادة بها في عمران الأرض ، وعلى ذلك فليس في وسع الإنسان أن يصل إلى جوهر الأشياء لأنه لا يستطيع أن يصف سوء مظهرها واضطراد تأثيرها ، ومن هنا فلا يمكن لاستنتاجاته أن تمثل الحقيقة المطلقة ، فالعلم البشرى محكوم بأحاسيس الإنسان المحدودة وبإمكانات عقله المحدودة أيضا ، والتى تجعل من استنتاجاته شيئا لا يعدو أن يقع في حدود دائرة الإنسان . ثم إن جميع الاستنتاجات العلمية محدودة كذلك بوضعه على كوكبه الأرضى في زمان ومكان معين ، ومن هنا تأتى استنتاجاته كلها نسبية .

١٠ - ضرورة التأكيد على أن العقل البشرى يمثل إحدى النعم الكبرى التى من الله بها على الإنسان ، وإنه من قبيل الشكر على هذه النعمة ، استخدامها إلى أقصى حدود إمكانياتها وصدق الله العظيم إذ يقول " ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ".

وإذا كانت هذه خطوط عريضة تتعلق في معظمها بالله والكون ، ذلك الأساس الأول لقيام فلسفة للتربية ، فإن هناك نقاطا أخرى تستحق وقفة أكثر تفصيلا:

فلقد جاء الإسلام لكي يؤكد موقفه من العمل الحضارى من خلال رؤية متوازنة تضم جناحيها علي كل ما هو روحى أخلاقى ومادى جسدى في الوقت نفسه ، ونجد أنفسنا ونحن نطالع كتاب الله أو نقرأ سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بإزاء تأكيدات عديدة ، آيات وأحاديث ، تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة ، وتدفعها إلي أن تبذل جهدها من أجل التنقيب على السنن والنواميس في أعماق التربة ، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات .. إننا بازاء حركة حضارية شاملة تربط ، وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السموات والأرض بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع ، بين التلقي من الله والتوغل قدما في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها ، بين تحقيق مستوى روحى عالى للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم والعلو الحضارى على المستوى المادى (المدنى) . ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك ، إنه يقف دائما موقفا شموليا مترابطا ويرفض التقطيع والتجزئ في تقييم الموقف (الحيوى) أو الدعوة إليه .. ولقد انعكس هذا (التوحد) بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التى قطعت القرون الطويلة وهى تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين ، وأنجزت وابتكرت وكشفت الكثير من المعطيات الحضارية التى لم تهمل جانبا من الجوانب المرتبطة جميعا ارتباطا وثيقا بخلافة الإنسان على الأرض ، ودوره الحضارى في العالم ، وما كان لها إلا أن تكون كذلك وهى تعمل من خلال مناخ حضارى متوازن نتلمسه بوضوح في كثير من آيات القرآن الكريم . (٦٤)

ومناط الأمر في تربية الإسلام (تزكية النفس) ومن هنا فإن حدة الذكاء وسعة العلم لا يمكن أن يغنيا فيها عن شرف الخلق . إننا نمقت

الذكى الشرير ، ونخشى من معاملته ، ونعتقد أن النفس الصغيرة لا تزيدها المعرفة الكبيرة إلا قدرة علي الأذى ، وطاقة علي الإساءة !! ومن الخطأ أن نحسب الدين معرفة نظرية أو قراءة طويلة ، بل إن الدين إذا لم يكن كبحا للهوى وامتلاكا للطبع ، فلا خير فيه ولا جدوى منه . (٦٥)

وقد أكد القرآن الكريم أن تزكية النفس الإنسانية هى الغاية من شتى التكاليف ، والتزكية المنشودة هي التربية الصحيحة ، هى تصفية المعدن الإنسانى من شوائبه ، وجعل الشهوات كلها تحت رقابة العقل المؤمن فلا تطغى ولا تجمح ، ومن ثم فلابد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه حتي تصلح . عمل مرهق جاد يكسر الرغبة الجامحة ، ويخضع الإنسان لوصايا الرحمن ﴿ فَأَمَّا من طغىٰ (٣٧) وآثر الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هي الْمَأْوَىٰ (٣٩) وأمَا منْ خاف مقام ربه ونهى النَّفْس عن الْهوىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجنَّة هيَ المأْوىٰ ﴾ (النازعات/٣٧-٤١)

وأشكال العبادات لا تصنع ذلك التغيير الحاسم ، فإذا لم تمح الصلوات الحسد من نفوسنا ، فلا صلاة لنا . السجود الحقيقى ليس إنطواء الجسم أمام الله ، بل هو انقياد القلب لهدايته ووصايا " الخيط المعقد لا ينحل ويسترسل إلا بفك عقده عقدة عقدة ، ولا تفيد في ذلك تغطية ولا تحلية ، والنفس المعقدة لا تعود لفطرتها ولا تستقيم مع سجيتها إلا بعد ذهاب عللها ، وعودة العافية إليها . فإذا كانت العبادات استعانة بالله علي بلوغ هذا الهدف ، وإذا قبلها الله ، وأعان الضارع فأصلح نفسه ، وأقام عوجه ، فالعبادة صحيحة مقبولة ، وإلا .. فالوضع لم يتغير ....» (٦٦)

وتتجلى أهمية تركيز تربية الإسلام على (تزكية النفس) من مكانة الإنسان في التصور الإسلامى ، هذه المكانة التى تحدد إلى حد كبير هدف

العملية التربوية بمختلف جوانبها وأركانها بحكم أن (الإنسان) هو موضوع التربية ولحمتها وسداها . . هو المادة الخام التى يحاول المربى أن (يصنع) منها صناعة تقيم حياة تنبض بالفعالية علي الأرض ، فعالية بناء وإعمار وفعالية فضيلة وتقوى .

إن هذه (المركزية) لقضية (الانسان) في العمل التربوى هي التى تملى على كل عمل أصولى في التربية أن يضع التصور الإسلامى له في المحل الأول ومركز الأساس في بناء البشر وتحريك الجماعة الإنسانية ، فماذا يقول هذا التصور ؟ (٦٧)

١ - الإنسان مخلوق خاص ، ذو كيان متميز ، تميزه في ازدواج عناصر تكوينه. مستخلف في الأرض ، مزود بخصائص الخلافة ، وأول هذه الخصائص : الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة، ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها . ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركى للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته .. للنهوض بوظيفة الخلافة

٢ - وهو كائن كريم على الله ، ذو مركز عظيم في تصميم الوجود - على الرغم من كل ما في طبيعته من استعداد للضعف والخطأ ، والقصور والتردى - ولكن استعداده للمعرفة الصاعدة ، ولحمل أمانة الاهتداء ، وللتبعة ، يجعله كائنا فريدا ، يستحق تكريم تلك العناية الإلهية به بإرسال رسله ورسالاته .. وهو أكرم من كل ما هو مادى ، لأن كل ما هو مادى مخلوق له.

٣ - وهو كائن يتعامل مع الكون كله ومن فيه وما فيه .. وهو يتعامل مع ربه كما يتعامل الملأ الأعلى من الملائكة ، ومع الجن والشياطين ، ومع

نفسه واستعداداته المتنوعة ، ومع سائر الأحياء الكونية ، ومع طاقات الكون الظاهرة والخفية ، ومع مادة هذا الكون وأشيائه .. والكون مهيأ للتعامل معه . كما أنه مجهز بوسائل التعامل مع الكون، ومع رب الكون ، بما ركب فيه من روح وعقل وحواس وقوى وطاقات تناسب ازدواج عناصر تكوينه.

٤ - وهو مستعد - حسب تكوينه الذاتي - لأن يرتفع إلى أرقى من آفاق الملائكة المقربين كما هو مستعد لأن ينحط إلى أدنى من دركات الحيوان البهيم ، وذلك حسب ما يبذل من جهد ورغبة واتجاه ومحاولة في الارتباط ببارئه ومنهجه وتوجيهه .. فهو - من ثم - أعجب كائن ، وأغرب جهاز . يحتوى هذه الاستعدادات المتباعدة الآماد، ولا تعرف أن هناك كائنا آخر له هذه الخصائص ، سواء الملائكة ، أو الشياطين ، أو صنوف الحيوان ، أو عناصر المادة وأجهزتها.

٥ - وهو مصمم علي قاعدة الزوجية التى هى خاصية كونية وحيوية ، وعلي قاعدة التكامل بين الزوجين ، لا التماثل - وهى كذلك خاصية كونية وحيوية - وقبل ذلك : علي أساس التناسق مع الكون والقربى في الماهية المادية ، بزيادة ذلك العنصر الفريد فيه - النفخة من روح الله - وهي أمر غير مجرد الحياة الحيوانية .. وهو العنصر الذى خط له طريقه الخاص الذى يعترف الآن بخصوصيته حتي أصحاب الدارونية .

وتربية الإسلام للإنسان إذ تقوم علي تزكيته وتطويره ، فهى من ثم تقر بسنة التغير التى أودعها الله في كونه.

إن الكلام عن تبدل المجتمعات من حال الى حال وهلاك الأمم والأقوام والقرون، أى الأجيال ، كثير جدا في القرآن وهو مقترن بالدعوة إلى التفكر والتأمل والأعتبار ، ويغلب عليه الصيغة المجردة من التفصيلات

التاريخية والحوادث الشخصية ، فهو أقرب إلى صيغ علم الاجتماع منه إلى التاريخ . ولو استعرضنا هذه الآيات الكثيرة لوجدنا أن القرآن يخرجنا من النطاق المحدود في إطار زمن معين وقبيلة معينة ويجعلنا نطل على المجتمع البشرى في إطاره العام الشامل للشعوب والأمم الخاضعة كلها لسنن واحدة في التغيير . وفي القرآن الكريم والحديث إشارات لعوامل التغيير وليس ذلك على سبيل الحصر ولا على طريقة البحث العلمى ، لأن ذلك متروك لتفكير البشر واجتهادهم ، فالقرآن كتاب هداية لجمهرة الناس وليس مقصورا علي الخاصة ، وهدفه هدايتهم وإرشادهم ودلالتهم ، ولذلك يكفى أن يشير القرآن ويدل على أن الظلم والبطر والترف تسبب هلاك الأمم ، لتحصل العبرة والفائدة العملية ، ولكن علي العالم الباحث أن يفتش فيما وراء كلمة الظلم من أنواع كالظلم السياسى والاستبدأد والاستعلاء والظلم الاقتصادى والمالى كظلم المرابين والأغنياء للدائنين والفقراء وظلم القضاة والحكام للمتقاضين والمحكومين ، هكذا له أن يحلل مفهوم البطر والترف والإسراف الواردة كذلك في آيات كثيرة على أنه من أسباب تبدل النعم ودمار الأمم . (٦٨)

وإن إبراز دور الإنسان في منهج التغيير ، بدرجة كافية ، غدا من الضرورات الملحة جدا ، لأن التصور الإسلامى جعل من الإنسان مدارا للحركة الحضارية ، وأوكل إليه مهمة التغيير والبناء ، ولكنه بتحقيق الخلافة الإلهية علي هذه الأرض ، وإدارة الصراعات المختلفة التى تجرى فوقها ، واستغلال ما علي ظهرها واستخراج ما في باطنها ، مستفيدا من الزمن لإنتاج الحضارة (٦٩)

ويقوم الإنسان بهذا الدور التاريخى من خلال عقله المدرك في عالم الشهادة ، وشعوره وتأمله وطاقاته الكثيرة التى زوده الله تعالى بها ، لكى

يصنع تاريخه على هذه الأرض بمعرفة الله تعالى، فبحركته من خلال حريته الملتزمة يتحرك التاريخ ، ويتطور الزمن وتتغير مظاهر الحياة ، إن الجبرية التى فرضت على الإنسان المسلم من خلال صور التحكم الغربى ليست من الإسلام في شئ ، فآيات القرآن الكريم صريحة في إعطاء هذا الدور المبدع للإنسان وهو صنع تاريخه وحياته على هذه الأرض ، من خلال رؤيته الربانية المنبثقة من تصوره الإسلامى الشامل(٧٠).

ونحن إذ نشير إلي هذه الملامح والمقومات ، أو بمعني أصح ، لعدد رئيس وهام منها مما يكون أصولا للتربية ، يبرز تساؤل هام عن الحكمة في عدم كشف التصور الإسلامى عن قوانين الطبيعة بينما يكشف عن الكثير من القواعد والسنن الإلهية في عالم الإنسان قيما وأخلاقا وتنظيما ؟

في مجال الطبيعة والأشياء لم يشأ الله سبحانه أن يكشف للإنسان عن قوانينها ، لأن هذا يعنى إهمالا لطاقات الإنسان الخلاقة وقدرتها علي الكشف والإبتكار، ولو حدث ووجد الإنسان نفسه فجأة أمام القوانين الطبيعية علي حقيقتها ، لألغيت إذن - وبشكل محتم - كل قدراته ومحاولاته ، ولأسلم نفسه لكسل فكرى واتكالية لم يرد الله سبحانه للإنسان أن يقع فى إسارها ، أما القانون الأخلاقى والمنهج الدينى فهل كان من المنطق أن يظل غامضا وأن يسعى الإنسان بنفسه للكشف عنه ؟! إن هذا القانون وذلك المنهج ما داما يرتبطان أساسا بالعالم الأوسع ويمتدان إلي ماوراء الحس الظاهر للعيان ، ما داما ينأيان دائما عن رؤية الإنسان المباشرة وحريته المحدودة ، وحركته النسبية ، فليس من السهل عليه إذن أن يترك وحده للسعى وراء أهداف لم يهيأ للكشف عنها. إن تجربة (الخطأ والصواب) تغدو مجدية في مجال التعامل مع الطبيعة لأنها ستعلم الإنسان طريقة جديدة ، أو تعطيه ابتكارا جديدا ، وما منجزات الغرب التقنية

المعاصرة إلا (تراثا) أسهمت في صنعه وبنائه معظم أمم الأرض وشعوبها بعد أن مارست كثيرا من تجارب الخطأ والصواب ، ولا زال العلم إلى الآن ينفى اليوم ما أثبته بالأمس ، ويثبت ما سوف ينفيه في الغد ، ولكن هذا النفى والإثبات ، وهذه الظنية التى تحكم العلم لم تؤثر في يوم من الأيام على التطور المستمر للإنجازات العلمية ، بل إن هذه في صعود مستمر نحو الأكثر والأحسن ، أما في المجال الأخلاقى والديني فلا يمكن للإنسان أن يمارس تجربة الخطأ والصواب لأن هذه ستكون على حساب كينونته ووقته وجهده ، ولأنها - وهذا هو الأهم - سوف لن تقدم له الصواب المطلق الذى لا خطأ بعده في يوم من الأيام ، ذلك أنه لا يملك الوسائل التى تمكنه من تمحيص هذا الصواب .ثم إن عملية النفى والإثبات هنا ليست سوى عملية سلبية ، إذ إن النفى في عالم الأخلاق سيوقع الأمم والشعوب في فوضى لاحد لها ، وسيصيب الإنسان نفسه بمشاكل باطنية وقلق وتمزق داخلى ، يشلانه عن المضى في طريق التطور والتحضر (٧١)

وإذ تشكل الخطوط العريضة للتصور الإسلامى منطلق الدراسات الأصولية في التربية ، يصبح من الضرورى أن ينعكس هذا التصور في فلسفة التربية بصفة خاصة .

وعلى سبيل المثال ، فإن فلسفة التربية الإسلامية تعكس مبادئ الخلق الهادف ، والوحدة ، والاتزان ، في تفسيرها للكون ، والإنسان والحياة بصورة متميزة علي النحو التالى، (٧٢)

فمبدأ الخلق الهادف ، يعني أن التربية الإسلامية ، صورة من صور العبادة ، تعني أولا : بترسيخ الإيمان بالله في كيان هذا الإنسان المخلوق لله خلقا هادفا ، وتعنى ثانيا بتجلية جوانب العظمة في خلق هذا الكون ، واكتشاف نواميسه وقوانينه والغاية من مسيرته . وتعنى ثالثا . بتنظيم هذه

الدنيا لتؤدى هدفها المرجو ، فالتربية الإسلامية من هذه الناحية تربية محورها الإنسان المؤمن العابد ، وميدانها الكون الذى يسير وفق نواميس وقوانين لمستقر وغاية رسمها الخالق الواحد ، وهدفها الحياة المؤمنة ، التى تجعل الحياة الدنيا طريقا طبيعيا إلى الحياة الآخرة . قال تعالى " ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (سبأ /٦)

ومبدأ الوحدة ، يعنى أن التربية الإسلامية ، تنظر إلى هذا الكون بأكمله ميدانا لها بأرضه وسمائه ، بإنسانه وأحيائه ، بنباتاته وجماداته ، فالعلوم والمعارف ، كلها تكون التربية الإسلامية ، والتربية الإسلامية ، ليست مرادفة للتربية الدينية التى تعنى بالعلوم الدينية فقط ،، فنصيب التربية الإسلامية من خلال العلوم الطبيعية والحياتية والفلكية لايقل عن نصيبها من خلال العلوم الدينية ، ولحكمة أرادها الله ، جاءت الآية الكريمة ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر/ ٢٨) بعد ذكر آيات الله الكونية في الجبال المختلفة ألوانها ، وفي اختلاف حياة الأحياء والنباتات كذلك ، إن الإنسان ليتعبد الله في النظر إلى ملكوت السموات والأرض والتأمل في جميع الظواهر النفسية والكونية (٧٣).

ومبدأ الاتزان يعني أن التربية الإسلامية متوازنة، في نظرتها إلى الكون المتوازن، والإنسان المتوازن ، والحياة المتوازنة ، تنظر إلى التوازن في حقول المعرفة الكونية والإنسانية والاجتماعية ، فتجعل من بعضها فرض عين يلزم كثقافة عامة للنجاة في الدارين، ومن بعضها فرض كفاية في حدود مصلحة الجماعة ، وما يحتاجه المجتمع من الاختصاصات المختلفة(٧٤) ، وتوازن التربية الإسلامية كذلك بين القول والفعل

﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عندَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف/٢-٣)،والتربية الإسلامية توازن بين حاجات الإنسان المادية وحاجاته النفسيه ﴿الَّذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش/٤) .

أما بعد ....

فإذا كنا قد أوضحنا إن (أصول التربية) تعنى بالمسالك التى تصل بين الحقل التربوى وبين عدد من النظام والعلوم ذات العلاقة الفعالة المؤثرة كالنظام السياسى ، والنظام الإجتماعى والنظام الثقافى ، والفلسفة ، والعلوم الشرعية ، والاجتماعية ، والتاريخ .. إلخ ، فإن معنى ذلك أن التوجيه الإسلامى لهذه الأصول يستحيل أن يتم بمعزل عن التوجيه الإسلامى في جملة العلوم الاجتماعية والإنسانية . فأصول التربية لا تنشئ نظريات سياسية مثلا ولا تقعد في هذا الحقل وإنما تعتمد علي ما يصل إليه علماء السياسة لترسى دعائم (الأصول السياسية) ، أي إن خطوة التوجيه الإسلامى هنا ، لابد أن تتم أولا في العلوم السياسية .. وهكذا .

بيد أن هذا لا يعنى أن تظل أصول التربية بانتظار الآخرين ، فلها حقلها الخاص بها وهو فلسفة التربية الذى يقوم على الإطار العقائدى للمجتمع ، وهذا هو مابسطنا القول فيه في الصفحات السابقة مؤكدين أن التوجيه الإسلامى هنا يعنى تطبيق النهج الإسلامى وتبنى التصور الإسلامى كمنطلق تقوم عليه فلسفة التربية .

كذلك فلنا أن نقترح فيما يلى عددا من الخطوات الأساسية التى تعين الباحثين علي استكمال خطوات التوجيه الأسلامى ، منها :

١ - وضع قائمة يتفق عليها بأهم المفاهيم الحاكمة في الحقل

التربوى والتي تشكل قضايا أساسية لفلسفة التربية ، كمفهوم الخبرة ومفهوم العمل ، ومفهوم النشاط ، ومفهوم الحرية ، ومفهوم التفكير .. الخ .

٢ – والخطوة المكملة للخطوة السابقة ، القيام بعملية تحليل لآيات القرآن الكريم لاستخراج الآيات القرآنية التي تتصل اتصالا مباشرا بكل مفهوم من هذه المفاهيم .

٣ – القيام بنفس الخطوة بالنسبة لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤ – القيام بدراسات مختلفة من خلال التفاسير الكبرى للقرآن الكريم وآراء أهل الفقه والاجتهاد وعلماء التربية والنفس حول كل مفهوم من هذه المفاهيم .

٥ – دراسة نقدية لمناهج البحث القائمة في العلوم التربوية لمحاولة الكشف عن سلبياتها وإيجابياتها بالنسبة للبحث العلمى في القرآن الكريم والسنة النبوية بهدف التحليل الأصولى التربوى ، ومحاولة الوصول إلى حسم قضية المنهجية وما إذا كانت هناك منهجية خاصة بهذا المجال أم لا ، وما معالم هذه المنهجية ؟

٦ – نشر وتحقيق المخطوطات التى مازالت في المكتبات العامة والخاصة ، علي ألا يقف الأمر عند حد الطباعة الحديثة بل (التحقيق) بالمعنى الكامل والشامل ، وضرورة قيام دراسات نقدية لما يتم نشره وتحقيقه .

٧ – دراسة مقارنة لغايات التربية في الإسلام وأساليبها مع غايات وأساليب الأمم المتقدمة وأسباب القصور التطبيقى للمدرسة التربوية الإسلامية المعاصرة .

٨ - دراسة مقارنة لغايات التربية في الصدر الأول والعصور اللاحقة وأهم التغييرات في الغايات والأساليب التربوية .

٩ - دراسة مقارنة لأساليب التربية والتعليم قبل الإسلام وبعد الإسلام وأهم التغييرات التى جاء بها الإسلام .

١٠ - دراسة نقدية للآراء التربوية التي قال بها فلاسفة الإسلام وفقهاؤه ومربوه في مجال التربية والتعليم .

١١ - دراسة نقدية للدور التربوى الذى قامت به المدرسة في العصور الإسلامية السابقة

١٢ - دراسة تقويمية للأدوار التى قامت بها المساجد في التاريخ الأسلامي .

١٣ - مجموعة من الدراسات الميدانية على طلاب المدارس والجامعات للكشف عن الوعي الدينى لديهم ومعوقات الوعى السليم ومظاهر الوعى الزائف.

١٤ - مجموعة دراسات لتحليل محتوى برامج الإذاعة والتلفزيون والصحف والمجلات من المنظور التربوى الإسلامى .

١٥ - دراسات نقدية لفلسفات التربية الغربية من خلال المنظور التربوى الإسلامى .

الهوامش

١ – م.م صديقى : الأسس الإسلامية للعلم ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ١٧ ، المحرم / ربيع الأول ١٣٩٩هـ ص١٥ .

٢ – محمد الهادى عفيفى : في أصول التربية ، الأصول الثقافية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٧٩ ، ص ٦٣ .

٣ – عبد السيمع سيد أحمد : مكانة التربية بين العلوم ، القاهرة ، دراسة تحت النشر ، على الألة الكاتبة ، ١٩٩١، ص ٣٤ .

٤ – إسحق موسى فرحان : أزمة التربية في الوطن العربى ، عمان ، دار الفرقان ، ١٩٨٦، ص ١١ .

٥ – المرجع السابق ، ص١٢ .

٦ – عبد الحميد أبو سليمان : إسلامية المعرفة وإسلامية العلوم السياسية ، المسلم المعاصر ، العدد٣١، رجب/ رمضان ١٤٠٢هـ ،ص٢٤ ٧ – المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٨ – إسحق فرحان وأخرون : نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية ، عمان ، مطابع وزارة الأوقاف ، ١٩٨٠ ، ص١ .

٩ – المرجع السابق ، ص٢ .

١٠ – المرجع السابق ، ص٥ .

١١ – زغلول راغب النجار : أزمة التعليم المعاصر ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ١١ رجب/ رمضان ١٣٩٧هـ، ص١٥٣ .

١٢ – المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

١٣ – محمد أبو السعود : الفكر الإسامى المعاصر ، مضمونه ومستقبله ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ١٣ ، محرم / ربيع أول ١٣١٩٨ هـ ، ص٢٤
١٤ – محمود غازى : إسلامية المعرفة ، الفكر السياسى والدستورى ، مجلة المسلم المعاصر العدد ٣٤ ربيع ثانى / جمادى الثانية ١٤٠٣ هـ ص٧٥ .

١٥ – المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

١٦ – المرجع السابق ، ص٧٦ .

١٧ محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢، ص١٤ .

١٨ – المرجع السابق ، ص ١٥ .

١٩ – المرجع السابق ، ص١٦

٢٠ – محمد مهدى شمس الدين : العلمانية ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٣ ، ص١٥ .

٢١ – المرجع السابق ، ١٦ .

٢٢ – المرجع السابق ، ص١٨ .

٢٣ – المرجع السابق ، ص٧٦ .

٢٤ – المرجع السابق ، ص ٧٧

٢٥ – محسن عبد الحميد : المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى ، الدوحة ، رئاسة المحاكم الشرعية ، كتاب الأمة ، جمادى الآخرة ، ١٤٠٤ هـ ص ٤٦ .

٢٦ – عادل حسين : نحو فكر عربى جديد ، القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ١٩٨٥ ، ص ٢٦ ٢٧ – المرجع السابق ، ص ٢٧ .

٢٨ – أبو الحسن الندوى : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، الكويت، دار القلم ، ١٩٨٥ ، ص١٧٠ .

٢٩ – المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٣٠ – المرجع السابق ، ص ١٧١ .

٣١ – محمود محمد شاكر : رسالة في الطريق الى ثقافتنا ، القاهرة ، دار الهلال ، كتاب الهلال، سبتمبر، ١٩٩١ ، ص ٢١٩ .

٣٢ – المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

٣٣ – محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٦٨، جـ٢، ص٢٩٤ .

٣٤ – المرجع السابق ، ص٢٩٥

٣٥ – يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٧٧ ، ص٢١.

٣٦ – المرجع السابق ، ص٢٢.

٢٧ – سعيد إسماعيل على : الفكر التربوى العربى الحديث ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، مايو ١٩٨٧ ، ص٥٦

٣٨ – سعيد اسماعيل على : دراسات في التربية والفلسفة ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٢ ص٩٩ .

٣٩ – المرجع السابق ص١٠٠ .

٤٠ – سعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٥، ص٥٧٠ .

٤١ – محمد عمر القصار : المنهج الإسلامى في تعليم العلوم الطبيعية ، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامى ، ١٩٨٤ ، ص٨٤ .

٤٢ – إساعيل راجى الفاروقى : الإسلام والمدنية ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٣٦ شوال / ذو الحجة ١٤٠٣هـ، ص٥ .

٤٣ – المرجع السابق ، ص٦ .

٤٤ – محمد معين صديقى : الأسس الإسلامية للعلم ، المسلم المعاصر ، العدد ١٨ ، رع/ربيع ثانى جمادى الثانية ١٣٩٩هـ ، ص٤٦

٤٥ – إسماعيل الفاروقى أسلمة المعرفة ، المسلم المعاصر ، العدد٣٢ ، شوال / ذو الحجة ١٤٠٢ هـ ، ص١٠ .

٤٦ – عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، كتاب الأمة .، ١٩٨٥ ، ص٣١ .

٤٧ – المرجع السابق ، ص٣٢ .

٤٨ – إسماعيل الفاروقى : صياغة العلوم الإجتماعية صياغة إسلامية ، المسلم المعاصر، العدد // ٢٠ ، ذو القعدة / محرم ١٤٠٠ هـ ، صـ ٢٩ .

٤٩ – روبرت م . أغروس وزميله : العلم في منظوره الجديد ، ترجمة كمال خلايلى ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة ، سلسلة عالم المعرفة ، فبراير ١٩٨٩ ، صـ٩ .

٥٠ – المرجع السابق صـ نفس الصفحة

٥١ – المرجع السابق ، صـ١٠ .

٥٢ – عون الشريف قاسم ، القرآن الكريم والحضارة ، المسلم المعاصر ، العدد ١٣ ، ص٨٠ .

٥٣ – محمد كمال جعفر : ثقافة المسلم المعاصر بين الأصالة والتجديد ، المسلم المعاصر، العدد الخاص ، المحرم : ربيع أول ١٣٩٦هـ ، ص١٥ .

٥٤ – المرجع السابق ، صـ١٧ .

٥٥ – المرجع السابق ، صـ١٨ .

٥٦ – المرجع السابق ، صـ ١٩ .

٥٧ – سعد مرسى أحمد وآخرون : المدخل إلى العلوم التربوية ، القاهرة ، عالم الكتبه ١٩٨٠ ، ص- ١٢٥ .

٥٨ – المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٥٩ – إسماعيل الفاروقى : أسلمة المعرفة ، المسلم المعاصر ، العدد ٣٢ ، صـ١٥.

٦٠ – سيد قطب : مقومات التصور الإسلامى ، القاهرة، دار الشروق ، ١٩٨٦ ، صـ١٨.

٦١ - المرجع السابق، صـ ١٩

٦٢ - إسماعيل الفاروقى : أسلمة المعرفة ، مرجع سابق ، صـ١٤ .

٦٣ - زغلول راغب النجار : عن ضرورة إعادة كتابة العلوم من وجهة نظر إسلامية ، المسلم المعاصر ، العدد السادس ، ربيع أول / جمادى الثانية ١٣٩٦هـ، ص٣٤-٣٥ .

٦٤ - عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص ١٢٠-١٢١

٦٥ - محمد الغزالى : تراثنا الفكرى في ميزان الشرع والعقل ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩١، صـ ٨٧ .

٦٦ - المرجع السابق ، صـ٨٨ . \

٦٧ - سيد قطب : مقومات التصور الإسلامى ، صـ٣٦١ .

٦٨ - محمد المبارك : نحو صياغة إسلامية لعلم الإجتماع، المسلم المعاصر، العدد ١٢، شوال/ ذو الحجة ١٣٩٧هـ، صـ٣٧ .

٦٩ - محسن عبد الحميد : المذهبية الإسلامية ، صـ٦١ .

٧٠ - المرجع السابق ، صـ ٦٢ .

٧١ - عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ،بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٣، صـ١٩ .

٧٢ - إسحق فرحان وآخرون : نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية ، ص٢٣ .

٧٣ - المرجع السابق ، صـ٢٤ .

٧٤ - المرجع السابق ، صـ ٢٥.

نظرات تربوية في القرآن الكريم★

أهمية التربية للإنسان

انظر إلى إحدى صور مادة من المواد التى نتعامل معها في حياتنا اليومية ولتكن الخشب ، مثلا ، في حالتها الأولية ، فماذا تجد من اختلافات وماذا تجد من أشكال ؟

إنها اختلافات محدودة ، لا تخرج عن كونها اختلافات أصل ونوع ، ولا تخرج عن كونها ألواحا طويلة أو قصيرة ، أو ذات مساحة كبيرة أو صغيرة .. وهكذا ،

فإذا ما تناولها أحد خبراء فن النجارة بالصناعة والتشكيل ، إذا بها تتحول إلى أشكال لا حصر لما بينها من اختلاقات ، لكل منها خصوصية تميزها عن غيرها ، فضلا عن تنوع مجالات الاستخدام والاستفادة .

شئ مثل هذا - والقياس مع الفارق - نراه في الإنسان .

فإذا نظرت إليه ، مولودا ، وجدته مادة خاما لا يكاد هذا يفترق عن ذاك إلا فى بعض الجوانب العرقية ، كشكل الشعر والعين ولون البشرة وما شابه ..

ونحن إذا كنا نسميه ، حتى في هذه الحالة الأولية (إنسانا) ، إلا أن إنسيته لا تتبدى حقيقة إلا من خلال اكتسابه شخصية لها سماتها المستمدة من الجماعة البشرية التى ينتمى إليها كأن تكون هذه الجماعة عربا أو هنودا أو (انجليزا) أو فرنسيين ، وهى ما يمكن أن نسميها الذات الإجتماعية ، ولابد أيضا أن تكون لها سماتها المتفردة التى تجعلها هذا الشخص المحدد الذى يمكن أن نشير إليه أو ذاك ، وهى ما يمكن أن نسميها الذات الشخصية

★ سلسلة أحاديث يومية في أذاعة القرأن الكريم بالقاهرة في شهر رمضان

إن عملية إكتساب الذات الاجتماعية لا تتم إلا بمعرفة وممارسة لغة الجماعة وعقيدتها أو فلسفتها وعاداتها وتقاليدها و أنماط التفكير الشائعة فيها وارتداء ملابسها وأكل مأكولاتها ، والانفعال بقضاياها ومشكلاتها ، والمشاركة في بنائها حاضرا ومستقبلا.

وعملية اكتساب الذات الشخصية تجعل لكل منا ما يشبه (البصمة) الخاصة ، فنحن جميعا على وجه التقريب لنا أصابع تتشابه في شكلها العام الخارجى ووظيفتها ، لكن لكل فرد ، على حدة ، بصمته التى تميزه عن الآخرين ، حتى إنها تؤخذ كعلامة حاسمة ومميزة لتحديد الهوية الشخصية . كذلك ، فمهما تحادثنا بلغة واحدة ، واشتركنا في عادات وتقاليد ومعتقدات واحدة ، إلا أن لكل منا بصمة شخصية تتبدى في صوته ورؤيته الخاصة وطريقة نطقه وسيره ، وأسلوب تفكيره واتجاه فكره ونوع ثقافته ..

وسواء كانت عملية الاكتساب خاصة بالذات الاجتماعية أو بالذات الشخصية ، فإننا نستطيع أن نسميها بعملية (التربية) .

فإذا عدنا لمثالنا في البداية ، وهو عملية تصنيع وتشكيل مادة الخشب لنصنع هذا الشكل أو ذاك مما نستعمله في حياتنا من كراسى وموائد ودواليب ومكاتب .. إلخ ، لرأينا أن الصانع يصعب إن يمارس عملية التصنيع هذه وعملية التشكيل تلك، إلا من خلال (نموذج) ، على قدر ما يكون من الدقة وتلبية الحاجة و الملاءمة وقابلية التحقق ، والتفرد ، على قدر ما يتسع الباب أمام الصانع لينتج ويشكل منتجا يكون أيضا - إذا كان صانعا ماهرا - على النحو الذى تكون عليه هذه المواصفات.

حاجة التربية إلى الدين

وهكذا - والقياس أيضا مع الفارق - نجد عملية تربية الإنسان

وتنشئته وتشكيله ، بحاجة ملحة وماسة لوجود (نموذج) يصور ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان ، ذاتا شخصية وذاتا إجتماعية ، حتى يستطيع الصانع وهو هنا (المربى) ، إحسان التصنيع ، وإتقان التنشئة، وتجويد التشكيل .

ونحن نحرص علي أن نقرن كلامنا دائما بعبارة (والقياس مع الفارق) لأن الإنسان ليس عنصرا سلبيا مثل مادة الخشب أو غيرها ، ليس عليه إلا أن يتقبل ما يصنع به ، بل هو كائن حى ، ذو إرادة وعقل ومشاعر ، له دور فعال في كل ما يحدث لتشكيله وتنشئته بدرجات متفاوتة على قدر ما يقع الفعل في نطاق الاستطاعة البشرية .

والصانع المربى الذى نشير إليه لشخصية الإنسان ، ليس فقط المعلم في المدرسة أو الأستاذ في الجامعة ، وإنما هو كل من يقوم بجهد مؤثر وفعال في تشكيل شخصية المواطن بصورة فيها قدر من الاستمرارية النسبية ، ومن هنا يدخل في هذا النطاق بالدرجة الأولى الأب والأم ، ثم هناك الداعية ورجل الإعلام ، وشخصيات أخرى تتفاوت درجات تأثيرها بقدر ما يكون من علاقات واستمرارية . ولأهمية (النموذج) الذى لابد منه لإحسان عملية التربية والتنشئة ، حرص كثير من الفلاسفة والمفكرين والمصلحين ، على مر التاريخ ، في مختلف المجتمعات ، على تصور (فلسفة) أو (نظرية) تحدد للعمل التربوى مسارات الفعل وغايات الجهد وأشكال التنفيذ ، كما رأينا عند أفلاطون وأرسطو عند اليونان قديما، وكما رأينا عند جان جاك روسو وجون لوك وكانط وفروبل وبستالوتزى وهيجل وغيرهم في أوربا حديثا ، وكما رأينا في تراثنا الحضارى من جهود فكرية لابن سينا والغزالى والفارابى وابن خلدون.

وفي كل ما رأينا من نماذج فكرية أوربية ، يؤكد لنا استقراء التاريخ الفكرى والاجتماعى أنه ما من نموذج استطاع أن يحقق نجاحا كبيراً في

هذا الشأن ، لأن لكل واحد من هؤلاء تفسيراته ورؤاه التى تتباين فيما بينها وتختلف ، في الزمان الواحد ، باختلاف المجتمعات ، وف المجتمع الواحد باختلاف الأزمنة ، وفقا لكم كبير من العوامل مما يستحيل معه الزعم بأن هذه النظرية أو تلك ، هذا النموذج الفكرى أو ذاك هو الذى يصور حقيقة الإنسان ، ومن ثم العملية التربوية المناسبة والتنشئة الملائمة .

وهنا لا مفر من أن يبرز على الفور ذلك التساؤل البديهى : أليس خالق هذا الإنسان وموجده من عدم ، ومنشئه ومكونه ، هو الأعلم ، وهو الأدرى بما يجب عليه أن يكون ؟ وبالتالى ألا يكون النموذج الفكرى الذى وضعه ، هو الأصح ، وهو الأحق بأن يوجه العمل التربوى ويحدد له مسارات العمل ومسالك التنفيذ ؟

وهكذا نصل إلى تلك الحقيقة الأساسية

إن الإنسان لا يكون إنسانا على وجه الحقيقة إلا باكتسابه ذاته الاجتماعية وذاته الشخصية.. وأن العملية التربوية هى السبيل إلى ذلك ..

وأن الرسالة الإلهية ، في صورتها الأخيرة ، وهي الإسلام ، هى نموذجها الذى لابد أن تنسج على منواله وتهتدى بهديه ..

أهمية التربية للدين.

إن هذه الحقيقة تمثل حاجة التربية إلى الدين بصفة عامة ، والى الدين الإسلامى بصفة خاصة ، لكن يظل هناك سؤال يحتاج إلى إجابة وهو :

هل تعتبر العملية التربوية عملا أساسيا في الدين الإسلامى ؟

إن أحاديثنا كلها بما تحمل من أمثلة وبراهين وحجج ، تشير بالإيجاب عن هذا التساؤل ، لكننا نود هنا أن نلفت الانتباه إلى حقيقة الدين كما ورد على لسان النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ قال(الدين

المعاملة) ، فالدين ليس مجرد التقبل العقلى ، والاطمئنان القلبى بما بعث به الرسول العظيم صلوات الله عليه وسلامه ، ولكن لابد من إكمال هذا بالتجسيد العملى من خلال السلوك الإنسانى ، فالإيمان إذا ما وقر في القلب وصدقه العمل، والترجمة العملية لما نحمل من أفكار ومعتقدات إلى عمل وسلوك ، مهمة التربية بالدرجة الأولى، ذلك أن التربية نفسها ليست مجرد حشو لمعلومات وحقائق ومعارف في الأذهان والعقول ، وإنما هي أيضا تنمية للشخصية بمختلف أبعادها وجوانبها ، والمربى الذى ينمى العقل وحده عن طريق خزن المعلومات والمعارف ، مهملا تنمية جوانب الشخصية اجتماعيا ونفسيا وعاطفيا وجسميا ومهاريا ، كمن يعمل على تنمية جزء من جسم الإنسان أو جهاز من أجهزته ، مهملا بقية الأجزاء والأجهزة ، فهل يمكن أن يستقيم الأمر إذا حدث هذا ؟

إن كتاب الله عز وجل موجود منذ أن نزل به الروح الأمين ، وهو سيستمر موجودا إلى ما شاء الله ، وفيه هداية وتوجيه وإرشاد مما يكفل استقامة حياة البشر وسعادتهم ، ومع ذلك فما زال التخلف يظلل معظم البلدان الإسلامية ، ومازال الشقاء يطحن ملايين المسلمين في أنحاء كثيرة من العالم ، لأن (العمل) بما في كتاب الله لم يصل بعد إلى الحد الأدنى اللازم لأن يتحول عنده هذا العمل إلى طاقة نووية تكفل تحريك الجماعة الإسلامية بالسرعة الملائمة لحركة الحياة المعاصرة في جوانبها المتقدمة ، فضلا عن التقدم عليها بما يميز هذه الجماعة عن غيرها. ونحن إذ نشير إلى العمل بكتاب الله ، فإنما نشير إلى (الصناعة) المؤهلة للقيام بهذا العمل ألا وهى (العملية التربوية) بأبعادها الشخصية التى تعنى إعادة صياغة وإعادة تشكيل كل منا فردا وذاتا بعينها ، كما تعنى كذلك أبعادها الاجتماعية التى هى إعادة تشكيل الجماعة الإسلامية وإعادة صياغتها .

وليس هناك ما يشرف عملية التربية ، أكثر من تلك العلاقة التى نجدها بين الفعل (رب) واسم الله عز وجل (الرب) ، و(ربّ) الولد ، أى وليه وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه ، وهكذا الله سبحانه وتعالى ، هو الذى يلى هذا العالم ، دنياه وآخرته ، ويتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه ، ولذلك لا يقال (الرب) في غير الله إلا بالإضافة ، فتقول (رب البيت) ، و(رب العمل) وهكذا ، فكل من هذا وذاك ، يلى العمل البيت أو المصنع ، ويتعهده بما ينميه .

ومن هنا يجئ اعتزاز الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله قد أدبه فأحسن تأديبه.. ومن هنا أيضا تجئ إشارته صلوات الله وسلامه عليه إلى كل مسلم بأنه را ع ومسئول عن رعيته.

خلق الإنسان والعملية التربوية

من أجل هذا قد لا نكون مغالين إذا قلنا إن التربية ، ربما دون غيرها من العلوم والمهن الأخرى ، هى الوحيدة التى بدأت في نفس اللحظة التى بدأت فيها حياة الإنسان !! ففي سورة (ص)، الآيتان ٧١ . ٧٢ في القرآن الكريم نجد :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

فها هنا نجد أنفسنا أمام أول عملية تربية من قبل المربى الأعظم ، والأول .. يضع البنية الأساسية للشخصية الإنسانية.. يضع الشروط والمواصفات التى في إطارها ، وفي ضوئها ، انطلق الإنسان يسلك أو يفكر وينفعل ويحب ويكره .. الى غير هذا وذلك من تصرفات ، ويؤيد ذلك ويدعمه ما رواه الترمذى عن أبى موسى الأشعرى عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه قال :

(إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأسمر ، وبين ذلك ، والسهل والحزن، والطيب والخبيث) .

إن ما يهمنا أن نلفت النظر إليه في هذا الحديث الشريف ، إن الله عز وجل قد وضع وأنشأ في الإنسان ، المقومات الأساسية التى بناء عليه نجد هذا يسلك ويفكر بطريقة قد تختلف عن هذا وذاك ، وأن هذا وذاك يسلكان ويفكران بطريقة قد تختلف عن الثالث . وهكذا ، بمعنى أن أسس التربية الأولى قد وضعها عز وجل .

وإذا كنا بهذا نثبت للعملية التربوية (أولية) في الأصل والنشأة ، فإننا أيضا ، بلا مبالغة أو افتعال ، نستطيع أن نثبت لها (أولية) في الحاضر والمستقبل وفقا لما اقتضته سنة الله في خلقه ، بشرا وغير بشر .

تأمل في سلوك هذا الحيوان أو ذاك : حمارا ، أو نمرا أو غير هذا وذاك، كما قد تسجله كتب التاريخ القديم ..

ثم انظر إلى سلوك نفس هذا الحيوان أو ذاك فيما تشهده عيناك أو تقرؤه في الوقت الحاضر هل ترى من اختلاف ؟

كـــــلا...

ثم تأمل في سلوك الإنسان ، عربا أو هنودا أو انجليز ، أو غير هذا وذاك ، كما سجلته كتب التاريخ القديم ..

ثم انظر إلى سلوك نفس الإنسان (إن كان عربيا أو غير ذلك) فيما تشهده أو تقرؤه في الوقت الحاضر ، هل تري من اختلاف ؟

بالطبع ، نعم .. التفسيرات كثيرة ، والتأويلات متعددة ، وهى كلها لا اختلاف بينها وإنما هى زوايا تتكامل بعضها مع بعض لتشير في نهاية الأمر إلى إن هذا الإنسان الذى استحق التكريم من قبل الخالق عز وجل ، واستحق التفوق على كثير من المخلوقات ، هو أكثرها قابلية للتعلم بل قل ، أن قابليته للتعلم ، حدودها غير معروفة ، فهى غير محصورة حتى الآن ، ويكفى أن نلفت النظر إلى آن هذا التقدم الذى يذهلنا معرفيا وعلميا كما ونوعا وتعدد مجالات وتنوع آفاق ، يظل دائما مستحقا لوصفه عز وجل في قرآنه المجيد : (وما أويتتم من العلم إلا قليلا)!!

قابلية الإنسان للتعلم :

تعكس الدراسة العلمية لمختلف أنواع وفصائل الكائنات الحية أن الإنسان هو أكثرها حاجة ، عقب الولادة ، للرعاية ، نظرا للعجز الشديد الذى يكون عليه لحظة الميلاد ، فضلا عن طول الفترة اللازمة له حتى يستطيع أن يستقل بنفسه ويعتمد على ذاته . ومن الملاحظ كذلك أن هذه الفترة تزداد طولا بتطور وتقدم الحضارة الإنسانية بصفة عامة ، وهي تتباين طولا وقصرا وفق درجة تطور وتقدم المجتمع .

ويستدل علماء النفس والتربية والاجتماع من ذلك على وجود إمكانات لا حصر لها زود الله عز وجل الإنسان بها للتعلم وحسن التعامل مع متغيرات البيئة الطبيعية والبيئة الإجتماعية ، قال سبحانه وتعالى في سورة البقرة ، الآيات : ٣١-٣٢ .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

وقد قال كثير من المفسرين إن الله سبحانه ، علمه الأشياء كلها ، ما كان كائنا منها وما سيكون إلى يوم القيامة ، لم يدع من ذلك شيئا ، كبر أوصغر . قالوا : وعلمه أسماءها كلها باللغة التى كانت كائنة ، وبكل لغة ستكون يوم القيامة .

وقال الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء إن الذي يفهمه ، أنه علمه جميع الأشياء التى فى جنة عدن ، وألهمه وأقدره على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك من زروع وأشجار وثمار وفروع وورق ولب ونوى ، جميع الأوعية والأدوات التى هناك وجميع ما فيها من حيوان وأجزائه ، لاحتياجه إليها .

ويزيد البهى الخولى في كتابه (آدم عليه السلام ، صـ١١٢) أن الله سبحانه بث في آدم سر الاهتداء إلى خصائص الأشياء ووسائل الانتفاع بها ، ونحسب أن ذلك هو معنى الأسماء في قوله سبحانه :(وعلم آدم الأسماء كلها)، أى علمه مسمياتها وما لها من خصوصيات المنافع والمضار ، فإن اسم الشئ يقترن دائما في الذهن بحاله من : صورة ، لون وأجزاء ، وبحاله من سائر المقومات والمزايا الحسية والمعنوية .. وما جدوى الإسم إذا لم يكن دالا على ماوراءه من مقومات الذات وخصائص الجواهر والعناصر ؟

أما الزمخشرى ، فقد ذكر " أى وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية ، والدنيوية ، فالمعول عليه ليس هو الإسم المؤلف من حروف هجائية ، إنما ماتدل عليه تلك الحروف ويشير إليه ذلك الإسم من صفات الشئ الذى سمى به . "

والذى نفهمه نحن – والله أعلم – من هذه الأيات ، أن الله عز وجل زود الإنسان بعدد من الاستعدادات والإمكانات العقلية والجسمية ما يمكنه من معرفة ما يمكن أن تصل إليه هذه الإمكاناتت والاستعدادات مما خلقه الله

عز وجل من هذا الكون، ولعل ما يعزز هذا الفهم قوله تعالى في سورة النحل ، الآية ٧٨ :

﴿ والله أخرجكُم مّن بُطون أُمَّهاتكُمْ لا تعْلَمُون شَيْئًا وَجعَل لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصار والأفْئدة لعلَّكُمْ تشْكُرُون ﴾ .

اكتساب العلم

فالعلم هنا ليس فطريا يولد الإنسان وهو مزود به ، وإنما هو يحصل عليه بعد أن تدب الحياة فيه ويخرج إلى الدنيا خارج بطن أمه مزودا بوسائل الحصول على المعرفة ألا وهى العقل والحواس المختلفة . فالجانب الفطرى يتمثل في (القدرة والاستعدادات) ، وجانب الاكتساب يتمثل في استخدام القدرة والاستعداد وممارستها .

إن الإنسان يوهب القدرة – مثلا – على السمع والبصر ، لكن : كم ما يسمع ، وكم ما يبصر ونوعه ، ومكانه وأشكاله ، وما يحمله من دلالات ومعانى وما بين بعضه البعض من علاقات .. كل ذلك ، مما يجئ بالممارسة والخبرة والمعاناة .

ويبدو أن الشيخ محمد عبده يميل إلى حمل آية (وعلم آدم الأسماء كلها) إلى ما تهيأ في فطرة هذا الخليفة الإنسانى واستعداده من علم ما لم يعلموا (الملائكة) فتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الأرض ، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء ، لا يذهب بحكمةالاستخلاف وفائدته ومقامه ، وناهيك بمقام العلم وفائدته وسر العالم وحكمته .

وهذا التأويل مقبول في نظر الدكتورة عائشة عبد الرحمن (مقال في الإنسان ، ص٣٨) ، لا يمنعه ما في الآية من النص الصريح على أن آدم ، في بدء حياته ، علم بتوفيق الله ، ما استطاع به أن ينبئ عن أسماء لم

يُعلّمها اللهُ الملائكة .

وقد عاد الشيخ محمد عبده فقال شبه مستدرك ، فيما نقل عنه صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا : " ثم إن الذى يتبادر إلى الفهم من طبيعة التعليم هو : التدريج : " يعلمكم مالم تكونوا تعلمون " . ولكن المبادر من تعليم آدم الأسماء أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه ، بالفعل أو بالقوة ، ولذلك قال محمد عبده : علم الله آدم كل شئ . ثم أن هذه القوة العلمية ، عامة في النوع الآدمى كله ، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم ، فيكفى في ثبوت القوة لهم ، معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال ، ومن ذلك عرفنا بهذه القصة ، قيمة أنفسنا وما أودعته فطرتنا ، فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم ، إلى خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق ، لنظهر حكمة الله فينا، ولعلنا نقف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ، ومعنى سجودهم لأصلنا " ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم " تفسير المنار ، جـ١ ، ص٣٢٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ولا يفوتنا الالتفات إلى قول الملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) من في كل علم كسبى عن جنس الملائكة ، على حين يتميز الإنسان دون الكائنات الأخري بميزة القدرة علي تحصيل العلم الكسبى ، واستعداده لكسب المعارف الوضعية (مقال في الإنسان ، ص ٣٩). وفي ذلك يقول الشيخ محمد عبده في تفسير الآية (.. وكل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية فإن له استعدادا محدودا وعلما إلهاميا وعملا محدودا .. على عكس الإنسان .

العلم يكمل ضعف الإنسان

وأما الإنسان ، فقد خلقه الله ضعيفا وخلقه جاهلا ، ولكنه على ضعفه وجهله ، عبرة لمن يعتبر وموضع عجب المتعجب ، لأنه ، مع ضعفه ، يتصرف تصرف الأقوياء ، ومع جهله في نشأته ، يعلم جميع الأسماء ، ويعطى قوة أخرى ، تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له بها السلطان على هذه الكائنات ، فيسخرها ويذللها ، كما تشاء تلك القوة الغريبة التي يسمونها العقل ولا يعقلون سرها ، ولا يدركون حقيقتها وكنهها ، فهى التى تغنى الإنسان عن كل ما وهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذى يقيه البرد والحر ، والأعضاء التى يتناول بها غذاءه والتى يدافع بها عن نفسه ويسطو بها على عدوه ، وغير ذلك من المواهب التى يعطاها الحيوان بلا كسب ، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان ، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان. تفسير المنار ، جـ١ ، ص ٣١٧ .

ثم إن هذا العلم الواسع لا يعطاه فرد من أفراد الإنسان ولا مجموع النوع دفعة واحدة فيشابه علمه علم الله تعالى ، وكلما أوتى نصيبا منه ظهر له من جهله ما لم يكن يعلم ، فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهى إلا قليلا ، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الإلهى ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم (قال إنى أعلم ما لا تعلمون) ، فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الإنسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه .

فما وهبه الإنسان إذا من عقل ، وما خلق له من حواس ، هو مربط الفرس ، ومجمع القدرة على التعلم ، لكننا نرجئ الحديث عنهما لأهمية اختصاصهما بموضوعات مستقلة ، ونكتفي هنا بلغت النظر إلى أمر مألوف، ومن كثرة وشدة إلفنا به ، قلما ننتبه إلى عمق دلالته وبعد مغزاه لا لعملية التربية والتعليم فحسب ، وإنما بالنسبة للتطور البشري على وجه العموم .

فلو تأمل الإنسان في شكل جسمه لأدرك أن الصورة التى خلق عليها ، لعبت ، وما زالت ، وسوف تظل ، إلى ما شاء الله ،دورا هاما وواضحا في إقدار الإنسان علي التعلم مما يستطيع أن يفيض فيه شرحا وتعليقا ، السادة الأطباء المتخصصون . لكننا نود أن نشير إلى جانب بعينه .

قدرات الإنسان على التعلم

فلو دققنا النظر هذا لأدركنا كم من آبواب لا حصر لها من المعرفة فتحت وآفاق اقتحمت من خلاله، هذا الجانب هو (يد) الإنسان ، بما هى عليه من أصابع اتخذت شكلا بعينه وخاصة أصبع الإبهام وما أقدرت عليه من حركات القبض والبسط والإمساك ، تري ، إذا لم تكن لنا هذه الأداة ، ذات الشكل الظاهري البسيط، هل كان الإنسان يستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه من أجهزة ومعدات يعسر إحصاؤها ، هى سبيل تقدمه وتطوره ؟ هل كان يستطيع أن يدير سيارة أو قاطرة أو طائرة ؟ هل كان يستطيع أن يكتب؟ هل كان يستطيع أن يطهو الطعام ؟ هل كان يستطيع أن يبنى هذه الأبنية الشاهقة الضخمة ؟ ويشق الطرق ويقيم الجسور ؟ وما ارتبط بهذا وغيره من علوم ومعارف تمتلئ بها ملايين الكتب والأبحاث والدراسات عبر مختلف العصور وتباين المجتمعات .

وتلعب اللغة دورا هاما وخطيرا في تمكين الإنسان من التعلم والتعليم، فبها نتعلم ، وبها نعلم ، وبها نكتب وبها نقرأ ، وبها نسجل تراث السابقين، وبها نطلع علي هذا التراث فننموا ونتطور ونتقدم ، فهى مجمع ثقافة الأمة حتى أنها لتعد علامة أساسية وحاسمة في التمييز بين أمة وأخرى وبين قومية وأخرى ، وللإنسان أن يتصور كيف كان يمكن أن يكون تقدمه وتطوره لو لم يمنحه الله عز وجل هذه القدرة على (الكلام) .

ومن هنا فقد ذهب العديد من الفلاسفة والمفكرين وعلماء التربية والنفس والاجتماع ، في معرض إثبات السمة المميزة للإنسان عن عامة الحيوان ، فقال إن الإنسان ينفرد عنها بأنه قادر على النطق ، فقالوا إنه (حيوان ناطق) ، وشاع هذا الوصف والتمييز .

لكن الدكتورة عائشة عبد الرحمن وجهت نظرنا إلى أن مجرد النطق الصوتى ليس مناط إنسانية الإنسان الناطقة ، وهي تستأنس هنا بالآيات الست التى ورد فيها لفظ (البكم) ، حيث يتعين فيها جميعا إن قيمة النطق أو السمع والبصر ، ليست في آلية هذه الأجهزة العضوية ، فالحيوان في عمومه المطلق مزود كذلك بألسن وآذان وعيون ، وإنما مناطها في أن يكون النطق الإنسانى ، بيانا ، وسمعه وعيا وإدراكا ، وبصره تمييزا وهدى ، وإلا مسخت إنسانيته فهبط الإنسان إلى دونية الدواب العجماء :

- (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون) . الأعرف/٣٩.

- ﴿ ومَثَلُ الَّذين كفرُوا كمثَلِ الَّذي ينعقُ بما لا يسْمعُ إلاَّ دُعاء ونداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يعْقلُون ﴾ . البقرة /١٧١ .

- ﴿ الَّذين كذَّبُوا بآياتنا صُمٌّ وَبُكْمٌ في الظُّلُمات ﴾ الأنعام /٣٩

- ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابَ عندَ اللّه الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذين لا يعْقلُونَ ﴾ الأنفال/٢٢

- وهو يصف الذين يظهرون الإيمان نفاقا ويبطنون الكفر بقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهُمْ لا يرْجعُونَ ﴾ البقرة /١٨ .

- ﴿ وضرَب اللّهُ مثلاً رَجُلَيْنِ أَحدُهُما أَبْكمُ لا يقْدرُ علَىٰ شيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ

عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ النحل /٧٦

- ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ الإسراء/٩٧

وتجئ مادة (الكسب) بصيغها المختلفة لتنفي الفطرية المطلقة لما يصل إليه الإنسان بفكره وما يفعله بيده ، فهناك كم كبير من الأفكار والمعتقدات والأعمال ، إنما هي من كسب الإنسان وفعله بإرادة واختيار تبرهن كلها على أنه قد زود بآلات الفعل وإمكانات العمل والتفكر:

- ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ البقرة /١٣٤.
- ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ الروم /٤١
- (تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) الأعرفا / ٢٢ .
- ﴿ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الأعراف /٩٦ .
- ﴿ وَكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يس /٦٥ .

وإمكانات العلم والتفكير التى زود الله بها الإنسان ، من شأنها ، إذا أحسن التعلم بها وصلحت التربية عن طريقها ، انتهي الأمر بالإنسان إلى السواء والاستقامة ، لكنها أيضا إذا ما وجهت إلى طريق الانحراف وساء العمل بها والتفكير أوقعت الإنسان في مهاوى الهلاك ، ومن هنا يجئ قوله عز من قال (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) .

معانى التعليم في القرآن

وإذ يثبت لنا أن الإنسان قد وهب العديد من إمكانات التعليم فأصبح أكثر الكائنات قابلية للتعلم والتعليم ،يصبح الطريق ممهدا للكشف عما في القرآن الكريم من آيات ومشاهد وحجج وصور لضرورة القيام بمهمة التعليم والتى هى هنا بمعنى أن يقوم المربى أو المعلم بنقل(رسالة) ذات محتوى معرفي أو وجدانى أو مهارى إلى إنسان آخر كى يزيد بما يتلقاه نموا فيصبح أكثر كفاءة وفاعلية على المستوى الشخصى الذاتى والمستوي الإجتماعي العام .

ويجئ التعبير القرآنى عن عملية (التعليم) ومهمة (التربية) بصيغ ومصطلحات متعددة يمكن الإشارة إلى أهمها فيما يأتى :

١ - الإبلاغ :حيث (بلغ الأمر) ، أي وصل إلى غايته ، وأبلغه الشئ ، أوصله إليه والبلاغ ، ما يتوصل به إلى الغاية .

وأول من كلف بمهمة التبليغ هم الرسل والنبياء ، فهذا نوح عليه السلام ، كما تقول آيات القرآن المجيد يؤكد لقومه أنه أرسل من الله عز وجل حتى يبلغهم مضمون رسالته ، ويرشدهم ويوجههم إلى ما فيه صلاح أمرهم وعزة شأنهم ، وهو إذ يقوم بمهمة التبليغ ، فلما يحمله من علم ينفرد به عن سائر قومه ، وهذا العلم مصدره الله عز وجل : ﴿ **قالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** (٦١) **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ الأعراف /٦٢

ويتكرر موقف نوح في قومه ، مع (هود) في قوم عاد ، فقد أرسله الله

إليهم باعتباره واحدا منهم ، بل من أشرفهم ، حتى يستطيع التفاهم معهم لكن قومه أنكروا ما جاء به ، بل واتهموه بالسفه ، فماذا كان رد هذا الرسول الكريم في موقف التعليم الذى يقفه ؟ إنه يكتفى بنفي ما سبوه به دون ما محاولة لرد هذا السب عليهم ، مؤكدا إنه جاء مبلغا لرسالة الله إلى هؤلاء ، فضلا عما تقتضيه مهمة التبليغ من توجيه وإرشاد : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ الأعراف / ٦٧ . ٦٨

ثم موقف ثالث هو موقف (ثمود) حيث أرسل الله عز وجل إليهم أخاهم صالحا مزودا بمعجزة (الناقة) لتكون دليلا لهم ، ومع ذلك فقد خالفوا ما أمروا به ، وذبحوا الناقة وأفسدوا، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بالعذاب الذى هددوا به ، وبالفعل أتاهم أمر الله جزاء بما اقترفوا من الإثم ، وكان لابد أن يلفت صالح أنظارهم إلى أن هذا الذى يأتيهم إنما يأتى بعد أن قام بمهمة الإبلاغ والنصح والتوجيه ، فلما لم يعملوا بما أبلغوا به ، كان لابد أن يشهدوا ما شهدوه ، وتلك نهاية كل من يصم أذنيه عن الحق ؟:
﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾الأعراف/٧٨ . ٧٩

وموقف رابع هو موقف (شعيب) في قومه كذلك ، فمهمة التبليغ قد تمت بنفس الدرجة ونفس المستوى ونفس الأبعاد التى أرادها الله عز وجل ، فلما أن حق عليهم الهلاك جزاء إعراضهم عن العمل برسالة التبليغ ، أصبحوا غير مستحقين لأن تزرفْ عليهم الدموع أو يحزن عليهم إشفاقا :
﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ الأعراف /٩٣ .

٢ - بيّن : بان الشئ بيانا ، ظهر واتضح ، وأبان الشئ : أظهره وأوضحه . وبين الشئ : تبيانا أو ضحه . فهذه الكلمة بهذا المعني ، تفيد إيصال معلومة جديدة إلى الطرف الآخر حيث تفيد الكشف عما لم يكن معلوما بوضوح.

وهنا نجد القرأن الكريم يروى لنا أمر قوم من الجاهلين المعاندين الذين يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم أمورا لا تصدر عمن يريد الوصول إلى الحقيقة وإنما تصدر عن روح معاندة واستخفاف ومكابرة ، وهم في ذلك يكررون مواقف أقوام سابقة مع أنبيائهم ، ومع ذلك فإن الله عز وجل لم يترك رسولنا الكريم بلا أيات واضحة . لكن هذا (التبيين) لا يؤتى أكله ويثمر تعلما نافعا إلا بصفاء القلب وصدق النية ، وانتفاء التصلب الفكرى والجمود العقلى ، فرسالة التعليم مهما كانت واضحة ، لابد لها ، مثل (البذور) من أرض صالحة تتقبلها : ﴿ **وقَالَ الَّذين لا يَعْلَمُون لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تأْتينا آيَةٌ كَذَلك قَالَ الَّذينَ من قَبْلهم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تشابهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لقوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ البقرة / ١١٨ .

ولأن التعليم في الإسلام لا يبتغى به مجرد الحصول على المعرفة وإدراك الحقائق بل لابد من تغير في السلوك يتفق ووجهة الإسلام ، كان ذلك الحرص الواضح علي أن يقرن التبيين بالنتيجة السلوكية المرجوة من كل مسلم ألا وهى (التقوى) :

﴿ **كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ آياته للنَّاس لعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ البقرة / ١٨٧ ، ويقول أيضا: ﴿ **كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لكُمْ آياته لعلَّكُمْ تهْتَدُونَ** ﴾ . آل عمران / ١٠٣ ، فمن شأن الوضوح الفكرى والصفاء القلبى أن يكشف الطريق الصحيح أمام الإنسان.

وما كان من سنن الله في خلقه ، ولا من حكمته ورحمته ، بعد أن هدى

قوما إلى الإسلام وأنقذهم من الكفر ، أن يحبط أعمالهم ويصفهم بالضلال عن طريق الحق لارتكابهم أمرا لم يعلموا أن الله قد نهى عنه ، ولم يبين لهم ما يتقون وما يجتنبون من المحظورات ، فإن خالفوا بعد ما تبين لهم وجه الحق بيانا شافيا واضحا استحقوا اسم الضلال وأجريت عليهم أحكام الضالين. وأما قبل النهى والعلم والبيان ، فلا سبيل عليهم ، والله وحده هو يعلم مافي قلوبهم فيأخذهم بما يستحقون : ﴿وما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قوْمًا بعْدَ إذْ هداهُم حتَّىٰ يُبيِّنَ لهُم مَّا يتَّقُونَ إنَّ اللَّهَ بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ ﴾ التوبة /١١٥ .

وهذا التبيين لن ينتج سلوكا تقيا إلا بالنظر والتفكير فيه ، فقد يبين المربى مسألة ويوضحها ثم لا يعيها عقل المتعلم علي الرغم من ذلك ، أو لا يجعلها موضع تفكير وبحث ودراسة ، ناظرا إليها كمعرفة جاهزة لا عليه إلا أن يتقبلها ويحفظها ، ومن هنا تجئ كلمات ربنا عز وجل : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) البقرة / ٢١٩ .

وهكذا نقف أمام آيات متعددة تؤكد لنا أن الخالق الأحد ، هو أيضا المعلم الأعظم ، والذى يهدف بما يعلمنا إياه أن نهتدى إلى ما فيه صلاح أمر دنيانا وأخرتنا :

- ﴿ يريدُ اللَّهُ ليُبيِّنَ لَكُمْ ويهْديكُمْ سُنن الَّذين من قبْلكُم ﴾ النساء/ ٢٦
- ﴿ يبيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أن تضلُّوا واللَّهُ بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ ﴾ النساء / ١٧٦ .
- ﴿ كذَلكَ يُبيِّنُ اللَّهُ لكُمْ آياته لعلَّكُمْ تشْكُرُونَ ﴾ المائدة / ٨٩ .
- ﴿ يُبيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ النور / ٥٨ .
- ﴿ وتلْكَ حُدُودُ اللَّه يُبيِّنُها لقوْمٍ يعْلَمُون ﴾ البقرة / ٢٣٠ .

ثم تجئ الرسل برسالة الله للناس ويعلمونهم ما جاءوا به :

- ﴿ قدْ جاءكُمْ رسُولُنا يُبَيّنُ لَكُمْ علَىٰ فَتْرَةٍ مّنَ الرُّسُلِ﴾ المائدة /١٩ .
- ﴿ قدْ جاءكُم مّنَ اللَّهِ نُورٌ وكِتابٌ مُّبِينٌ ﴾ المائدة /١٥ .

وتبرز لنا قاعدة هامة بالنسبة لمن يتولون أمر التربية والتعليم ، فالتعليم عملية اتصال ، واللغة هى الواسطة الأساسية في الاتصال، مما يوجب أن يكون المربى على دراية وتمكن من لغة من يريد أن يعلمهم ويربيهم . وليست اللغة مجرد تراكيب لفظية ، ذلك أن هذه التراكيب محملة بثقافة خاصة وقيم معينة تتخلل عملية الاتصال اللغوى والتربوى ، ومن هنا يجئ قول الحق تبارك وتعالي :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ..) إبراهيم /٤

٣ - التبشير : التبشير يعنى ، ضمن ما يعني، الدعوة إلى الدين . والرسل ، باعتبارهم حملة رسالة الحق إلى الناس ، يحرصون على القيام بواجبهم ببعديه : فهم يبشرون من يمثل للحق فاهما ، مدركا مقتنعا عاملا ، وينذرون المعاند المكابر :

- ﴿ إنَّا أرْسَلْنَاكَ بالْحقّ بشيراً ونَذيراً ﴾ البقرة /١١٩ .
- ﴿ وما أرْسلْنَاك إلاَّ كافَّةً لّلنَّاس بشيرا ونَذيراً ﴾ سبأ/٢٨ .
- (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) الفتح /٤٥ .
- ﴿ وما أَرْسلْنَاك إلاَّ مُبشرًا ونذيراً ﴾الإسراء / ١٠٥ + الفرقان/٥٦.
- ﴿ فبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيّين مُبشّرين ومُنذرين ﴾ البقرة /٢١٣ .
- ﴿ رسُلاً مُّبَشّرين ومُنذرين لئلاَّ يكُون للنَّاسِ علَى اللَّه حُجَّةٌ بعْد الرُّسُلِ ﴾ النساء/١٦٥.

٤ - **الدعوة :** ف (دعا) إلى الدين والى المذهب ، حثه على اعتقاده ، والداعية ، الذى يدعو إلى دين أوفكرة . وهذا العمل هو أيضا من أعمال التربية والتعليم . وعمل الدعوة أكثر ارتباطا في الأدبيات الإسلامية بتعليم الدين وتبليغه . ولأن رأس هذا العمل هو الدعوة إلى الله ، ولأن الدعوة إلى الله لا تقف عند حد التلفظ بالكلمات المبينة لذلك ، بل تحتاج إلى أن تقترن بثمرتها ألا وهي العمل الصالح ، استحق هذا العمل المديح من الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فصلت ٣٣

فالتعليم هنا على وجهين : تعليم لفظى يتبدى فيما ينطق به المعلم الداعية من قول ، وسلوك عملى يسلكه الداعية نفسه ، إذ هو ، بهذا السلوك العملى ، يجذب الآخرين ببرهان ملموس وحجة واقعية . وليست المسألة مسألة تطبيق وعمل ، أى تطبيق وأى عمل ، وإنما هو عمل ، شرطه (الصلاح) ، وبهذا يكون مضمون الدعوة مؤديا إلى التغيير المطلوب وتبديل الأوضاع إلى ما هو أفضل وإلى ما هو أحسن.

وباعتبار الرسول الكريم هو الداعية الأول ، فإن مضمون دعوته أحق بالاستماع والاتباع، فهو من لدن عليم حكيم . وإذ يكون مطلوبا من المؤمن الاستجابة إلى هذه الدعوة ، فلما لها من قدرة علي إحيائهم . والإحياء هنا ليس إحياء جسديا وإنما هو روح وقوة وازدهار وحيوية في الحياة البشرية بالعلوم المختلفة والمعارف المتعددة والقيم الهادية :

(يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) الأنفال /٢٤، فتعاليم الإسلام فيها إحياء المجتمع وعزته ، وغيابها والإعراض عنها فيها تخلفه وترديه ، وفيها تجمده ومواته .

لكن ماذا يكون الموقف عندما يبث الداعى دعوته فلا يستجيب له القوم

ويصموا آذانهم عن الاستجابة لها ؟! إن مثالنا هنا هو مثال نوح عليه السلام ، حيث تبين لنا سورة نوح كيف كان لا يكل عن الدعوة ليل نهار ، ولم يتوان عن إرشادهم إلى الخير لحظة . وهو كلما دعا قومه للإيمان بالله عطلوا جميع منافذ العلم إلى قلوبهم فجعلوا أصابعهم في آذانهم ليمنعوها السمع وغطوا عيونهم بثيابهم ليمنعوها الإبصار وغطوا قلوبهم بالإصرار على الكفر والضلال ، وجعلوا الكبر رداء لعقولهم.

ويبين نوح أنه سلك في سبيل تعليم قومه سبيل التدرج في دعوته وأنه لم يترك سبيلا منها فكانت دعوته الأولى سرا ، ثم ثنى بالجهر ، فقال : ثم إنى دعوتهم جهارا ، أى دعوتهم ثانيا فجهارا ، فلم تجد معهم تلك الطريقة أيضا

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ نوح/٥-٩

ونتيجة الإصرار على استمرار الجهل ، كان لابد أن يحدث ما حدث مما هو معروف لقوم نوح. وليس هناك طريق واحد للعلم ، فهناك العلم الحق وهناك العلم الفاسد . هناك الوعى المستنير وهناك الوعي الزائف . وللطريق الأول دعاته من المهتدين الذين استقاموا ، وللطريق الثانى دعاته الذين ضلوا وانحرفوا :

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ غافر /٤١ .

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ غافر/٤٢ .

إن الطريق المستقيم في التعليم ينبغى أن ينهج منهج الإسلام الذى

هو سبيل الله : ﴿ قلْ هذه سبيلي أدْعُو إلى الله ﴾ يوسف /١٠٨ ، فإذا ما وجد فئات تصر على الجهل والضلال ، وتعاند وتكابر وتستنفد معهم وسائل وسبل الهداية والرشاد والتعليم ، فلا مفر من أعتزالهم واجتنابهم : ﴿ وأعْتزِلُكُمْ وما تدْعُون من دُون اللَّه وأَدْعُو ربِّي ﴾ مريم /٤٨

فهى ليست عزلة عمل سلبى وليست عزلة انفصال واحتجاب ، وإنما هى بعد عن طريق لا يؤدى إلى الصواب ، وترك السبيل الذى يؤدى إلى الانحراف ، ليستمر العمل الإيجابى بغير تشويش ، ويستمر الفعل النشط في الدعوة والتعليم مع آخرين .

وإن تعجب فاعجب لقوم تأتيهم التعاليم الكفيلة بتقويم اعوجاجهم ، مقرونة بالأدلة القوية والحجج الدامغة ، لكن منافذ المعرفة ، إذ تستغلق ، لا يصلون إلى الفهم المطلوب ، ولا يدركون الحقيقة فيكون بينهم وبين الرسول حجاب الجهل يحجب عنهم الرؤية ويحول بينهم وبين حسن الوعى وصحة الإدراك :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إلَيْه وفي آذاننا وقْرٌ ومنْ بيْننا وبَيْنك حجَابٌ فاعْمَلْ إنَّنَا عاملُونَ ﴾ فصلت /٥.. إنه اصرار على المضى في طريق الجهالة !!

إن طريق الدعوة والتعليم إذا ليس طريقا هينا يسيرا يقوم فيه الداعية والمعلم بنقل ما لديه إلى الآخرين ليتوقع منهم سرعة الاستجابة ، فهناك من ينكرون ويصرون علي الإنكار:٠

﴿ وإن تدْعُوهُمْ إلى الْهُدىٰ لا يسْمَعُوا ﴾ الأعراف /١٩٨ .

﴿ إن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءكُمْ ولَوْ سمعُوا ما اسْتَجابُوا لَكُمْ ﴾ فاطر/١٤

﴿ وإن تَدْعُوهُمْ إلى الْهُدىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ الأعراف /١٩٣ .

﴿ كَبُرَ على الْمُشْرِكين ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْه ﴾ الشورى / ١٣ .

وكثيرا ما لا يقف الأمر عند حد عدم الفهم أو الإنكار والمكابرة ، بل قد يتعداه إلى المقاومة مما يحتم علي القائم بأمر الدعوة والتعليم أن يكون مناضلا . ولا بقوة السلاح و إنما بقوة العلم وأسلحة الجدل بالتى هى أحسن وتنوع الأساليب والوسائل .

والدعوة في الإسلام هى إرشاد إلى طريق الخير : خير الفرد وخير المجتمع ملتزما بأسس ومنهاج الشريعة ، وهي تربية للأفراد والجماعات كى يتمكنوا من الوصول إلي ما ينمي شخصياتهم ويعظم من قدرات بلدانهم ، مما استوجب أن تكون هناك في المجتمع الإسلامى جماعة تأخذ على عاتقها الإرشاد إلى طريق الخير:

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف)

وكلمة (الخير) هنا تتسع لكل ما من شأنه إصلاح أمر الجماعة الإسلامية دنيا وآخرة . وإذا كان النظر البشرى والمقياس المجتمعى للخير قد يتفاوت ويتباين باختلاف الزمان والمكان ، فإن جماع المنهج الإسلامى هو المقياس وهو المعيار لما يعد خيرا وما لا يعد كذلك ، هكذا تتأكد تلك المقولة التى لا نمل من ترديدها ، وهي أن التعليم في الإسلام . إذ يبتغى وجه الله ، فإن ابتغاء وجهه تعالى يؤدى بالضرورة إلى خير الناس وصلاح أمرهم ورفاه حياتهم .

وإذا كان الله عز وجل قد بين ضرورة الدعوة والتعليم وغايتها ومنهجها ، فقد حرص كذلك علي أن يرشد إلى (الوسيلة) أو (الطريقة) ، فالتعليم جهد لضم آخر إلى نفس الدائرة ، دائرة الداعى أو العالم أو المعلم ، والمشاركة هنا هى مشاركة فكر وعلم ، ومشاركة الفكر والعلم لا يمكن أن

تتم قسرا وبالقوة ، إن سبيلها هو الاقتناع والإقناع والخلق القويم . ومن هنا يجئ التوجيه التربوى القرآني لكل من يقوم بمهمة الدعوة والتعليم :

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) النحل / ١٢٥ .

٥ - التـــــلاوة : ويجئ أمر التعليم أحيانا في صيغة أمر بالتلاوة من الرسول على آخرين ، كما أنها تجئ بمعنى (يتعلم)- يتلو - عندما يقوم بهذا الفعل ، الإنسان بنفسه لنفسه

والتعليم المطلوب هنا يتناول قصص الأنبياء - المرسلين السابقين ، وأحداث ماضية ، ومايضمه ويشمله القرآن الكريم من أحكام ومعاملات وعقائد ، من مثل :

- (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) المائدة /٧١.
- ﴿ واتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ من كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ الكهف /٢٧ .
- ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نبَأَ إِبْرَاهِيم ﴾ الشعراء /٦٩ .
- ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وأَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ العنكبوت / ٤٥ .

وإذا كان هناك معاندون مكابرون ، فإن هناك المؤمنين العابدين الذين ليس في قلوبهم مرض ، سليمى التفكير ، خالصى النية . هؤلاء عندما تتلى عليهم آيات الله عز وجل ، تحدث أثر ها الفعال ، إذ تكسب المؤمن مزيدا من الإيمان والتقوى :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ الأنفال /٢

بل إن من المؤمنين من ترتفع بهم قوة الإيمان إلى درجة عالية من الشفافية ، حتى يحدث لهم مايقوله سبحانه وتعالى في سورة مريم ، آية ٨٥ . (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) ، على عكس هؤلاء

الجاهلين المعاندين :

﴿ وإذا تُتْلَىٰ عليهم آياتُنا بيِّنات تَعْرفُ في وُجُوه الَّذين كفَرُوا الْمُنكرَ ﴾ الحج . ٧٢ وأيضا :

﴿ وإذا تُتْلَىٰ عليه آياتُنا ولَّىٰ مُسْتَكْبِراً كأن لَّمْ يسْمَعْهَا ﴾ لقمان ٧

٦ - النصح : يقال نصحت توبته ، خلصت من شوائب العزم على الرجوع . ونصح قلبه ، خلا من الغش. ويقال نصح فلانا وله ، أرشده إلى ما فيه صلاحه . وهذا المصطلح بهذا المعنى ، عمل من أعمال التربية والتعليم

وتجئ آيات ربنا سبحانه وتعلى محملة بهذا المعنى كما نرى فيما يلي

- ﴿ وقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبِّي ونصحْتُ لَكُمْ ﴾ الأعراف /٧٩
- ﴿ أبلغُكُمْ رسالات ربِّي وأنصحْ ﴾ الأعراف / ٦٢ .
- ﴿ أُبلِغُكُمْ رسَالات رَبِّي وأَنَا لَكُمْ ناصحٌ أمينٌ ﴾ الأعراف / ٦٨ .

لكن النصح قد يتحول إلى مجرد جهد لفظى ويقوم به الناصح لا ينتج تغيراً في السلوك وإن كان يمكن أن يضيف إلى العقل عددا من المعانى والأفكار. وهو يمكن أن يكون هكذا إذا لم يقرن بالقدوة من الناصح ، وإذا لم يقترن النصح كذلك ببيان السبل والإجراءات التى تجعل ماينصح به فعلا محققا ومالا يقل عن ذلك أهمية أن يكون في حدود الاستطاعة البشرية ، وأمثلتنا في ذلك ، مواضع النصح المختلف التى أشار إليه القرآن الكريم.

٧ - التذكر : فذكر الناس ، أي وعظهم ودعاهم الى استحضار أمور إلى أذهانهم مما من شأنه أن يصحح مسار سلوكهم ويجنبهم عثرات التفكير . وهذه آيات القرآن المجيد تشير إلى ذلك :

- ﴿ فذكِّرْ بالْقُرْآنِ مَن يخَافُ وَعيدِ ﴾ ق/٤٥ .

- ﴿ وذكّرْ فإنّ الذكْرىٰ تنفعُ الْمُؤْمنينَ ﴾ الذاريات / ٥٥ .
- ﴿ فذكّرْ إن نّفعت الذكْرىٰ ﴾ الأعلى /٩ .
- ﴿ فذكّرْ إنّما أنتَ مُذكّرٌ ﴾ الغاشية /٢١ .

﴿ أنْ أخْرِجْ قوْمكَ منَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وذكّرْهُم بأيّامِ اللّه ﴾ابراهيم/٥

فماذا بالنسبة لمن نذكره ، ويظل سادرا في غيه ؟ إنه هنا يأتى من السلوك ما يضعه في زمرة الظالمين المستحقين لغضب الله وعذابه . بل إن ظلمهم لهو من الدرجات العليا لأن عذر الجهل غير قائم ، فالإعراض عن آيات الله يكون هنا بالمعنى الذى يقال إن فيه إصرارا وقصدا وبالتالى استحق هذا الوصف :

﴿ ومَنْ أظْلَمُ ممّن ذُكّرَ بآيات ربّه فأعْرضَ عنْهَا ﴾ الكهف /٥٧ .

وعكس هؤلاء ، مؤمنون صادقون ، يسارعون إلى الامتثال والعودة إلى الطريق المستقيم. إذا ذكروا بما يكونوا قد نسوه :

﴿ إنّما يُؤْمنُ بآياتنَا الّذينَ إذَا ذُكّرُوا بهَا خرُّوا سُجّداً ﴾ السجدة /١٥

٨ - الوعـــظ : كذلك تجئ كلمة (وعظ) بمعنى نصحه وذكره بالعواقب ، وكذلك بمعنى أمره بالطاعة ووصاه بها ، ولهذا فانها تستغرق معني من معانى العملية التعليم . ففي سورة لقمان ، الأية ١٣ نجد :

(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم)

إنها لعظة غير متهمة ، فما يريد الوالد لولده إلا الخير ، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحا وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ويعلل هذا النهى بأن الشرك ظلم عظيم ، ويؤكد هذه الحقيقة مرتين ، مرة بتقديم النهى

وفصل علته ، ومرة بإن واللام ، وهذه هي الحقيقة التى يعرضها محمد صلى الله عليه وسلم على قومه ، فيجادلونه فيها ، ويشكون في غرضه من وراء عرضها ، ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم ، فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها ؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة، بعيدة من كل مظنة ؟ ألا إنها الحقيقة القديمة التى تجرى على لسان كل من آتاه الله الحكمة من الناس ، يراد بها الخير المحض ، ولا يراد بها سواه ، وهذا هو المؤثر النفسى المقصود (في ظلال القرآن ، جـ٥ ، صـ ٢٧٨٨).

والوعظ التعليمى في القرآن الكريم لا يكتفى بالنهى والحكم على ما ينهي عنه ، وإنما يتبعه بالتفسير الهادف إلى الإقناع ، فمثل هذا النوع من الوعظ أكثر فعالية في الولوج إلى العقول والقلوب ، وبالتالى أقرب إلى العمل به ، يقول عز وجل مفسرا لماذا يعد الشرك عظيما بالإشارة إلى مظهر من مظاهر عظمة الخالق :

﴿ يا بُنيَّ إنَّهَا إن تَكُ مثْقَالَ حبَّةٍ مِّنْ خرْدَلٍ فَتَكُن فِي صخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يأْتِ بهَا اللَّهُ إنَّ اللَّهَ لطيفٌ خبيرٌ ﴾ لقمان / ١٦

يقول تفسير الظلال، أنه ما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميدان ما يبلغه هذا التعبير المصور ، وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء ، العميقة الإيقاع .. حبة من خردل ، صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة (فتكن في صخرة) .. صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها (أو في السموات) .. في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذى يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . (أو في الأرض) ضائعة في ثراها وحصادها لاتبين ، (يأت بها الله).. فعلمه يلاحقها ، وقدرته لا تفلتها

(إن الله لطيف خبير) . جـ٥، صـ٢٨٩ .

وتتعدد الآيات القرآنية المشيرة لعملية الوعظ كعملية تربية وتعليم وإرشاد :

- ﴿ واذْكُرُوا نعْمتَ اللّه علَيْكُمْ ومَا أنزلَ عليكُم مِّنَ الْكتاب والْحكْمة يعظُكُم به ﴾ البقرة/٢٣١ .

- ﴿ إنَّ اللَّهَ نعمَّا يعظُكُم به إنَّ اللَّهَ كَانَ سميعًا بصيراً ﴾ النساء /٥٨

﴿ وينْهىٰ عَنِ الْفحْشاء والْمُنكر والْبغْي يعظُكُمْ لعلَّكُمْ تذكَّرُون ﴾النحل/ ٩٠

- ﴿ يعظُكُمُ اللَّهُ أن تعُودُوا لمثْله أبَدًا إن كُنتُم مُّؤْمنين ﴾ النور /١٧ .

التعلم : كعملية :

والتعلم هو الطرف الآخر في العملية التربوية ، فإذا كان هناك من يعلم ويعظ وينصح .. الخ، فلابد أن يكون هناك في المقابل من يتعلم ومن ينصح ويوعظ .

وأول ما يستوقفنا هنا ، ذلك التقدير الكبير الذى تفيض به آيات الكتاب الكريم لمن يتعلمون ، ففي سورة الزمر ، آية ٩ :

﴿ قُلْ هلْ يسْتوي الَّذين يعْلَمُون والَّذين لا يعْلَمُون ﴾

إنهما لمستويان من البشر ، في المستوى الأول ، بشر يعرفون الله ويقدرونه حق قدره ، يرجون ما أعد لهم من ثواب على ما يؤدون من طاعات ، وفي المستوى الثانى ، بشر لا يرجون بأعمالهم خيرا ولا يخافون من سيئها شرا لهم ولأمثالهم .

ويؤكد الله عز وجل ذلك التقدير الخاص لطلاب العلم في الآية الحادية عشر من سورة المجادلة فيقول (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ..)

بل إن الذين حصلوا المعرفة والعلم هنا يقترنون بالذين آمنوا ، وفي ذلك ربط بين العالم والإيمان في موقف يرتفع بالإنسان المؤمن الساعى إلى المعرفة إلى مرتبة التشريف والتكريم .

ثم إن الله جلت قدرته يشبه الحاصل على العلم بالبصير والجاهل بالأعمى ، الأول يعى ويدرك ويفهم حقيقة التوحيد وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثانى قد استغلق عقله وعمى قلبه ، فلم يعد يدرك ويعى الحق ، يقول تعالى في سورة الرعد ، آية ١٩ : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ من رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ .

وعندما أخبر صموئيل نبى بنى اسرائيل قومه بأن الله قد اختار طالوت من سبط بنيامين بن يعقوب ملكا عليهم ، أدهشهم ذلك ولم يعجبهم ، فأنكروه ، على أساس ذلك المعيار الذى يشيع ويسود في عهود الانحراف العام ، ألا وهو مقدار الثروة المادية وحدها ، فهو لم يعرف بالثراء والغنى ، بينما كان فيهم من عرف بذلك .

هنا يبرز معياران مستقيمان : العلم والجسم ، فوفقا لهذين المعيارين يستحق طالوت أن يكون ملكا ، وكانت قوة الجسم ضرورة في زمن يتطلب قدرة علي النضال البدنى والجهاد الحربى وقدرة على تحمل المشاق ، فضلا عن اقتران هذه القوه الجسمية بالعلم يضبطها ويوجهها إلى المسار السليم ، يقول عز من قال في سورة البقرة ، آية ٢٤٧ .

﴿ **وقَال لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بعث لَكُمْ طَالُوت ملكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ علينا ونحْنُ أَحقُّ بالْمُلْك منهُ ولمْ يُؤْت سَعَةً مّن الْمَال قال إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وزادهُ بسْطَةً في الْعلْم والْجسْم واللَّهُ يُؤْتي مُلْكَهُ من يشاءُ واللَّهُ وَاسعٌ عَليمٌ** ﴾ .

ولأن العلم طريق إلى الحق ، فإن سالكه هو أكثر الناس خشية لله

لكثرة معرفته برسالته وعمق درايته بمضمونها ، يقول عز وجل في سورة فاطر ، آيه /٢٨ :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

ويسبق الله هذا التقرير بتعداد بعض آياته الكونية كاختلاف ألوان الثمار والجبال ، كذلك الناس والدواب والأنعام ، فمثل هذه الاختلافات تستدعي التأمل والدرس والاعتبار ، وهذا أمر العلماء بما يملكون من أدوات ومهارات وقدرات وتفتح آفاق العقل ، يقول تعالى في سورة فاطر ، آية ٢٧-٢٨ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ﴾

طلب المعرفة من المتمكنين من العلم :

إذا كان طلب العلم والمعرفة أمرا مرغوبا يستحث عليه ، إلا أن المسألة ليست مجرد معارف سطحية وثقافية قشرية ومعلومات جزئية ، وإنما هى ضرورة تجويد تعلم وإحسان معرفة وإتقان علم ، ففي القرآن الكريم آيات محكمة العبارة واضحة ظاهرة لا تقبل تأويلا ولا تحتمل اشتباها ، ومن مثل هذا آيات التحليل والتحريم والوعد والوعيد والثواب والعقاب وآيات القصص ،وضرب الأمثال، وآيات الفرئض والحدود ونحوها مما كان دليلها واضحا وتحصيل العلم بها ميسورا .

لكن هناك آيات أخرى متشابهة لا يسهل على العقل تحصيل معناها الحقيقى ، هنا تجئ أهمية التعمق المعرفى والرسوخ العلمى ، فمن يتوفر لديهم هذا هم الذين ينبغى أن نسعى اليهم، فهم المتمكنون في العلم ، وهم أهل اليقين ، ولا ينبغى لطالب العلم المسلم أن يقنع بتأويل وتفسير المرجفين الذين يسعون إلى بذر الغموض وتعميق الخلاف ونشر الشكوك ،

قال تعالى في سورة آل عمران ، آية ٧ : ﴿ **هو الَّذي أنزل عليْك الْكتاب منْهُ آياتٌ مُحْكماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكتاب وأُخرُ مُتشابهاتٌ فأمَّا الَّذين في قُلُوبهمْ زيْغٌ فيتَّبعُون ما تشابه منْهُ ابْتغاء الْفتْنة وابْتغاء تأويله وما يعْلمُ تأْويلهُ إلاَّ اللَّهُ والرَّاسخُون في الْعلْم يقُولُون آمنَّا به كُلٌّ منْ عند ربنا وما يذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الألْباب** ﴾، بل إنه لمنهج قرآني وعلمي يجب الامتثال له والسير عليه وهو ألا نطلب العلم إلا من أهله ولا نسعى في سبيل الفهم إذا استغلق علينا أمر إلا لأهل الدراية به ، وما دمنا نفتقد ما يمكننا من الفهم والدراية ، فلا عيب في أن يجهل الإنسان أمرا ، ولا ضير من أن تعسر على المتعلم مسألة ، ولكن العيب كل العيب ألا نأتي البيوت من أبوابها : ألا نتجه إلى من يعنيهم سبحانه عز وجل بقوله في سورة النحل ، آية ٤٣ : ﴿ **فاسألُوا أهْل الذّكْر إن كُنتُمْ لا تعْلمُون** ﴾

والرسول صلى الله عليه وسلم هو البشير وهو النذير ، ولذلك كان الاتجاه إلى سنته الشريفة مصدرا أساسيا للتعلم بعد القرآن الكريم ، أمرا مطلوبا من كل مسلم .

كذلك من المطلوب من طالب العلم المسلم أن يسعى إلى أولى الأمر لمعرفة الحقيقة . وليس المقصود بأولى الأمر هنا كما قد يتبادر إلى الذهن أصحاب الحكم والإدارة ، وانما هم أصحاب العلم والدراية أيضا ، يقول عز وجل في سورة النساء ، آيه ٨٣ :﴿ **وإذا جاءهُمْ أمْرٌ منَ الأمْن أو الْخوْف أذاعُوا به ولوْ ردُّوهُ إلى الرَّسُول وإلىٰ أُولي الأمْر منْهُمْ لعلمهُ الَّذين يسْتنبطُونهُ منْهُمْ** ﴾

وحينما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، أتاه حبران من أحبار أهل الشام ، فلما أبصرا المدينة ، قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبى الذى يخرج في آخر الزمان . فلما دخلا على النبى صلى الله عليه وسلم عرفاه بصفاته المذكورة في التوراة ، فقالا له : أنت

محمد ؟ قال نعم، قالا : وأنت أحمد ؟ قال : نعم . قالا : نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلاني . فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله .فأنزل الله عليه الآية (١٨) من سورة آل عمران ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾فكان أن أسلم الحبران.

فهاهنا تأتى شهادة الذين أوتوا العلم مقرونة بشهادة الله عز وجل وبشهادة الملائكة ، وهى شهادة إظهار وحدانيته باقامة الأدلة المؤكدة لقدرته

القرآن مصدرا للتعلم :

وإذا كانت هذه هى منزلة الذين أوتوا العلم ، وإذا كانت هذه هى مكانتهم وتلك هي أهميتهم ، فإن شرف المنزلة تكون على قدر شرف موضوعها ، وشرف موضوعها يكون على قدرة شرف المصدر ، والعلم إذا كان قد شرف حملته والساعين إليه والطالبين له ،فإنما يكون ذلك بمصدره الإلهى المتمثل في القرآن الكريم .

ولربما يتبادر إلي أذهان البعض أن أمر التعلم إذا ، يقتصر شرفا وتقديرا على التعلم من القرآن الكريم دون أن يمتد ذلك إلى سائر ميادين المعرفة ومجالات العلم وهذه مسألة تحتاج إلى إيضاح وبيان.

إن مذاكرة القرآن الكريم وتعلمه وفهمه واستيعابه ، تقتضي بنفسها ، بالضرورة أن يسعى الإنسان بعقله وقلبه وما وهب من أدوات المعرفة ووسائلها إلي كتاب الله (الكونى) .. المشخص في البحار والأنهار ، في الجبال والسهول ، في السحاب والمطر ، في البشر وعلاقاتهم ، في النبات والحيوان.. الخ .

هكذا نفهم القرآن مصدرا للتعلم ومنهاج حياة ودليل علم ، وهكذا يدعو

الله عز وجل إلى دراسة القرآن الكريم وتأمل معانيه وفهم دلالته ، فمنه ينبع الإقرار بالتوحيد ، فالتناسق والتكامل والاتساق في آيات القرآن برهان على وحدانية قائله عز وجل ، يقول في سورة النساء، آية ٨٢: ﴿ أفلا يَتدبَّرُونَ القُرآن ولَوْ كَانَ مِنْ عند غَيْر الله لَوجَدُوا فيه اخْتلافًا كَثيراً ﴾ .

وعند النظر إلى القرآن الكريم مصدرا للتعلم ، لا نقف فقط عند حدود لفظة التعلم بحروفها ، فهناك من ألفاظ القرآن الكريم ما يحمل معنى التعلم بصيغ لفظية مختلفة ، لكل منها دقته في بعض الزوايا ، ومثال ذلك يجئ مصطلح (التدبر) ليركز على جوانب الفهم وإدراك العلاقات بين الأسباب والنتائج واستخلاص الدلالات.

وهذا القرآن تبيان لكل شئ ، فصلت آياته بتميزها بفواصل ومقاطع ، وميزت معنى ، بكونها مشتملة على السير وقصص الأولين والتشريعات والكونيات والوعد والوعيد والمواعظ والحكم وتهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، والتوحيد وكل ما يدعو إلى الحياة الطيبة في الدارين ، وقد أنزل الله القرآن عربيا بلغة العرب ليعلموا أسراره ويستطيعون فهم معانيه وإدراك أهدافه وغاياته : ﴿ كتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عرَبيًّا لِّقَوْمٍ يعْلَمُونَ ﴾ فصلت ، آية ٣ .

ولقد سهل الله لفظ القرآن ويسر معناه ليسهل حفظه وفهمه ، وملأ آياته بأنواع القصص ذات العبر والمواعظ ، ليتدبر من أراد ويعتبر من شاء ، فهل من متعظ يعتبر فيكف عن المعاصى ؟ وهل من قارئ يحفظه ويتدبر معانيه فيهتدى بنوره ، ويتبع شرائعه فيسلك الطريق السوى المستقيم ؟ ﴿ ولقدْ يسَّرْنَا القُرْآنَ للذِّكْر فَهَلْ من مُّدَّكِرٍ ﴾ القمر ، آية ٣٢ ، ويقول : ﴿ ونُفصِّلُ الآيَات لقوْمٍ يعْلَمُونَ ﴾ التوبة ، آية ١١ .

فهو سبحانه وتعالى يبين الآيات ويوضحها لقوم يريدون فهمها

فيتفكرون فيها وينتفعون بها . ويقول أيضا في سورة البقرة ، آية ٢٢١ :

(.... ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) .

وإذا كانت مثل هذه الآيات تشير إلى التعلم من كتاب الله تفضيلا واستحسانا ورجاء ، فإن هناك مايفيد (الأمر) ، يقول تعالى في سورة الأعراف ، آية ١٧١ : ﴿ خذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . وكذلك في سورة البقرة ، آية ٦٣ : صحيح أن الخطاب هنا كان موجها لبنى اسرائيل ، لكن الحكم عام بضرورة معرفة ما أتى به الله وأخذه مأخذا جديا نشطا وفهمه واستيعابه ، فبقدر ما نعرف ونسلك نفهم ونعى وفقا لما جاء به الله عز وجل بقدر ما نكون عليه من التقوى والفلاح .

وإذا كنا قد أشرنا إلي مصطلح (التدبر) ليدل على فعل التعلم عندما يقوم على الفهم والوعى والإدراك والاستبصار ، فإن هناك أيضا مصطلح (التلاوة) الذى ورد كثيرا في القرآن الكريم ، والذى قد يفهم البعض منه أنه مجرد التلفظ لسانا بالآيات والكلمات ومن هنا يجئ حرصه عز وجل على وصف من يقرأون كلام الله قراءة صحيحة كما أنزل ويفهمونها ويتدبرونها ، فهؤلاء يصلون إلى الغاية المنطقية ، وهى الإيمان :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾،البقرة، آية ١٢١ ، فالتلاوة هنا ليست أية تلاوة ، وإنما هى تلاوة فهم واعتبار ، تلاوة امتثال واستقامة .

والانتفاع بنتائج التعلم يرتبط بأمر هام هو بمثابة العمود الفقرى ، ألا وهو (التقوى) ، ولعل هذا هو ما يميز تربية الإسلام عن غيرها من مذاهب وفلسفات ونظريات. وهكذا نجد هؤلاء الذين يخشون ربهم ، تزهر ثمرات تعلم القرآن لديهم بسرعة ، ومن هنا يجئ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ ، الأعلى ، آية ١٠ .

وعلى عكس ذلك ، يكون هذا الذى غلبت عليه شقوته وفرغ قلبه من خشية الله وتقواه : (ويتجنبها الأشقى) ، الأعلى ، آية ١١ . ولعل هذا يعد برهانا آخر من لدن خالق الإنسان ، للإنسان ، الذى هو موضوع التربية ، بأن رسوخ التقوى وخشوع القلب ، والتوجه الي الله دائما من شأنه أن يفتح وعى الإنسان وينشط عقله فيستقبل من مثيرات التعلم ومنبهاته ما من شأنه أن يرفع مستواه ويعز شأنه .

وإذا كان الإنسان مطالبا بتعلم القرآن ، وأن هذا التعلم القرآنى موجه بالضروة إلى تعلم كتاب الكون ، فهناك العديد من آياته وظواهره التى ينبغي على الإنسان أن يتجه اليها إبتغاء التفكر والفهم :

من مجالات تعلم في القرآن

– من هذه الظواهر عملية خلق الإنسان نفسه وكيف أن الله قد أوجده من عدم فمن شأن دراسة مثل هذه المسألة أن توجه عقل الدارس إلى ضرورة الإيمان بالله :

(أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) مريم /٦٧

ففي هذه الآية وتلك التى سبقتها نجد بين أيدينا مصطلحا آخر لعلمية التعليم ألا وهو (ذكر) ، ومنه تأتى تلك المصطلحات الشهيرة التى نكثر من استخدامها مثل (ذاكر) و(مذاكرة) و(استذكار) .

– وتعلم القرآن أيضا يوجه نظر المتعلم الى ضرورة أهمية معرفة النجوم ، وهى شموس عظيمة تضئ بذاتها، وهى أجرام سماوية أعظم جرما وضوءا وحرارة من الشمس ، وإنما تبدو ضئيلة ضوءا وجرما وحرارة لبعدها السحيق وأهمية معرفة وظائفها بالنسبة للإنسان يهتدى بها في ظلمات البحر ، فدراسة مثل هذه المسألة لهؤلاء الذين يتوفر لديهم وعى وقدرة على النظر والاعتبار والفهم : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام / ٩٧ .

ومن المصطلحات القرآنية الدالة كذلك على عملية التعلم ، الفعل :

فقه ، وهو أيضا مشبع بدلالات الفهم وإعمال العقل . وفي معرض ما يؤدى إليه تعلم القرآن من انفتاح آفاق وتعدد مجالات كونية ، ينبهنا المولى عز وجل إلى أهمية النظر والتفكر في أصل الجماعة البشرية الواحد، ففي مثل هذا الأصل الواحد ، برهان ساطع علي وحدانية الله ، وله تداعياته الاجتماعية والإنسانية الأخرى من حيث المساواة والتكافل والعدل الاجتماعي وتكافؤ الفرص ونبذ التمييز والعنصرية ، وهذه دلالات ومعانى لا يدركها الإنسان إلا بالوعي والفهم :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾. الأنعام / ٩٨ وفي سورة العنكبوت ، الآية ٤٣ : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾، فها هنا مصطلح آخر وهو الفعل (عقل) ، فالذى يعقل أمرا، يفهمه ويستوعبه ويدركه فيصبح ثمرة تعلم قائم على الفهم والوعى .

– وتعلم القرآن يؤدى بالإنسان إلي إدراك أهمية الشمس والقمر وما ينتج عن دراستهما من عمليات أساسية ، لا قوام للحياة الإنسانية الإ بها ، فضلا عن تولد علوم ودراسات أخرى عن هذه العلميات ، فلجميع الكواكب مجالات فلكية تدور فيها حول الشمس ، كما تدور الأقمار حول كواكبها ، وتدور الأرض وكثير من الكواكب حول محورها ، ومن هذا الدوران ينشأ الليل والنهار . وهكذا يمكن حساب الأوقات من الأيام وأجزائها ، والأسابيع والشهور والفصول والسنين العادية والضوئية، وهذا الحساب فيه ضبط لأوقات الصلاة ، كما يمكننا من ضبط أيام صيامنا وزكاتنا وحجنا ، وضبط جميع أعمالنا وإنجازاتنا ، يقول عز وجل في سورة يونس ، آية ٥ : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين

والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، نفصل الأيات لقوم يعلمون) .

مصادر التعلم وأجهزته :

وما دام الإنسان قد خلق قابلا للتعلم ، فإن منطق التسلسل الإلهى قد اقتضى أن يزود الإنسان بالوسائل والمنافذ التى من خلالها يكتسب المعارف المتعددة والمعلومات المختلفة ، وأن يكون مهيئا وقادرا علي تلقى المعرفة من مصادرها ، ويمكن أن نشير إلى هذه المصادر والأجهزة فيما يأتى :

١ - **الوحى :** الوحى لغة ، كل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ، وأوحى إليه ، وله ، أى أشار وأومأ ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴾ مريم /١١ .

وهو أيضا بمعنى الإلهام ، لكنه يمكن أن يشمل كائنات أخرى ، قال عز وجل: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴾ النحل / ٦٨ .

لكن الوحى الذى نعنيه هنا هو مايقصد في اصطلاح الشرع ومعناه : الرسالات السماوية التى يكلف بها نبى مختار من عباد الله ليعمل بها أو يبلغها مع عمله إلى القوم الذين أرسل اليهم (عبد العال مكرم . صـ ١٨) .

وإذا كانت حواس الإنسان هى منافذ للتعلم ، فإنها محدودة بنطاق معين لا تمتد إلى ماهو أبعد منه . صحيح أن الإنسان دائما يطور من الأجهزة التى تعد امتدادا للحواس وخاصة بالنسبة للسمع والبصر ، لكنها تظل قاصرة عن الإحاطة بمختلف الموجودات .

وإذا كان العقل يستطيع أن ينفذ إلى ما وراء المحسوسات ويتجاوز

نطاقها ، لكن هناك عددا غير قليل من مواطن الزلل التي تجعل النتائج التى يصل إليها ، كما تحتمل الصواب ، فانها أيضا تحتمل الخطأ ، فضلا عن خضوعه لمؤثرات التكوين والتنشئة وتلونه بها ، وأيضا يمكن أن يصدق عليه ما قلناه عن الحواس من حيث محدودية النطاق .

هنا يكون الوحى مصدرا لكم من الحقائق والمعارف الضرورية لهداية الإنسان ، تجئ إليه عن طريق الرسل والأنبياء، مما جعل بعض العلماء من المسلمين يسمون هذه المعرفة الناتجة عن هذا الطريق (بالمعرفة اللدنية) ، أى التى جاءت من عند الله عز وجل ، وتسمى العلوم المبنية عليها كعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه والشريعة ، بالعلوم النقلية ، على أساس أن الحقائق المبنية عليها جاءت (نقلا) عن طريق الوحى .

ومن هذا ما ورد في قوله تعالى لرسوله الكريم صلي الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ النساء / ١١٣ ، يعنى من الشرائع والأحكام (عبدالفتاح جلال، ص٩٩) . ومن هذا العلم الذى يكون مصدره إلهى ، كل ما يتصل بتعلم العبادات بمعناها الضيق ، أي ما فرضه الله من صلاة وصوم وزكاة وحج ، إذ أنه سبحانه وتعالى هو الذى شرعها وفرضها على الناس ، ولذا كان الله هو مصدرها، ويدل على ذلك قوله :
﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة / ٢٣٨- ٢٣٩، ويؤكد ذلك أيضا ما ورد في تفسير (ويعلمكم مالم تكونو تعلمون) ويؤكد ذلك أيضا ما ورد في تفسير من قوله تعالى كَمَا أَرْسَلْنَا ﴿ فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

ويُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة ١٥١ . مما لا طريق إلى معرفته سوى الوحى (جلال /٩٩) .

وتجئ آيات القرآن الكريم منبئة بما أوحى إلى العديد من الأنبياء والرسل :

- ﴿ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ النساء . ١٦٣ .

- ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ النساء / ١٦٣ .

- ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾ الرعد / ٣٠ .

فما يوحى إلى النبى لابد أن يبلغ إلى الناس ليعلموا ما خفى عليهم ويقفوا على ماقصرت عن معرفته عقولهم ودلالة ما تدركه حواسهم :

(واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك)الكهف / ٢٧ .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ الأنبياء/٧٣
وأن ما يوحى به للأنبياء من لدن الخالق سبحانه وتعالى ، كان من الطبيعى أن يكون (حقا) وكان من المنطقى أن يكون (صدقا) .
﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فاطر/٣١ .

وهذا الذى يوحى به للأنبياء أمور لا يدركها الإنسان بنفسه ، لأنها كما قلنا مما يتصل بعالم الغيب : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ هود /٤٩

هذه المعرفة المتعلقة بعالم الغيب والتى تجئ عن طريق الوحى والتى تمثل جماع الحق والصدق ، على الإنسان أن يؤمن بها ، فمن شأن هذا الإيمان

والتصديق أن يسم أصحابه بالتقوى والهداية ، استحق رضى الله وفتح آفاق النجاح والفلاح :

- ﴿ الٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة / ١-٥ .

وما أوحى إلى النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن كريم ، هو مصدر التعليم والتعليم الأساسى في الإسلام كما فصلنا من قبل : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ ﴾ الأنعام /١٩ .

وليست المسألة فيما يصل إلى الإنسان عن طريق الوحى مسألة تلق وفهم وتصديق ، وإنما هي - بالإضافة الى هذا - عمل وسلوك يجئ عن طريق الاتباع مهما كانت هناك من صعاب ومشاق :

(واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) يونس / ١٠٩ .

وهناك نوع من العلم مصدره إلهى ، اختص به الله سبحانه وتعالى من شاء من عباده (جلال / ١٠١) وقد أشارت إليه الآية التالية عن علم الخضر عليه السلام : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ الكهف / ٦٥. ويرى بعض المفسرين أن علم الخضر عليه السلام كان علم الغيب ، ويقول ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بمواطن قد أوحيت إليه ، لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها ، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم . (القرطبى ، صـ٤٠٥٥ .) ،ولذلك لم يصبر سيدنا موسى على تصرفات الخضر حيث أن ظواهر

الأعمال لا تبرر تصرفات الخضر عليه السلام ، ولذلك أخبره في النهاية تفسير ما فعله مختتما التفسير بقوله - كما ذكر القرآة الكريم :، ﴿ وما فعلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْه صَبْراً ﴾ الكهف / ٨٢ . ومن هذا النوع من العلم اللدنى ، ماورد في قصة يوسف عليه السلام ، حيث علم أبوه يعقوب عليه السلام أنه ما يزال حيا رغم قول أبنائه بأن الذئب أكله (جلال / ١٠٢) ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ يوسف/١٨، وظل يعقوب يذكر يوسف عليهما السلام رغم مضى السنين :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ يوسف / ٨٥ ،ولكن يعقوب يعلم من الله أن يوسف بخير وأنه سيراه ولذلك يقول تعالى :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ يوسف/٨٦

ثم يرد الله سبحانه وتعالى إلى يعقوب كلا من يوسف عليه السلام ، وأخيه ، بعد أن يرسل يوسف قميصه إلى أبيه :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ يوسف/٩٤-٩٦ .

ويظهر يوسف مهارات تأويل وتفسير ، إذ عندما دخل معه السجن فتيان ورويا له ما رأياه طلبا منه تفسيرا لذلك وكان مبررهما في هذا الطلب (إنا نراك من المحسنين) ، فهذه المقدرة على التأويل والتفسير ليست متاحة لأى أحد وإنما تتاح فقط لهذا النفر من المحسنين ، ومن هذنا يجئ

قوله تعالى :
﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وكَذَلكَ نَجْزِي الْمُحْسنين﴾ يوسف/٢٢، ولأنه من هؤلاء المحسنين المتقين ﴿ وكَذَلكَ مكَّنَّا ليُوسُفَ في الأرْضِ ولِنُعلِّمَهُ من تأْوِيلِ الأَحَادِيث ﴾ يوسف/٢١ فلما نبأهما يوسف بتأويل ما رأياه ، حرص على أن يؤكد لهم أن تأويله ﴿ ممَّا علَّمني ربِّي ﴾ يوسف /٣٧ . وما كان ربه ليقدره على هذا إلا بعد أن ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، واتبع ملة إبراهيم واسحق ويعقوب : ﴿ ذَلكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وعَلَى النَّاسِ ولَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ يوسف /٣٨

وكان في مكة غلام يسمى جبر الرمى ، وكان نصرانيا ، وكان المشركون إذاسمعوا من النبى .صلى الله عليه وسلم آيات القرآن وما اشتمل عليه من قصص الأولين مع أنه أمي لم يقرأ، قالوا إنما يعلمه جبر وهو بشر وآدمى من جنسه وليس وحيا من عند الله ، فرد عليهم بأن لسان الذى يعلِّم محمدا أعجمى لا يفصح عن مراده ، والقرآن لسان عربى مبين ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته من رجل أعجمى ، وأنتم ياأهل مكة أفصح الناس بيانا وأقواهم حجة وبرهانا، وأقدرهم على الكلام نظما ونثرا وقد عجز جميع العرب أن يأتوا بمثله فكيف تنسبونه إلى أعجمى ألكن ؟

إن القرآن معجز بلفظه كما هو معجز بمعناه ، فإن زعمتم أن بشرا يعلمه بمعناه ، فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل البلاغة والفصاحة ، إذن فما جاء به محمد قرآن من عند الله معجزة له :
﴿ ولقدْ نعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعلِّمُهُ بشَرٌ لِّسَانُ الَّذي يُلْحدُون إِلَيْه أعْجَميٌّ وهَذا لِسانٌ عربيٌّ مُّبينٌ﴾ النحل / ١٠٣ .

٢ - **الحواس :** ونحن نتعامل مع مفردات هذا الكون وعناصره ومكوناته من خلال ما تنقله إلينا حواسنا من انطباعات حسية ، فلمختلف عناصر الكون ومكوناته صورها وتكويناتها ، ولها طعومها ومذاقها ، ولها ألوانها وتبايناتها ، كما أن لها أحجامها وأشكالها ، وإذا شبهنا مكونات الكون وعناصره بأجهزة إرسال ضخمة ، فإن لها ذبذباتها وموجاتها التي وفر الله سبحانه وتعالى داخل الإنسان أجهزة استقبال ، كيف كل منها ، وفقا لما لديه من موجات وذبذبات أن يتلقى ما يرسل من أجهزة الإرسال ، ومن هذه الحواس:

١ - السمع : فجهاز السمع المثبت في رأس الإنسان ، جليل القدر بين الأجهزة التي زود بها الجسم ، لأن حياتنا السوية بدون هذا الجهاز تضمحل وتكاد لا تساوى شيئا يستحق الذكر (شاكر / ٢٧) .

وكل الحواس يمكن الاستعاضة إلى حد ما عن فقد إحداها وتلافي أكبر قدر من النقص الذى يُحدثه ذلك ، إلا فقد السمع في وقت مبكر ، فإنه يُحدث اختلاً في بناء المرء تتعذر معه موازنها . وإذا كانت سلامة السمع بهذا القدر من الأهمية فلأن وظائفه في حياة الإنسان تشكل أخطر أعمدة الكائن الحى السوى العاقل المستفيد من أعقد العلوم والمشيد لأرقى الحضارات (شاكر / ٢٨)

ويقوم السمع بدوره كمنفذ يتلقى منه الحقيقة والحق ، يقول تعالى : ﴿وأنَا لَمَا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رهقا﴾الجن/ ١٣ . ويجئ موقف مشابه في سورة الأحقاف ، الأيتان ٢٩-٣٠ : ﴿وإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذا الإيمان إنما حصل لهؤلاء القوم بتأثير علم بحدث جديد اقتحم بلا استئذان أعماقهم عبر نافذتى السمع ، ومن ثم راح يتفاعل في أغوار العقل وسائر اجزاء الكيان إلى أن تفجر ينبوعه إيمانا (شاكر / ٢٩) .

وهناك فضيلة أخرى كبرى للسمع هى أن العلم المتلقى قراءة بالعين واللمس لا يتسع لكل العباد ، أما العلم المسموع، فتلقيه أقل مؤنة، وأكثر شيوعا لأنه يدخل فى قدرة المتعلم والأمي، وقدرة البصير والأعمى وقدرة الكبير والرضيع. وعند التلقى سماعا تضاف رقابة العين، فهى تارة تؤكد المسموع أو تدحضه ونجدها تارة أخرى تقوم بتعضيد المتلقى سماعا بالمتلقى مشاهدة . أما عند التلقي قراءة بالعين واللمس، فالسمع لا يكون رقيبا على المقروء ولا يتدخل بتأكيد صحته أو دحضها ولا يقوم بتلقى شئ مسموع معاضدة لتلقى شئ مقروء فى وقت واحد، بل إن هذا لو حصل لكان ثم تشويش على المقروء واضطراب الاستفادة من المسموع وفوات تحصيل الفائدتين معا على قدر كامل. (شاكر /٣٠)

ولعل ما نجده فى القرآن الكريم من تقديم السمع على البصر بشكل مقصود فى أكثر الآيات المتضمنة لذكر الحاستين تدليلا على التشريف والأهمية يعود إلى أن فضائل السمع تفوق فضائل البصر قدرا .

ويقول عز وجل عن أثر الاستماع الجيد :﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ الأنعام /٣٦، فمن يستمع بإمعان يدلل على رغبته فى التفاعل من بعد مع ما يسمعه بوعى وذكاء وفطنة، ومن ثم رغبته فى الوقوف أمام حصيلة التفاعل بشعور عال بالمسئولية وحرص واهتمام . ومثل هذا المرء يتلقف من داخله أمانة كأعز ما تكون وأغلاه فيبادر إلى الاستجابة لداعى الحق وسلوك سبيله رغم كل العوائق (شاكر/٣١).

وهناك توجيه تربوى هام نستدل عليه من قوله عز وجل :﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم** ﴾ فاطر/١٤ فهذه الآية تومئ إلى أن الإنسان لا يستفيد من شئ ولو كان دعوة الحق قبل أن يقدم بين يديه ما يساعد على السماع الطبيعى جهد المستطاع (شاكر/٣٢)، فما يساعد على السماع الطبيعى، القيام أولا بتبديد مخاوف الآخرين وأوهامهم تجاه الأمر المطلوب تبليغه إليهم، وكذلك تجويد وسائل التبليغ كالقول الرصين والفعل الجذاب والتأتى الحاذق والأسلوب الحكيم، وكل المتيسر من الخلق الحسن كصدق الحديث ولين العبارة وأدب الحوار .. وهكذا (شاكر/٣٣)

ويقول تعالى : ﴿ **إنَّ فِي ذَلكَ لَذكْرَى لمن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شهيدٌ** ﴾ ق /٣٧، فتشير لنا هذه الآية أن الذكرى بمواعظ الله عز وجل إنما تحصل لمن أوتى القلب الحى السليم الذى لا تقيده الأهواء ولا تفسده الشهوات. وكذلك فإن الذكرى تنفع من ألقى السمع وهو شهيد، (شاكر/٣٦) (ألقى السمع) كأنه رفع يده لئلا يتأثر الفعل بشوائب معكرة، ولما كان ملقى السمع شهيدا على الاستماع فهو إذن حارس أمين على ما يتلقاه . وليس مطلوبا منه أن يحرس العمل العقلى وإنما إذا وفى حق الحراسة على السماع بكل أمانة، أى أن لا يلصق بالمسموع شوائب معكرة لمجرى التفكير، يكون قد أعان أفضل إعانة على أن ينجز العمل العقلى التفاعل مع ما بحوزته من مسموع على أكمل وجه (شاكر/٣٧).

ب-البصر : وإعطاء السمع سبق الأهمية لا يقلل من مكانة النظر العينى والدور الموكول إليه فى حياة الإنسان، فعندما تراجع البصر تجاه السمع خطوة إلى الوراء، بقى محازيا له فى النهوض بأعباء الاستيعاب

العلمى وإمتاع الإنسان بما أودعه الله الخالق جل جلاله فى هذا الكون العظيم (شاكر/٣٧).

الإنسان يغتر أحيانا بما هو عليه من قوة وتمكن، فيغفل عن ربه ويوغل فى طريق الغرور إن لم يسترشد بقبس هدى فيقف على جادة الحق، وهنا تذكرة من الله : (ألم نجعل له عينين) البلد/٨

إن مثل من أوتى عينين فلم يسترشد بهما كمن أوتى مصباحا وسط الظلمة، فلم يلتمس الأمان لموطن قدمه والخلاص لكيانه المهدد، وإنما راح يستعين بضوء المصباح على طلب الحفر الخطرة والتوجه إلى جحور الحيات والتوغل فى مواطن الثعابين بحثا عن المهالك، وهو يحسب أنه يحسن صنعا أو يقوم ببطولة !! (شاكر/٤٠)

وعينا الإنسان ليستا كالمصباح يجده المرء على قارعة الطريق، أو يقتنيه بثمن زهيد فيحمله وينطلق إن شاء انتفع به وإن شاء ازداد ضلالا . العينان أغلى أمانة ممن خلق الإنسان، فهو إن انتفع بهما فى الاهتداء إلى أقوم سبيل، يكون قد أكرم أمانته وأبرأ ذمته أمام الخالق، أما إن لم ينتفع بهما وضل بلا مبالاة لاهثا وراء الهوى، فإنه سيلاقى الحساب العسير عما أوئتمن عليه، والويل له مما اقترف حيث لا يقبل منه عذر ولا اعتذار (شاكر/٤١)

ويقول سبحانه وتعالى : (ولهم أعين لا يبصرون بها) الأعراف/١٧٩، فأصحاب جهنم هؤلاء كانت لهم أعين فى دنياهم، أى لم يكونوا محرومى النظر، بل كانوا فى تنعم بها كسائر الخلق، ولكنهم ما أرادوا الإبصار المضئ لدواخلهم المظلمة، ما أرادوا اكتساب فائدة الإبصار، فهم تارة لا يتجاوزون بنظرهم سطح المنظور، لا يكلفون أنفسهم عناء استطلاع الحواس

والأعماق عندما يتعلق الأمر بتكوين عقيدة وحسم الرأى وأحكامه بخصوص الحقائق الكبرى المبثوثة فى هذا الوجود، وهم تارة أخرى ينظرون بأناة وإمعان وذكاء استطلاعا لدقائق الأشياء، ولكنهم غير متجردين، وإنما يحكمهم الهوى، فكيف يمكنهم التماس الحق وهم له كارهون ابتداء؟ (شاكر/٤٣)

ويقول عز وجل : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ فاطر /١٩

بالفعل، ليس سواء تمكن ذاتى من مواجهة المحيط بفضل البصر، وشبه تمكن ضئيل يرجى بواسطة الغير لاستحكام العمى، وليس سواء، نهوض عال بأعباء الحياة بفضل استطلاع العينين مجال الحركة جيدا أمام اليد والقدم ليكونا على بينة وسط أعتم رؤية، إذ لا قدرة للعينين البتة على استطلاع مجال الحركة وإنما كل ما يتم يحصل بدلالة دليل فى أحسن الأحوال وإلا، فالجمود أو التخبط العشوائى . (شاكر/٤٥).

وفى الخطاب القرآنى حث قوى للإنسان كى ينظر إلى مألوفات كثيرة فى هذا الكون ويتفكر فى شأنها وبراهينها الساطعة، لأن هذا النسيان صفة المغفلين، وهو لا يليق بغافل يتحسس المعارف ويسبر أغوارها وينقاد لمؤداها (شاكر/٥٥) : ها هو عز وجل يقول :

-(قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق) يونس /٥٩

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾الواقعة/٥٨-٥٩

- ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾يس/٧٧

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ ر رَحِيمٌ ﴾الحج/٦٥

-(ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

جـ - اللمس والشم : ولقد ورد اللمس الذى يؤدى إلى المعرفة فى آية واحدة، هى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . الأنعام /٧.

ويتبين من هذه الآية أن اللمس باليد يمكن للعقلاء أن يصل بهم إلى التعرف على معلومة ما، أما هؤلاء الكفار الذين عميت قلوبهم عن الدلائل المثبتة لنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام، فيطلبون منه أن يسأل ربه أن ينزل من السماء كتابا فى صحيفة يلمسوه بأيديهم حتى يتأكدوا من أنه من عند الله. ويخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم مع ذلك سيكذبون ويقولون إنما سكرت أبصارنا وسحرنا. إنه ليس الذى يجعلهم يعرضون عن آيات الله، إن البرهان على صدقها ضعيف، أو غامض، أو تختلف فيه العقول، إنما الذى يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق. وهو الإصرار مبدئيا على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلا !! ولو أن الله - سبحانه - نزل على رسول الله-صلى الله عليه وسلم - هذا القرآن، لا عن طريق الوحى الذى لا يرونه، ولكن فى ورقة منظورة ملموسة محسوسة، ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم -لا سماعا عن غيرهم، ولا مجرد رؤية بعيونهم-ما سلموا بهذا الذى يرونه ويلمسونه، ولقالوا جازمين مؤكدين : (إن هذا إلا سحر مبين) . قطب/١٠٣٩)

وهى صورة صفيقة، منكرة، تثير الإشمئزاز، وتستعدى من يراها عليها، صورة تثير النفس لتتقدم فتصفعها، حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجة أو جدل أو دليل.

وتصويرها على هذا النحو–وهى صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرورة–يؤدى غرضين أو عدة أغراض :

إنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه البغيض كالذي يرفع المرآة لصاحب الوجه الشائه أو السحنة المنكرة، ليرى نفسه فى هذه المرآة ويخجل منها .

وهو فى نفس الوقت يستجيش ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكار المنكرين ويثبت قلوبهم على الحق، فلا تتأثر بالجو المحيط من التكذيب والإنكار والفتنة والإيذاء .

كذلك يوحى بحلم الله الذى لا يعجل على هولاء المعارضين المكذبين، وهم فى مثل هذا العناد المنكر الصفيق .

وكلها أسلحة وحركة فى المعركة التى كانت تخوضها الجماعة المسلحة بهذا القرآن فى مواجهة المشركين. قطب /١٠٣٩

وهكذا يتضح أن اللمس من أدوات الإنسان للوصول إلى العلم، وإن كنا نتبين أن أدوات المعرفة متكاملة، فاللمس من غير تمييز ونظر عقلى لم يؤد إلى الوصول إلى الحقيقة، وكذلك (الشم) ، من الأدوات التى يصل بها الإنسان إلى العلم، فقد ورد فى القرآن الكريم :

(ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا تفندون)، أى أنى لأشم رائحة يوسف لولا أن تتهمونى بضعف العقل (جلال/١٠٤).

٣-العقل : منذ أن خلق الله هذا الكون بما فيه وبمن فيه، وجد الإنسان نفسه فى موقف ضعف أمام العديد من الظواهر ،الكائنات الأخرى، الحى منها وغير الحى ..

كانت دائرة سلطانه وسيادته من الضيق إلى الحد الذى وجد نفسه فى

كثير من الأحيان يقف عاجزا عن أن يتغلب على صرخات الجوع التى تمزق أمعاءه وآلام البرد أو الحر التى تحاصر جسده. ثم تمر السنون والأعوام وتتوالى القرون المختلفة، فإذا بهذا الإنسان يوسع من دائرة سلطانه وسيادته، ويسخر العديد من الظواهر والكائنات، الحى منها وغير الحى لما فيه مصلحته وخيره وسعادته، بعد أن جاب الآفاق المختلفة مزودا بهذه الجوهرة الثمينة التى خصه الله عز وجل دون سائر الكائنات الأخرى ...

إنها العقل ...

فأى عمل هذا الذى قام ويقوم به هذا العقل بحيث مكن، وما زال، يمكن الإنسان من سلسلة لا تنتهى من الانتصارات فى مواجهة العديد من المشكلات التى واجهته، وما زالت، فى مسيرة حياته على مر القرون والعصور

تأمل فى نفسك وما يملكه جسمك من أجهزة وأعضاء، كل منها يقوم بوظيفة بعينها ويؤدى نشاطا بذاته..

فالعين، تتيح لك فرصة الرؤية لما فى الكون من أشكال وألوان، فوظيفتها هى : الإبصار. والأذن، تتيح لك فرصة سماع ما يصدر من أصوات ونغمات، فوظيفتها هى : السمع. واللسان، يتيح لك فرصة معرفة (مذاق) الطعام والشراب، فوظيفته هى : التذوق ... وهكذا الأمر بالنسبة لسائر ما يملك الإنسان من أجهزة وأعضاء ..

لكن الأمر لا يقف عند حد (تلقى) ما يرد على الأعضاء من انطباعات حسية تستقبلها : فماذا يعنى هذا الصوت ؟ وماذا يعنى هذا الملمس؟ وما علاقة هذا اللون بهذا وذاك ؟ وما أثر ما سبق أن تلقيته من إحساسات على ما يحدث الآن؟ وما هى النتائج التى يمَكن أن تترتب مستقبلا على ما يحدث

الآن؟ ... هنا يبرز (العقل) ليقوم بالنشاط الذى هو وظيفته، ألا وهو التفكير.

إن الحواس -أدوات الإدراك - لا ينظر إليها كتاب الإسلام من حيث هى أجهزة حسية فحسب، بل هى فيه وسائل وعى وتمييز وتبصر . ومهما يعرض لها من خلل يعطل وظيفتها العضوية، فليس بحيث يطمس إنسانية البشر . وإذا لم يمكن تدارك الخلل بالطب والعلاج، فإن الآدمى يظل إنسانا، ولو كان قد ولد أكمه وأعمى ، أو أخرس وأصم، وفى ابن مكتوم نزلت آيات (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى).

إنما ينطفئ جوهر الإنسان بعمى البصيرة وصمم الوعى وضلال الرشد، فالعمى عمى البصيرة، والبكم سكوت على منكر وكتمان لكلمة الخير، والصم صد عن دعاء الحق والهدى، وغفلة عما يرى من آيات العظة والاعتبار(الشخصية الإسلامية/١٤٦) :

(ومنهم من يستمعون إليك . أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك. أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) يونس/٤٢-٤٣

والعقل هو الذى يحمى الإنسان من مثل هذا الداء العضال، لأن العقل مناط الوعى والرشد والبصر والتمييز والإدراك، ومن ثم يرتبط الإيمان بالعقل فى العقيدة الإسلامية ارتباطا وثيقا، فكتاب الإسلام يتجه إلى العقل فى تأييد الدين وترسيخ الإيمان . والله يبين الآيات لقوم يعقلون، ويؤمنون، ويضرب الأمثال لقوم يتفكرون ويبصرون ويفقهون ويوقنون، ويسوق العبرة لأولى الألباب، والعالمين، لأنهم المرجوون للنظر فى آيات القدرة الإلهية، وتدبر النظام الكونى المحكم، والإيمان بأنه لم يوجد عبثا، ولا يمكن أن يسير

بتلقائية عشواء : (الشخصية الإسلامية/١٤٨) : ﴿ وتلك الأمثالُ نضربُها للنَّاس وما يعقلُها إلاَّ العالمُون ﴾ العنكبوت/٤٣ .

ونحن لا نبالغ فى كثير أو فى قليل إذا قلنا أن العملية التربوية يستحيل أن تتم إذا لم تعتمد اعتمادا كليا وجزئيا على العقل، وإلا تحولت إلى مجرد عملية (تدريب) كتلك التى نرى أمثلة لها بالنسبة لما يحدث من تدريب لبعض الحيوانات وخاصة تلك التى نشاهدها عادة فى السيرك . بل إن فريقا كبيرا من الفلاسفة والمفكرين والمربين قد وصل بهم تقدير العقل فى العمل التربوى إلى الحد الذى أسقطوا فيه الحواس من اعتبارهم وهو خطأ لا شك فيه، إلا أنه لا يلغى أبدا دور الحواس .

ويرى المحاسبى أن العقل يستعمل للدلالة على معان متعددة منها (عبد الرحمن صالح/٢٠) :

-الغريزة التى تمكن المرء من اكتساب المعرفة . والعقل بهذا المعنى موجود عند المؤمن وغير المؤمن، وهذا الاستعداد الذى يتوافر لدى الإنسان العاقل يفتقر إليه المجانين.

-فهم المعنى، سواء كان الموضوع يتصل بهذه الحياة الدنيا أو الآخرة . وهذا أيضا يتساوى فيه الإنسان المؤمن والإنسان الكافر إذا توافر الاستعداد الغريزى ، فأهل الكتاب يسمعون كلام الله ويدركون معناه ودليل ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة (آية ٧٥) «ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه» . فهم عقلوا ما سمعوه وقاموا بتحريفه بعد ذلك .

-العقل بمعنى البصيرة أو العقل عن الله، وهذه لا توجد إلا عند الإنسان المسلم إذ أن نتيجة علمه تقوده إلى تعظيم الخالق.

ويميل المحاسبى إلى ضرورة اشتمال العقل على المعانى السابقة

جميعها وهذا يتضح من تعريفه للعقل إذ يقول : «فالعقل غريزة جعلها عز وجل فى الممتحنين من عباده أقام به على البالغين للحلم الحجة ».

والذى ينبغى أن نثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت فى القرآن عرضا، ولا تردد فيه كثيرا من قبيل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين هل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان فى تقديره.. (العقاد: التفكير فريضة إسلامية/١٩)

فالدين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق ولا يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب شفاعة من ولى متسلط أو صاحب قداسة مطاعة، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضى بالحرمان أو بالنجاة، فليس فى هذا الدين إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان إلا من طريق العمل. ومن هنا جاءت أهمية العقل التى آشار إليها القرآن الكريم، ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الاله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى (العقاد/٢٠) .

عقل الإنسان إذن طاقة من أكبر طاقاته ونعمة من أكبر نعم الله عليه : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾الملك/٢٣

(والفؤاد) يستخدم فى القرآن بمعنى العقل، أو القوة الواعية فى الإنسان أو القوة المدركة على وجه العموم .

ولقد فتن الإنسان بعقله، إذ استطاع به أن يميز بين الأشياء ويدرك

خصائصها، ويستنبط فوائدها، ويشكل صورا جديدة من (المادة) التى وجد نفسه محاطا بها على ظهر الأرض أو فى السموات. وفى العصور الحديثة خاصة زادت فتنة الإنسان بعقله، حين رأى المخترعات التى ينتجها، والكشوف التى يقع عليها (محمد قطب: منهج التربية الإسلامية/٩٠)

إن الإسلام يحترم الطاقات البشرية كلها، فهى هبة الله المنعم الوهاب، ولكنه يعطيها أقدارها الصحيحة، لا يبخسها قدرها، ولا يعطيها فوق قيمتها، ويستعملها جميعا إلى أقصى طاقاتها لفائدة المخلوق البشرى وصلاح حاله على الأرض . ومن ثم فهو يحترم الطاقة العقلية ويشجعها ويربيها لتتجه فى طريق الخير . ولكى يصل إلى ذلك فإنه يمزجها بمزيج الروح، ويستنبتها فى تربة الروح لتستمد من أريجها العذب وإشعاعها الطليق (محمد قطب/٩١)

ومن خصائص العقل فى القرآن، الإدراك، الذى يناط به الفهم والتصور، وهو على كونه لازما لإدراك الوازع الأخلاقى وإدراك أسبابه وعواقبه يستقل أحيانا بإدراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهى أو بالحسنات والسيئات. (العقاد/٧)

ومن خصائصه كذلك أنه – فيما تظهرنا عليه آيات ربنا الكريم – يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبنى عليها نتائجه وأحكامه . وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها القدرة على (الحكم) وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغى له أن يطلبه وما ينبغى له أن يأباه .

ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى فى القرآن (الرشد) وهو مقابل لتمام التكوين فى العقل الرشيد ، ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع

والعقل المدرك والعقل الحكيم ، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث لا نقص ولا اختلال . وقد يؤتى الحكيم من نقص في الإدراك ، وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة ، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك . (العقاد/٨)

وإن عملية استقراء الآيات القرآنية المتصلة بالعقل بمعانيه وخصائصه المختلفة تظهرنا على الحقائق التالية :

- أن الله حين طلب إلى العقل النظر في الكون للتعرف عليه ، إنما كان ذلك منه إيحاء أو إشارة بأن العقل البشرى له قدرة على أن يدرك أبعاد هذا الكون بمن فيه وما فيه من كائنات ولو بالتدريج وفي الحدود التى رسمها الله عز وجل .

- أن العقل البشرى سوف يدرك فيما يدرك من حقائق هذا الكون مقاصد المولى سبحانه وتعالى من خلق هذا الكون بمن فيه وما فيه . كما سوف يدرك من كيفية بناء الله لهذا الكون السنن والقواعد التي أقام الله عليها هذا البناء المحكم من حيث هو صنع الله الذى أتقن كل شئ . وإذا كانت سنن الله لا تتغير إلا بإرادته ، والقواعد التي أقام عليها هذا النباء ثابتة فقد أصبح في مكنة العقل البشرى الاهتداء إلى هذه القواعد وممارسة الحياة على أساس منها.

ثالثا - إن العقل البشرى لن يدرك كل الحقائق الكونية المتاحة له بمن فيه وما فيه دفعة واحدة وإنما سوف يدرك هذه الحقائق في مراحل مختلفة من الحياة . ومعنى ذلك أن العقل البشرى لن يكف عن البحث والدراسة ما دامت هناك أشياء لا تزال مجهولة ، ولا يزال هو يجد في البحث عنها .

ولابد لنا من وقفة سريعة فيما حققه العقل الإسلامى في صدر الإسلام

من معجزة ونحن نبحث سبل العمل المعاصر المؤدى الى التقدم والتطور .. كيف تمت المعجزة وما هى الظروف التى أعانتها على التحقق : إستيعاب مذهل للعقل البشرى ، لتغيرات جذرية ، مكنته من إعادة التشكل والعمل وفق صيغ جديدة لم يألفها قبل انسان .

إننا نستطيع أن نحظى ببعض الإضاءات المركزة التى قد تعين على الجواب .. إن الإسلام ، منح المنتمين اليه قدرات إضافية لتجاوز حيثيات الزمان والمكان والتحقق بالتوافق المنشود.. إنه بالسلم ذي الدرجات العريضة الذى رسمه لهم ، والذى يبدأ بالإسلام وينتهي بالإحسان ، مرورا بالإيمان والتقوى ، شحذ طاقاتهم وشد همتهم ، ونفخ في روحهم ودفعهم دفعا الى التجاوز والاختراق من أجل الوصول الى القمة التى يطمح إليها كل منتم لهذا الدين : الإحسان .. التربية الحسنة .. هناك حيث التكشف الكامل ، والإبداع التام ، والتقابل الذى لا يحجبه شئ بين الله والإنسان (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) عماد الدين خليل /٣٠

فهل آن لنا أن نسلك سبيل تربية الإحسان .. تربية الإسلام .. تربية القرآن ؟!

للمـــؤلف

١- الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
٢- المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٣- دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٤- تدريس المواد الفلسفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٥- قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٦- الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ . صدر فى طبعة أخرى فى سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال ١٩٨٦ بعنوان " دور الأزهر فى السياسة المصرية " ، مع حذف الفصل الأول ، وزيادة فصل فى آخره .
٧- التربية اليهودية الصهيونية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٨- أصول التربية الإسلامية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، أعيد طبعه ، مع بعض التغييرات ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
٩- التصور النبوى للشخصية السوية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٠- أوضاع المربين العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١١- التعليم الثانوى ، الواقع والمستقبل ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٢- نشأة التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٣- دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
١٤- دراسات فى اجتماعيات التربية (بالاشتراك) دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، وكان قد صدر بالاشتراك مع آخرين بعنوان " التربية ومشكلات المجتمع " ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
١٥- دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .
١٦- المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .
١٧- دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
١٨- ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٤ فى دار نشر الثقافة ، القاهرة) .
١٩- تجربة ثورة ٢٣ يوليو فى التعليم (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
٢٠- الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك) ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة منفردة مختلفة تماما ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧) .
٢١- النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٢- تطور إعداد معلم المرحلة الأولى فى مصر (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

٢٣- محنة التعليم فى مصر ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٤ ٠

٢٤- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ ٠

٢٥- معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، وكانت قد صدرت طبعة أولى منه ، مختصرة ، عن دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨)٠

٢٦- إنهم يخربون التعليم ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦ ٠

٢٧- الفكر التربوى العربى الحديث ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ ٠

٢٨- بحوث فى التربية الإسلامية ، مركز تنمية الموارد البشرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ٠

٢٩- تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٨٩ ٠

٣٠- الأمن التربوى العربى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩ ٠

٣١- هموم التعليم المصرى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩ ٠

٣٢- هوامش فى السياسة المصرية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٠ ٠

٣٣- اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩١ ٠

٣٤- تعميم التعليم الابتدائى فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ ٠

٣٥- محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ ٠

٣٦- الأصول الإسلامية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢ ٠

٣٧- دراسات فلسفية (بالاشتراك) ،للصف الثالث الثانوى (مستوى رفيع) ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٢ ٠

٣٨- مستقبل التعليم فى الوطن العربى فى القرن الحادى والعشرين (بالاشتراك) ، التقرير النهائى ، منتدى الفكر العربى ، عمان ، ١٩٩٢ ٠

٣٩- نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢ ٠

٤٠- رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ ٠

٤١- التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤ ٠وقد أعيد طبعه عام ١٩٩٩ بعنوان " التربية فى حضارات الشرق القديم " مع تغييرات جوهرية ٠

٤٢- مقدمة فى التأريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ثم أعيد طبعه ، مع إضافات كثيرة ، عام ١٩٩٩ ، نفس الناشر ٠

٤٣- التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ٠

٤٤– سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ٠
٤٥– فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٥ ٠
٤٦– التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليوم الطبى ، القاهرة ، ١٩٩٥ ٠
٤٧– التعليم فى مصر ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٩٥ ٠
٤٨– التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ٠
٤٩– سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ٠
٥٠– التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، (كانت الطبعة الأولى المختصرة منه بعنوان " تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية " ، نفس الناشر ، ١٩٧٩) ٠
٥١– التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٦ ٠
٥٢– التربية عند بنى إسرائيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ٠
٥٣– التربية التحليلية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ٠
٥٤– البناء القيمى فى مجتمع الكويت (تحرير) ، الديوان الأميرى ، مكتب الإنماء الاجتماعى ، الكويت ، ١٩٩٧ ٠
٥٥– استراتيجية تعليم الكبار فى الوطن العربى ، (تحت الطبع) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ١٩٩٨ ٠
٥٦– التربية (بالاشتراك) لمعلمى التعليم الفنى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٨ ٠
٥٧– التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨ ٠
٥٨– عرب فى قاع الزمن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ٠
٥٩– دفتر أحوال التعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ٠
٦٠– شجون جامعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ٠
٦١– رؤية سياسية للتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ٠

المحتويـــات

رقـم الايداع : ٩٩/١٣٠٩٨

الترقيم الدولى : .I.S.B.N

977 - 19 - 9705 - X